٣٠١٠٢٠٠٠٠٠٨١٤

بسم الله الرحمن الرحيم

٠٠٢٨٠٠ / ٨١٤

ع ٣٠ ع
وزارة التعليم العالي
معهد الدراسات الإسلامية
قسم اللغة العربية

جامعة أم القرى
مكة المكرمة
UMM AL-QURA UNIVERSITY MAKKAH
قسم المخطوطات

الحب والثورة

في شعر الشابي

البحث المقدم من الطالب: قاسم صلاح الصلاح لنيل درجة الماجستير

بإشراف الأستاذ الدكتور: أحمد الشرباصي

١٩٧٨ — ١٩٧٩ م
١٣٩٨ — ١٣٩٩ هـ

بسم اللـــه الرحمـن الـــرحـــيم

الحيـاة العامـة فـي تونـس قبـل الشابـي

في أواخر القرن الماضي ،بدأ الغرب يسيطر على أجزاء من الوطن العربي ،وكانت تونس بلد الشابي من بين البلدان العربية التي سقطت في يد الفرنسيين سنة ١٨٨١م ،ومنذ ذلك الوقت كانت تخضع لحكم مزدوج (حكم الفرنسيين أولا وحكم الباى ثانيا) ، والباى هو الذى ورث الحكم عن أسرته المعروفة باسم الأسرة الحسينية التي ظلت تحكم تونس منذ سنة ١٧٠٥م الى سنة ١٩٥٦م ،حيث أعلنت الجمهورية التونسية وتم خلع آخر الهايات.

والباى كلمة تركية كانت تطلق على حاكم تونس عندما كانت خاضعة للأتراك ،وهي كلمة تشبه الخديوى في مصر.

ولقد قام تحالف بين أعداء الشعب ــ الباى وبين الفرنسيين ــ ولقد استمر هذا التحالف بعد ذلك لأن مصلحة أعداء الشعب واحدة.

ومن المواقف المناوئة للشعب،أنه أرسل جيشا تونسيا سنة ١٨٨١م الى الحدود الجزائرية وذلك لمساعدة الجيش الفرنسي ضد الجزائريين ،ولهذا الموقف وأمثاله لم يجد الفرنسيون أى مبرر لتغيير هذا الحكم ــ ذلك النظام الذى يقف الباى على قمته وقاعدته معا .

وفي الحرب العالمية الأولى أعد باى آخر من بايات تونس جيشا قوامه ستة وخمسين الفا من التونسيين ليحارب فى صفوف الفرنسيين ،وقد قتل منهم في الحرب اثنا عشر ألفا ،واستمر بايات تونس في تنازلهم عن حقوق الشعب،وهي الحقوق التي لم يعترفوا بها في يوم من الأيام ،كل ذلك في سبيل مصالحهم الخاصة ،وخوفا من الاصطدام مع الفرنسيين .

وكان من المظاهر الأخرى لتنازل البايات عن حقوق الشعب أن تم تسجيل أفضل الأراضي الزراعية في تونس باسم المستوطنين الفرنسيين ،كما أصبحت معظم الوظائف الهامة التونسية في يد الفرنسيين فمن بين ثلاثين ألف اداري في تونس بعد الحرب العالمية الأولى كان هناك خمسة وعشرون ألفا على وجه التقريب من الفرنسيين ،في مقابل خمسة آلاف من أبناء تونس.

وفي الميدان الاقتصادى كان اليهود يسيطرون على معظم الصناعات والحرف الصغيرة وخاصة صناعة الأحذية ،وصناعة النسيج ،وكان يهود تونس يطالبون بأن يطبق عليهم القانون الفرنسي وقواعد الحياة الفرنسية في كل شىء ،حيث كانوا يشعرون بالولاء للمال أولا ،شأن (المزاج اليهودى)و (التاريخ العملي لليهود في كل أنحاء العالم) ،وفي مختلف مراحل التاريخ ،وكان اليهود يشعرون بالولاء ثانيا لفرنسا ولم يكونوا يشعرون بالولاء لتونس التي ولدوا فيها وعاشوا على خيرها ،فلقد كانت فرنسا في تونس هي السلطة الاستعمارية التي تحمي الاستغلال والمستغلين داخل المجتمع التونسي .

ثم تأتي المأساة الثقافية اذا صح التعبير ،لتعطي الملامح الأخيرة للمحنة التي كانت تعيش فيها تونس في ظل الاستعمار ،فقد كانت المدارس المختلفة تضم ١٣٪ من أبناء تونس و ٨٧٪ من أبناء فرنسا وذلك حسب الاحصاء الذى أورده الأستاذ عمر فروخ في كتابه عن الشابي .

مولـــد الشابي وظروف الحياة العامـة فيهـا :

في هذا الجو المليء بالظلم والحزن ،ولد أبو القاسم الشابي وبالتحديد في ٢٤ / فبراير ــ شباط سنة ١٩٠٩م. ولكن هذه الفترة لم تكن مظلمة تماما ،ولا خالية من أيّ شعاع من الضوء ،فكلما اشتد الظلم والتأخر اللذان يهددان شعبا حيا بالهلاك ،بدأت الأفكار الثورية تولد كبذور لعالم جديد ،وقوى جديدة تهدف الى انقاذ الشعب من الكارثة وربما اختبأت الأفكار الثورية المتفتحة في الحواري والبيوت الفقيرة وربما استترت بالظلام والتظاهر بالسذاجة واختفت وراء النكتة وخفة الروح ،كل ذلك لتتحايل وتتمكن من الانطلاق بعد ذلك لتكون اساسا للمستقبل ،وربما اختبأت هذه الأفكار القوية الخصبة في عقل رجل يلبس العمامة ويتحدث باللغة العربية الفصحى ،ويبدو وكأنه رجل دين لاعلاقة له بالدنيا : أيّ لا علاقة له بالحكام والشعوب، وربما اختبأت هذه الأفكار على "مصطبة" يجلس فوقها ناس يتدارسون ــ في العلن ــ أمور الفقه والنحو وما الى ذلك ،وهم في حقيقة أمرهم يدرسون معنى الثورة وطريقة الثورة (١) يدرسون "سر الحياة السليمة" ،ويفكرون في تغيير الظلم ونشر العدل في المجتمع المظلوم، وربما اختبأت هذه الأفكار الثورية على حصيرة جامع يقف الناس فوقها ،يتجهون بقلوبهم الى الله ،وهم في أعماقهم يشعرون أن الله هو العدل وهو رغيف الخبز ،وهو الحروف التي حرم الملايين من تعليمها ،لأن الله عادل وعليم ومحب للفقراء .

وهذا ما حدث في تونس،فقد كانت تظهر وسط الظلام أشعة خافتة هنا وهناك ،وكانت هذه الأشعة الخافتة هي التي تجمعت وقويت بعد ذلك لتقلب الأمور في تونس وفي كثير من أجزاء الوطن العربي .

وكان الشعاع الأول هو بدون شك ذلك الشيخ الغريب الذي كان ينتقل من بلد اسلامي الى بلد آخر "يوزع المسعوط بيمينه ،ويوزع الثورة بيساره" .... ذلك هو جمال الدين الأفغاني ، الأب الشرعي "لثورات أوائل القرن العشرين" في كل أجزاء الوطن العربي على الرغم أنه بذر بذور هذه الثورات في أواخر القرن التاسع عشر.

لم يذهب الأفغاني الى تونس بنفسه ،وانما ذهب اليها بمبادئه وتلاميذه ،وفعلي سنة ١٨٨٥م ،أيّ بعد احتلال تونس بأربع سنوات تقريبا ،ذهب الشيخ محمد عبده صديق الأفغاني وتلميذه الى تونس،وكان هدف الرحلة هو الاتصال بالمثقفين التونسيين ودفعهم الى الثورة على الأوضاع التي كان العالم الاسلامي العربي يعاني منها في ذلك الحين .

والفكرة التي كان يحملها الشيخ محمد عبده معه ،وهي فكرة الأفغاني في الوقت نفسه هي تجديد الاسلام ،وربطه بالحياة العصرية ،وتخليص الدين من البدع والخرافات ،والنهضة والدعوة الى الأخذ بالعلم الحديث،والخروج بالدين من مرحلة "الكهانة" والانعزال عن الحياة في الجوامع والمدارس المختلفة الى مرحلة جديدة حيّة ،وبذلك يستطيع العالم الاسلامي أن يعود الى قوته ويتخلص من الاحتلال الغربي وسيطرة البابات في تونس

---

(١) :ــ أبو القاسم الشابي ــ شاعر الحب والثورة ــ لرجاء النقاش.

أسرة محمد علي في مصر والأتراك في سوريا ولبنان .

ودارت المناقشات الواسعة بين الشيخ محمد عبده ومشايخ جامع الزيتونة وهو الجامع الذى كان وما يزال يقوم بدور الأزهر في مصر وكان لهذه المناقشات أثرها الكبير في تونس من الناحية الفكرية والسياسية

ولا بد من الاشارة هنا الى ظاهرة رئيسية من الظواهر المهمة والرئيسية في أوائل هذا القرن وهي أن الثائر في معظم الأحوال في الوطن العربي كله في تلك المرحلة كان ثائرا دينيا ، وهناك أكثر من سبب لهذه الظاهرة . ففي معظم البلاد العربية كانت الثورة موجهة ضد الغرب مما كان يجعل هذه البلاد تتجه الى فكرة الخلافة الاسلامية ، كرمز للكفاح ضد أوروبا .

فهذه الخلافة من الناحية الشكلية على الأقل — هي التي توحد المسلمين ، وتجعل لهم شخصية قوية في مواجهة الاستعمار الفرنسي خاصة ، والأوروبي عامة ، فقد كان المعنى الأول لهجوم الاستعمار الفرنسي على البلاد العربية ، هو معنى القضاء على المسلمين والحضارة الاسلامية ، مما جعل خروج الثائر من منطلق الثقافة الاسلامية أمرا ضروريا وملائما لروح تلك المرحلة ، أى أواخر القرن الماضي وأوائل القرن العشرين ، وحتى الثورة العربية سنة ١٩١٦م كانت تهدف الى اقامة خلافة اسلامية عربية في وجه الخلافة التركية ، ونستطيع أن نجد قائمة طويلة من الثوار في الوطن العربي في تلك الفترة ، كان الأساس في تكوينهم هو الثقافة الدينية مثل : الأفغاني ، محمد عبده ، والكواكبي ، والنديم ، وعبد العزيز جاويش ، وابن باديس وغيرهم .

كذلك لم يكن للعرب ثقافة سوى الثقافة الاسلامية ، ولم يعرفوا الثقافة الغربية الا في نطاق محدود ولم تتكون لهم بعد ثقافة جديدة معاصرة ، (١) ولذلك لجأوا الي بيتهم الوحيد الذى يملكونه وهو التراث العربي والاسلامي . . . وكان العرب بحاجة الى قوة معنوية تسندهم في صراعهم ، ولم يكن لهم قوة معنوية سوى الاسلام ، وقد تجسدت الثقافة العربية وروح الحضارة العربية حتى ذلك الوقت في شيء واحد وهو الاسلام ، وفي تلك المرحلة فقد العرب كل شيء على التقريب ، فقد كانت أنظمة الحكم متخلفة رجعية ، وكان الاستعمار مرتبكا يقوم على أسس واهية ، ومن هنا لم يكن أمام العرب أى محاولة لليقظة أو الثورة الا أن يعودوا الى تراثهم الاسلامي القديم ، الذى يستمدون منه قوة وعزما على التقدم والتحرك الى الأمام ، فلقد كان الواقع الذى يعيشون فيه فاسدا لا يحمل أى نوع من أنواع الالهام الحضارى والانساني

وهنا نجد ظاهرة جديرة بالملاحظة ، فنزعة الوحدة كانت تشيع في العالم الاسلامي والعربي منه خاصة في ذلك الحين ، وكان الأساس الوحيد الظاهر لهذه الوحدة هو الأساس الاسلامي وقد ظلت الجذرة الفكرية للوحدة العربية كما هي ، ولكنها تطورت وتفتحت وأصبح أساسها الآن هو الأساس القومي بمعناه العصرى ، بمعنى الاشتراك في التاريخ والمصلحة والمستقبل .

كذلك كانت الأفكار الدينية في القرن العشرين ، متغلغلة في عقول الناس وقلوبهم حتى أصبح من الضرورى أن يبدأ كل شيء بهذه العبارة المباركة بسم الله الرحمن الرحيم

---

(١) :— أبو القاسم الشابي — شاعر الحب والثورة — لرجاء النقاش .

كان لابد أن يبدأ كل شئ بها حتى الثورة نفسها كان لابد أن تبدأ بهذه العبارة ، وبالفعل بدأت الثورة على يد هؤ لاء الدينيين ، وكانت البداية هى الدعوة الى بعث الاسلام وتجديد الثقافة الاسلامية لكى يستطيع العرب أن يتلاءموا مع العصر الحديث ويجدوا قوة تسمح لهم بمواجهة التحدى الوافد اليهم من وراء البحار من الغرب .

وظهر جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده وكانت أهدافهما ثورية اصلاحية ولكن من خلال الدين ، وقد جدد جمال الدين الأفغانى أهدافه وأهداف الثوار فى ذلك العصر فى فكرتين رئيسيتين : الفكرة الأولى هى محاربة الخرافات التى انتشرت فى حياة الجماهير عقليا وواقعيا .

أما الفكرة الثانية فهى الاهتمام باقامة العقيدة على أساس النزعة العقلية لا النزعة الغيبية وكانت هذه الفكرة الأخيرة تهدف الى القضاء على العداء التقليدى الموروث الذى تراكم خلال أجيال طويلة بين العقل والدين ، وبالتالى بين الحضارة الحديثة وبين العقلية الاسلامية فى صورها المختلفة ، لقد كانت هذه الفكرة الثورية تهدف الى اعادة ايمان المجتمع العربى الاسلامى بالعقل ، وفسح المجال أمامه للابتكار والعمل بعد أن كانت الروح المسيطرة على الحياة هى روح التسليم بالواقع وعدم القدرة على تغيير هذا الواقع باعتباره صورة من صور ارادة عليا لا تقبل المناقشة أو التمرد .

وقد كان من تأثير هذه الحركة الفكرية الجديدة التى قادها جمال الدين الأفغانى ، وحملها معه محمد عبده الى تونس فى رحلته الأولى سنة ١٨٨٥ م ثم فى رحلته الثانية سنة ١٩٠٣ م ، أن قامت جمعيات فكرية عديدة تدعو الى التجديد والتطور ، وكان أبرز هذه الجمعيات وأكثرها تأثيرا على حياة تونس الفكرية هى " جمعية قدماء الصادقية " التى نادت بالأفكار التحررية الجديدة ، ودعت بقوة الى الأخذ بمبادئ الحضارة العصرية ، وكان الشابى عضوا فى هذه الجمعية حيث ألقى بها محاضرته الهامة " عن الخيال الشعرى عند العرب " (٢) .

الشعر فى تونس فى حياة الشابى .

كان الشعر الشائع هو ذلك الموصول الجذور بالمدرسة القديمة فى أغراضها وتعابيرها واعتمادها على التزويق فى الشعور ، فكان الشعراء طبعة مكررة ، لا يتفرد شاعر منهم بمزية ، ولا يعرف بخاصة من الخصائص ولا ينكر بمذهب من المذاهب فى الحياة ، أو بموقف من المواقف الاجتماعية حفلة من الحفلات ، أو سهرة من السهرات كافية لأن تهزهم ، فتبعث فيهم أصواتا خامدة خافتة كأنها تنبعث من وراء القبور ، أما الحياة فى محيطها العام الشامل ، أما الفهم الصحيح لرسالة الشعر ، ومكانة الشاعر فذلك شئ ظل بعيدا عن فهم أولئك السائرين فى قافلة الأجيال القديمة التى تضرب على غير هدى ، ولم تكن تونس فقيرة الى المزاج الشاعر ، ولكنها كانت فقيرة الى الشعر الصحيح ، حتى اذا جاء هذا الفريد " أبو القاسم الشابى " ورفع ذكرها فى كل مكان ، وجعل من روحها تيارا متدفقا هادرا فى محيط الأدب الحديث .

ولم يكن الشعر فى تونس مؤهلا للمشاركة الواعية ، لأن أغلب الشعراء كانوا يعيشون على التقليد ، حتى اذا انطلق هذا الفريد يحمل خصائص الذاتية المتفردة الأصيلة ، رأوا فى نبوغه

---

(١) أبو القاسم الشابى ــ شاعر الحب والثورة ــ لرجاء النقاش .
(٢) أبو القاسم الشابى ــ شاعر الحب والثورة ــ لرجاء النقاش .

المتفردة الأصلية، رأوا في نبوغه خطرا على مجدهم وشهرتهم، فتنادوا لكفاحه ومحاربته .

وكانت الحركة الأدبية الجديدة متمثلة في شبيبة واعية، اطلعت على الأدب الغربي، وتابعت نهضة الأدب العربي الحديث، وكانت تنهم في نهم شديد كل ما يصل اليها من ثقافات الغرب والشرق، وتجد في نفسها استجابة الى الدعوات القائمة في الشرق العربي، منادية بالتجديد، وكان حتما أن تجد هذه الدعوات طريقها الى المجتمع المغربي، فهو لا يتجزأ من الكيان العربي، فاعتنقها الشباب وكانوا من دعاتها وأنصارها. فقد راعهم الخمود الأدبي، وآلمهم ألا يكون لبلادهم مشاركة واعية في الحاضر، كما كانت لها في الماضي، فاندفعوا في قوة وعزم الى تصحيح المفاهيم الأدبية، وكانت مهمة عسيرة فليس أعسر من النهوض بالتجديد . ومحاولة اصلاح الأدب، معناها اصلاح الأمة كما يقول العقاد، نلمس ذلك فيما وجه من نقدات صائبة الى فنون الأدب، ويهمنا منها، بنوع خاص، الشعر الذي كان يشكو تخلفا في الروح، يبعد به عن مجاراة التيار العربي في الشرق . (١)

وفي هذا يقول الأستاذ الحلبوي : " شعراؤنا كثيرون لا جرم، ولكن معظم شعرهم مشكوك في قيمته، متنافس في نفسه وليس يعسر على النقد أن يطلع على زيفه، ويبرهن على خلوه الا القليل من الاحساس والشعور، واقفاره من العاطفة والخيال، وليس يعيبه أن يتركه بعد عرضه على المحك كوما من الألفاظ والأوزان، وهشيما من التقاطيع والتفصيلات.

علم الله أننا لا زلنا بعداء عن الأدب الحيّ القوّي، الذي يصدر عن القلب، فيدخل الى القلب، ويمتزج باللحم والدم، ويهزّ النفس هزّاً ويدقها، وها نحن أولاء تشتاق قلوبنا للشعر الصادق الحيّ، فلا نظفر به الا في دواوين معلومة للشعراء الأقدمين، وها نحن أولاء تتوق نفوسنا الى الشعر الوطني الحماسي، فنستعيره من شعراء الشرق الذين خاضوا بحره، وصارعوا موجه المتلاطم، حين رماهم القدر بالنكبات والأرزاء، وساق اليهم عادي الدهر، الأحداث الهائلة والخطوب الجسام، فقاوموا المحتلين، وتغنّوا بالحرية، وحلموا بالوحدة العربية " (٢) .

ولعل أفدح ما كان يشكوه الشعر حين ذاك، ضعف الايمان به كقضية فنية، يستحق الحياة من أجلها، والتفرغ لها كما يتفرغ العابد المتصوف لعبادة ربه .

تلك هي طريق النبوغ وبهذا يقول الشابي : (٣)

" . . الحقيقة أنهم ما زالوا بعيدين عن الحياة في فنهم، حياة رفيعة سامية، والانسان فيه بكل عالمهم من روح وحس وتفكير وخيال، حتى ينطبع شعر كل واحد منهم بطابعه الذي لا يشاركه فيه غيره، وما برحوا ينظرون اليه كقافلة من نوافل النفس، لا ضرورة

---

(١) :- الشابي وجبران - خليفه محمد التليسي .

(٢) :- الشابي - كتاب البعث الأستاذ الحلبوي .

(٣) :- الشابي وجبران - خليفه محمد التليسي .

من ضروراتها ،ولهو سائغ يتسلى به المرء في سآمة الوحدة وملل الفراغ ،لا جد صارم يتصل بأعمق أعماق الحياة ،ومن ثم كانوا لاينحونه ما يجب له من التقدير والاحترام ولا يتحرجون أن يسفّوبه الى صغائر الأشياء وسخافاتها". (١)

وأكاد أجزم أن العربية في شعرها الحديث لم تعرف شاعرا اتخذ من الشعر قضية يعيش من أجلها كما اتخذها الشابي ،وذلك سر من أعظم أسرار الشهرة التي يتمتع بها في أدبه ، والتي تمهد له مكانا في كل قلب.

فقد كان صادق الشعور، صادق التعبير عما يختلج في نفسه،وكان أمينا في حمل الرسالة الأدبية الفنية الرفيعة حتى تضخم ايمانه بها. (٢)

وتقول نازك الملائكة:

" وكادت العواطف عنده تصبح مرضا ناهشا ،فعاش الشاعر يلهث وأتعبه الشعر حتى قتله،ان الشعر كان هوا لمثل الأكبر في حياة هذا الشاعر المشتعل ، ومن أجله عاش يتعذب بكل جمال يمر به،وان كان عذابه لذيذا ". (٣)

وذلك واضح في كثرة ما ناجى به الشعر الذى أحبه حبا عميقا ،وحياة شعرية هي عندى صورة من حياة أهل الخلود.

ويقول من قصيدته " مناجاه " التي تكشف عن مقدار تقديسه للشعر الذى يتحساه في الصباح (٤) لينسى ما تقصى في أمسه المفقود ،ويناجيه في المساء ليلهو بحمياه عن ظلام الوجود ،وليس يهمه ،بعد أن يعبر عما في نفسه أن يزدرى الناس أغانيه:

فيك ما في الوجودِ ،حَسْبَ بَنو الدُنيا أمْ لَمْ يُحِبُو قَصيدى
فسواءٌ على الورودِ أفي الصُدْرانِ فاحَتْ أمْ بَيْنَ نَهْدٍ وجيدِ

==========

==========

==========

==========

====

=

---

(١) :- الشابي كفاح الشابي - للأستاذ كرو - ص ٤٨.

(٢) :- الشابي وجبران - خليفه محمد التليسي.

(٣) :- نازك الملائكة - الآداب البيروتية - يوليو سنة ١٩٥٤م.

(٤) :- الشابي وجبران - خليفه محمد التليسي.

(البـــــاب الأول)

حيـاة الشـابى ومولـــده :

ولد أبو القـاسم الشـابى ، " كما يقول زين العابدين السنوسـى ، يوم الأربعـــاء في الثالث من شهر صفر سـنة ١٣٢٧ هـ الموافق الرابع والعشرين من شباط عام ١٩٠٩م (١) في بلده تَوْزَرَ . أما أمين الشـابى فانه اكتفى بذكر العام الميلادى فقط ســـنة ١٩٠٩م في مقدمة أغانى الحياة " ص ٨ " . أما عامر فَيـرَه فيرى أن هذا التاريـخ عُرفيّ لا يستند الى سـجل رسمى أو مصـدر موثـوق به ، أما الشاعر نفســه فقـد رضيَ بتاريخ نشـر في حيـاته ، وهو التاريخ الذى نشـره زين العابدين السنوســى ومصـدرُهُ مجهول ، أما عمـر فروخ فيقول انه سـأل أسرة الشـاعر عن تاريخ مولد الشاعـر فقيل له انه وُلِدَ حوالى المولد النبوى سنة ١٣٢٧ هـ ، والمولد النبوى في تلك السـنه يوافق يوم ٣ نيسان سنة ١٩٠٩م . وعلى كل حال فان مولد أبو القاسـم كان في عام ١٩٠٩م ما بين ٢٤ شـباط و ٣ نيسان ، مع أن أبو القاسم محمد كرّو يؤرخ مـولـد الشابى في آذار سنة ١٩٠٩م (٢) .

لم ينشأ الشابى بمسـقط رأسـه ، فقد خرج عنه في السنة الأولى من عمره حينمـا بدأ أبوه الطواف بالآفاق للحاق بالبلدان التى كان يُعَيَّنُ فيها للقضاء ، ولقـد كـان لهذا الطـواف الذى استمر عشـرين عاما أثره على الشابى الصغير ، اذ أن هـــذا التنقل حرمه من الاستقرار في مدرسـة واحـدة ، كما عرض هذا التنقل ذلك الناشـئَ الصـغير ، النحيف الجسـم المديد القامـة السـريع الانفعال ، على جميع أنواع المنـاخ في القطـر التونسـى ، من حر مدينة قابس الساحلية الى برد الجبال المرتفعـــة ، وكذلك طبع هذا التنقل نفس الشـابى الفضة بآثار الحياة الاجتماعية المختلفة الوجـوه في القطـر التونسى كما غذى خياله المتوثب بالمشـاهد الطبيعية الرائعة ، وخـزنت في ذاكرته الواعية تلك الصـور المتنافـرة في البيئة التونسـية الفنية في كثير من مرافقهـا الطبيعية والمتخلفة في عدد من نواحى حياتها الحضارية والثقافيـة ، على أن هـــذه كلها قد عملت في تضخم تجربته وتدفق شـاعريته فيما بعد . (٣)

دراســـته :

بدأ أبوه في تعليمه بادخاله احدى المدارس التقليدية " الكتاتيب " وهو في الخامسة من عمره ، وكان أبوه يحرص بشـدة على تحفيظه القرآن ، ولقد حقق الشابى حرص والـده فما أن بلغ التاسعة من عمره حتى كان قد أتم حفظ القرآن بكامله حفظا تاما ، ثم أخـذ والده يعلمه بنفسه أصول العربيـة ومبادئ العلـوم الأخرى حتى بلغ الحادية عشـرة .

---

١) الأدب التونسـى " ص ٢٠٨ " ، السنوسى " ص ١١ " .
٢) الشابى ـ حياته وشـعره ـ أبو القاسم محمد كرّو .
٣) الشابى ـ شـاعر الحب والحياة ـ عمر فروخ .

وفي ١١/١٠/١٩٢٠م وهو بعد في الثانية عشرة من عمره ، أرسله والده الى العاصمة التونسية حيث تم التحاقه بالكلية الزيتونية ، واستمر يدرس بها العلوم الدينية واللغوية حتى تخرج فيها (١) سنة ١٩٢٨م نائلاً شهادة التطويع وهي أرفع شهاداتها الممنوحة في ذلك الحين وعلى أثر تخرجه من الزيتونة عام ١٩٢٨م التحق بمدرسة الحقوق التونسية ، فتخرج منها سنة ١٩٣٠م وخلال السنوات الثلاث الأخيرة من دراسته ، بذل الشابي نشاطا أدبيا واجتماعيا كبيرا ، فقاد حركة طلاب الزيتونة التي كانت تهدف الى اصلاح ـ مناهج التعليم والادارة في الكلية ، وتزعم اضرابهم عن الدروس وترأس لجنتهم وسير أعمالها بوطنية أعجب بها الجميع .

موت والده :

لقد تعرض الشابي لأحداث ونكبات هزت كيانه وعكرت صفو حياته ،وكان في طليعتها موت والده في الثامن من شهر أيلول " سبتمبر سنة ١٩٢٩م " وبموت والده تغيرت حياته تغيرا تاما وأحدث ذلك في نفسه صدمة عنيفة هائلة ، طفحت بها قصائده في ألم حاد ويأس مُرّ .

فقد كان أبوه يقوم نحوه بكل حاجاته ، ويوفر له راحته ورفاهيته وهنائه ، فاذا بذلك كله ينهار مرة واحدة ، واذا هو مسئول عن كل ما خلفه والده في الحياة ،من أم ثكلى وأبناء صغار الى أملاك مبعثرة هنا وهناك ،وفوق ذلك تبعات لا تحد أمام ضميره وأمام القانون .

مرضه :

وثاني النكبات التي أصابت الشابي هي المرض ، ذلك أن الألم الجارف واليأس العنيف وتلك الأتعاب والمسؤوليات التي خلفها والده ، ما لبثت أن فعلت في جسمه النحيل فعلها الخبيث ، فأصيب بداء تضخم القلب الذي عانى منه أشد أنواع المرارة وأقسى ضروب العذاب وعرض نفسه على كل طبيب أخصائي بتونس فكانوا جميعا متفقين على أمرين اثنين مع علاج بالأدوية مستديم :

أولهما : أن يكف عن ارهاق نفسه بالكتابة والقراءة .

وثانيهما : أن يعيش في المناطق الجبلية والطبيعية حيث الغابات والبساتين والوديان والأنهار ، فمضى الشاعر يجوب صيفا وشتاء مناطق تونس الطبيعية الجميلة ذات المصائف الفاتنة والمشاتي الرائعة . فمن بلاد الجريد الى زغوان ومن عين دراهم الى المشروحة (١) وقد عاش ثلاث سنوات وحيدا بين أشجارها وأنهارها (٢) يتغنى مع الأطيار بحبه ويناجي النجوم بأمانيه ويحنو على الورود

---

١) تقع في ولاية قسنطينه بالجزائر .

٢) أبو القاسم محمد كرّو ـ الشابي حياته وشعره .

والأوهار ويطرب لخرير المياه وحفيف الأغصان ، وفى هذه الفترة أخرج الشابى أجمل قصائده الخالدة فى وصف الطبيعة والجمال ، وسحر الوجود وحب الحياة .

وقد ثار حول مرضه جدل عريض بين المترجمين والدارسين للشابى ، فمنهم من أعلن سهوا أنه مات مسلولا كما فعلت الشاعرة : نازك الملائكة فى بحث لها " الشعر والموت " (١) . وأبو القاسم محمد بدرى فى كتابه الشاعران المتشابهان " الشابى والتيجانى " ص ١٦ ، وعبدالسميع المصرى فى مجلة الرسالة الجديدة (٢) والشيخ محمد الفاضل بن عاشور فى كتابه الحركة الأدبية والفكرية فى تونس (٣) ، ولقد سبق هؤلاء جميعا فى اعتقادهم هنا الأستاذ محمد فهمى فى كتابه " الروائع لشعراء الجيل " اذا قدم مجموعة من قصائد الشابى بكلمة موجزه ذكر فيها أن الشابى مات مسلولا .

أما أبو القاسم محمد كرّو فقد قدم وثائق تثبت أن الشابى مرض بالقلب، وفى طيعة هذه الوثائق نصوص تركها الشابى بقلمه تدل بكل وضوح على حقيقة مرضه ونوعه وتأثره البارز فى حياته وأدبه ، ثم بحث جيد عن حياة الشابى قام به الأستاذ محمد عامر فدير مستندا فيه الى مجموعة من الأسانيد والوثائق وقد اطلع أيضا على بطاقة المستشفى التى مات فيها الشابى ، كذلك اتصل الدكتور محمد فريد غازى (٤) بطبيب الشابى الخاص الدكتور محمود الماطرى واستمد منه معلومات مهمة ونثبت هنا أهم ما جاء فى البحثين .

أولا : بحث الدكتور محمد فريد غازى :

يقول غازى : " العناصر الأولى التى نجدها تبرهن عند الشابى على مرضه موجودة فى يومياته قبل كل شئ ، ثم نجد أصداء متنوعه فى شعره . وصفحات يومياته التى كتبها دون تصنع ودون صنعة أدبية ، بل هى فيض من روحه واندفاع من قريحته ، هى الكنز الثمين وهى تكشف لك أن طور نبوغ الشابى الذى أذهب به من سنة ١٩٢٩م الى سنة ١٧٣٤ م ، أى خمس سنوات كان فى نفس الوقت ، طور مرضه الذى دام هو أيضا من خمس سنوات ، وستكون حياته فى نفس الوقت ، حياة الرجل المريض ، وحياة الشاعر الخصب وسيكون فى المجتمع العليل النابغة .

وهكذا ترى فى وضوح العلاقة البيّنة بين مرضه وبين عبقريته ولكن ما مرضه هذا ياترى ؟ .

ان نا صدقّنا أطبائه ــ وخاصة الحكيم الماطرى ــ قلنا ان الشابى كان يألم من " ضيق الأذينة القلبية " أى أن دوران دمه الرئوى لم يكن كافيا . ولو تعمقت طبيا فى مرضه هذا لعلمت أن " ضيق الأذينة القلبية " هو ضيق أو تعب يصيب

---

١) مجلة الآداب ــ لبنان . س٢ ع ٧ ص ٥ ــ ١٩٥٤/٧/٨م
٢) القاهرة ع ١١ ص ٤٥ ١٩٥٥/٢/٤ م
٣) منشورات جامعة الدول العربية ــ القاهرة ١٩٥٦م ص (١٧٨ ــ ١٨٠)
٤) دكتور فى الآداب ، كثير الاهتمام بالشابى الدراسات الاستشراقية .

مدخل الأذينة ، وتجعل سيلان الدم في الشرايين من الأذينة اليسرى نحو البطينة اليسرى سيلانا صعبا أو معترضا . وتقول لنا كتب الطب أن هذا المرض كثيرا ما يكون وراثيا .

وضيق القلب هذا كثيرا ما ينشأ عن برد يصيب الأعصاب والمفاصل وهو يظهر في الأغلب عند الأطفال والشبان ، مابين العاشرة والثلاثين وخاصة عند الأحداث على وشك البلوغ .

كان الشابي ضعيف البنية ، نشأ متنقلا ولربما أصابه هذا الضيق وهو لم يزل صغير السن ضاق قلبه وضاقت رئته ، فلم يعد يتنفس تنفسا عاديا ، أضف الى هذا تعبا مستمرا يصيب البدن وينهكه دون أن يقوم الجسد بأي عمل .

ولكن أهم مافي المرض ، أنه يغير نفسية المريض وهو أمر مهم جدا اذا كان المريض كاتبا أو شاعرا أو أديبا أو رساما أو موسيقارا أو نحاتا أو مخرجا مسرحيا أو سينمائيا أي انا كان فنانا حقيقيا .

كان الضيق القلبي اذا هو الضربة الأولى التي أصابت روحه ، فمنعه أطباؤه من الجري واللعب بالكرة ، ومن السباحة ، فاذا أراد أن يقفز لاعبا مع رفاقه أو أن يسبح مع أصدقائه في أمواج البحر صيفا أو أن يتسلق " الجبل المكلل بالصنوبر والصخور " كما يقول في الجنة الضائعة ، وجد نفسه محروما من ذلك . هكذا قرر الطبيب وهكذا قامت في حياته النفسانية الحواجز تسد طريقه وتغطي آفاقه بالسواد . هكذا تدخل عليه نفسية هي نفسية المريض تلون نفسه باليأس الأسى والتبرم فاذا به كما قال " الشقي الذي ضاقت به رقعة الفضاء المترامي " ، فيحس احساسا مؤلما أنه غريب عن هذه الدنيا .

وأجدر بنا أن نصغي لشعور الشاب المريض مرضه (١)

" أشعر اليوم بفتور في بدني ، وتوعك في مزاجي لا أدري مأتاه ، وأحس بكآبة عميقة ، تستحوذ على مشاعري ، وتقبض على قلبي وتجعلني أكره الكتب والأسفار والمحابر والأقلام .

لا أريد أن أذكر أكثر مما ذكرت لأنني أرى النوم يغالبني ، والاعياء يدافعني الى النعاس " .

لقد كان للشابي ادراك الرجل الواعي بمصيبته ، فقد جاء في يومياته (٢) :

" اعتزمت الذهاب الى حديقة البلفيدير صحبة رفيق لي ، فبريت القلم وأعددت القرطاس وتأبطت كتابا عسى أن تحدثني نفسي من أفكار ، أو يفيض به القلب من عواطف ، لأنني لا أعلم متى تطفي على الخواطر ، وتزدحم على الذكرى وتنهال على الأفكار انهيالا . فرب نظرة .....

---

١) يوميات يوم الثلاثاء ـ ١٤ جانفي .
٢) يوميات يوم الخميس ١٦ جانفي .

٨١٤
جامعة أم القرى
مكتبة المكرمة
قسم المخطوطات
UMM AL-QURA UNIVERSITY MAKKAH

..... فخرجنا جميعا ، وظلنا نسير سوية ، ولما وصلنا مفترق الطرق سألنا الدليل الى أين نذهب . فقلنا الى البلفيدير .

فلزّموا علينا أن نرافقهم الى أين يذهبون فقلنا : وما هي الغاية ؟

فقال أحدهم : انها مقهاة بعيدة عن صخب المدينة وضوضائها ، قريبة من البرية ، مكتنفة بالأشجار الجبلية والمشاهد المسبية . فاستهواني الوصف ورافقتهم وما هي الا لمحة حتى كنا نسير بين المزارع التي تداعب الشمس أعشابها ،وكانت مشاهد كثيرة متباينة :

ها هنا صبية يلعبون بين الحقول ، وهناك طائفة من الشبان الزيتوني والمدرسي يرتاضون في الهواء الطلق ، والسهل الجميل . ومن لي بأن أكون مثلهم ؟

ولكن أني لي ذلك ، والطبيب يحذر على ذلك لأن بقلبي ضعفا !.. آه ! ياقلبي ! . أنت مبعث آلامي ، ومستودع أحزاني ، وأنت ظلمة الأسى التي تطغى على حياتي المعنوية والخارجية " .

هذه حالة نفسية صاحبت الشابي منذ سنة ١٩٣٠ م كما : اكتشفناه في يومياته . وعلينا أن نتابع آثرها ، بما يقوله لنا علماء النفس ، لنرى مع هنري كلود أن " الأسى الناتج عن ضيق القلب ، يثير في المريض قلقا مستمرا — ينتهي دائما بالشعور بتعب عام يجعل المريض يقبع بنفسه بعيدا عن الوسط الذي يحيط به " وهذا القلق النفسي الدائم وهذه الأزمة ، نجدها قبل كل شيء في يومياته ، وفي شعره فنحن كثيرا مانجد كلمة القلب أو " ياقلبي " ففي عناوين قصائده نجد " الى قلبي التائه " و " أكثرت ياقلبي " فماذا تروم ؟ " و " قال للاله " و " قلب الشاعر " وليس كلمة القلب رمزا جميلا فقط ورمزا ابداعيا وحسب بل هي أيضا تعبير نفساني — نظنه لا شعوريا غالبا — عن مرض الشاعر . وان نحن نشك أن تكون القصائد التي ذكرناها ، ملامح : صادقة لمرضه ، فلا يشك الشابي من أن قصيدة " الأبد الصغير " وقصيدة " نشيد الجبار " أوهكذا غنى نيتشه بمستوحيتين من مرضه " .

هذا ويذكر أبو القاسم محمد كرّو في كتابه الشابي أنيه أعلن في جريدة الصباح التونسية عدد ١٩٥٥/٩/٢٣ م مقالا عن مرض الشابي جاء فيه :

" ..... ان الثابت من جميع الوثائق والأخبار المسجلة أن الشابي كان مصابا بمرض القلب ، وهذا يؤكده لنا كثرة توجع الشابي من قلبه ، وتغنيه به ، وجعله عنوانا لقصائد كثيرة ، منها " قلب الشاعر " و " قلب الأم " و " الأبد الصغير " و " قال قلبي للاله " و " ملأتم القلب " و " أغنية الألم " .

هذا ونقدم فقرات من رسالة بعث بها الشابي الى صديقه الأستاذ محمد الحليوي وفيها يتحدث عن مرض قلبه حديثا ينفي جميع المزاعم والظنون حول مرضه . وهذا نصها :

" ..... لقد اشتد الضعف على قلبي في هاته المدة الأخيرة مما أوجب معه الطبيب على حرماني من الأعمال الفكرية ، لا فرق بين مطالعة أو تحضير أو كتابة ....

لا تألم يا صديقي لأخيك ،فان قلبي هو منبع آلامي في هذا العالم ومن يدري ؟ لعله سيكون منبعا لمثل هاته الآلام في عالم آخر. ان قلبي يا صديقي هو منبع آلامي هاته النفس التائهة المعذبة ،وهذا الجسد الممتّ المنهوك ،وما دمت أحمل بين جنبيّ هذا القلب الكسير وما دامت الحياة تهدّ منه ولا ترحم ،فانني أشقى الناس بل أشقى أبنائها".

ويقول له من رسالة أخرى أوردها أبو القاسم محمد كرّو في كتابه الشابي جاء فيها :

".. أنا في ساحة تعصف بها الهموم وتنعقد من فوقها الأحزان ،وتخرّ عليها أمواج الدموع، ان استمعت الى نفسي لم ألف الا الأسى يبكي ،أو أصغت الى قلبي لم أسمع الا النحيب،أو قلّبت طرفي فيما حولي لم أبصر الا ظلمات تتدجى من فوقها ظلمات... ان قلبي الرازح بهموم البشر لأضعف من أن يضطلع بكل ما في هذه الدنيا من مصائب".

ولعل القول الفصل في موضوع مرض الشابي يرجع الى تقرير المستشفى التي مات فيها وينقلها أبو القاسم كرّو عن الأستاذ عامر غديره ،الذى قدم لها بتفاصيل مدققة عن مرض الشابي ،يقول غديره :

".. وفي نفس المدة – بين سنة ١٩٢٨م و ١٩٣٠م – يقوم مشكل آخر ربطه كثير من الأدباء بالمشكل السابق وهذا المشكل لا يقل عن الأول صعوبة وأهمية وهو مشكل العلة التي مات فيها الشابي منها ،غير أن البحث العلمي سيمكننا في هذه البرة من البتّ في القضية بالقول الفصل كما سنراه بعد حين.

نحن نعلم أن الشابي مصاب،يشكو علتّه في أثناء كل ذلك ،ويختلف الى الأطباء ،ونحن نعلم أيضا أنه انتهى من دراسته الزيتونية والحقوقية ولم يحاول الارتزاق بشهائده ثم أننا نعلم أنه يكتب كثيرا في سنة ١٩٣٠م،وسنة ١٩٣١م، وأنه يستقر بالشابّيةويقضي صيف سنة ١٩٣٢م مع أخيه الصغير الأمين بعيّن دراهم ثم هو يعود الى توزَر ويرتحل في صيف ١٩٣٣م الى المَشْروحَة من أرض الجزائر،ثم يذهب الى تونس ويلتحق منها بمسقط رأسه ،وهو في هذه المدة يشرع في عمل ديوانه مُعانا.

ويقضي أبو القاسم الشتاء بتوزر،وفي شهر رمضان سنة ١٣٥٢هـ (أواخر كانون الأول سنة ١٩٣٣م وأوائل كانون الثاني سنة ١٩٣٤م) يعاوده المرض بصفة ألم وأشد من ذى قبل ،فيلازم الفراش مدة ،ويمر الشتاء وبرده ويأتي ربيع جديد فيذهب أبو القاسم الى الحامّة طالبا الراحة والشفاء من دائه المجهول ،وفي أثناء ذلك يظهر بصفة غير واضحة بمدينة طبرق فيتحدث الى الزعيم السياسي صفر ويكتب قصيدته المشهورة :

اذا الشعب يوما أراد الحياة .. فلا بدّ أن يستجيب القدر"

ثم هو ينحدر من توزَر الى تونس يوم (٢٦/٨/١٩٣٤م) وينزل أولا ببعض فنادق العاصمة ثم يستقر في سهتبر بضاحية الأربانة . أقول يستقر وفي الحقيقة نجده في نفس تلك الطائفة مُصَوّرا بحمّام الأنف مع السعيدين مازيغ والسنوسي .

ويمر شهر سبتمبر وتتابع الأيام والناس يتساءلون عن علته : أداء السل أم مرض القلب ؟ ونحن كما ذكرنا سابقا ـ لنحقق بصفة واضحة علمية علة أبى القاسم وظروف وفاته ـ أن نذهب الى المستشفى الذى ذكر لنا أنه مات به ، وأن نفتش عن ملفه ان كان له ملف .

وقصدنا المستشفى ويسمى مستشفى الحبيب ثامر فانا نص بالايطالية " كان المستشفى فى ذلك العهد يسمى مستشفى الطليان " يخص الشابى وهذا تعريبه .

" أبو القاسم الشابى تحت عدد ٢٥٦٧ .

العمر : ٢٦ سنة " ذلك أنه يحسب حسابا هجريا من ١٣٢٧ هـ الى ١٣٥٣ هـ

الدين : الاسلام .

الحالة : متزوج .

السكن : الاريانة .

تاريخ دخول المستشفى : ٣ من أكتوبر " تشرين الأول " سنة ١٩٣٤ م .

الفحص الطبى : مرض القلب .

تاريخ الوفاة : ٩ من أكتوبر " تشرين الأول " سنة ١٩٣٤ م . (١) .

ويضيف أبو القاسم محمد كرّو فى كتابه آثار الشابى وصداه فى الشرق ، أن وفاة الشابى كانت يوم الاثنين بتاريخ ١٩٣٤/١٠/٩ م ، وكان بجواره لحظة وفاته شقيقه ، وقيل لم يكن معه أحد . وفى التالى نقل جثمانه الى مسقط رأسه حيث دفن ببلدة الشابية حيث رأى النور أول مرة .

وفى عام ١٩٤٦ م تبرع الأدباء التونسيون ببناء ضريح له ، واحاطته بسياج ،وقد دعى ذلك " روضة الشابى " وكتبت لوحة من رخام على قبرة عليها تاريخ الميلاد والوفاة وبيتان من الشعر ، وجُعلت لوحة أخرى فى يمين باب الروضة . وقد احتفل الأباء التونسيون بتدشين روضة الشابى ، فأقاموا حول قبره مهرجانا أدبيا كان الأول من نوعه . (٢) .

هذا ويتفق عمر فروخ مع أبو القاسم كرّو فى التاريخ المحدد ليوم وفاة الشابى ودفنه كما يتفق معه أيضا أن الشابى كان مريضا فى القلب كما ثبت له من أطباء الشابى التونسيين والفرنسيين . (٣) .

ومن هنا نلاحظ أنه ثبت باليقين أن الشابى كان مريضا بالقلب وليس بالسل كما ذكر بعض الباحثين .

---

١) الشابى حياته وشعره ـ أبو القاسم محمد كرّو .
٢) آثار الشابى وصداه فى الشرق ـ أبو القاسم محمد كرّو .
٣) الشابى ـ شاعر الحب والحياة ـ عمر فروخ .

زواج الشابى :

كان والد الشابى قد رغّب اليه فى أن يتزوج ، فلم يجد أبو القاسم الشابى للتوفيق بين رغبة والده وبين مقتضيات حالته الصحية ، بدأ من أن يستشير طبيبا فى ذلك ، وذهب الشابى برفقة صديقه زين العابدين السنوسى لاستشارة الدكتور محمود الماطرى وهو من نطس الأطباء فى تونس ، ولكن لم يكن قد مضى عليه فى ممارسة الطب يومذاك سوى عامين ، وبسط الدكتور الماطرى للشابى حالة مرضه وحقيقة ذلك المرض ، كما ذكر له أيضا أن هنالك حالات كثيرة سفّهت آراء كبار الأطباء فى مرض القلب .

غير أن الدكتور الماطرى حظّر الشابى على كل حال من عواقب الاجهاد الفكرى والبدنى وبناء على أمر الدكتور الماطرى وامتثالا لرغبة والده عزم الشابى على الزواج ،وعقد قرانه ولكن يبدو أن حياته الزوجية لم تبدأ قبل عام ١٩٢٠ م .

والده :

كان رب البيت الذى ولد فيه الشابى الشيخ محمد بن بلقاسم الشابى ، ولقد ولد محمد الشابى عام ١٢٩٦ هـ " ١٨٧٩ م " وفى عام ١٣١٩ هـ " ١٩٠١ م " ذهب الى مصر وهو فى الثانية والعشرين من عمره ، ليتلقى العلم فى الجامع الأزهر ، ثم انه التحق بعد عودته من الأزهر ،بجامع الزيتونه ،حيث درس عامين ونال فى نهايتها اجازة التطويع وهى شهادة نهاية الدروس فى الزيتونة ، وذلك فى عام ١٣٢٨ هـ " ١٩١٠ م "ويبدو أن الشيخ محمد الشابى كان قد تزوج على أثر رجوعه من مصر ثم رزق ابنه البكر أبا القاسم الشابى قبل أن ينال شهادة التطويع .

قضى الشيخ محمد الشابى حياته المسلكية فى القضاء بالآفاق ، ففى عام ١٣٢٨ هـ " ١٩١٠ م " عين قاضيا فى سليانه ثم فى قفصه فى العام التالى ، ثم فى قابس " ١٣٣٢ هـ — ١٩١٤ م " ثم فى جبال ناله " ١٣٣٥ هـ — ١٩١٧ م " ثم فى مجاز الباب " ١٣٣٧ هـ — ١٩١٨ م " ثم فى رأس الجبل " ١٣٤٣ هـ — ١٩٢٤ م " . ثم انه نقل الى بلدة زغوان عام " ١٣٤٥ هـ — ١٩٢٧ م " . ومن الراجح أن يكون الشيخ محمد الشابى قد حمل معه أسرته ،وفيها بكره أبو القاسم ، وهو يتنقل بين هذه البلدان . ويبدو أن الشابى الكبير قد بقى فى زغوان الى صفر من عام ١٣٤٨ هـ " أواخر تموز — يوليو ١٩٢٩ م " ، حينما مرض مرضه الأخير ورغب فى الرجوع الى توزر ، ولم يعش الشيخ محمد الشابى طويلا بعد رجوعه الى توزر ، فقد توفى فى الثامن من أيلول سبتمبر عام ١٩٢٩ م الموافق الثالث من ربيع الثانى عام ١٣٤٨ هـ .

كان الشيخ محمد الشابى رجلا صالحا " يقضى يومه بين المحكمة والمسجد وفى المنزل حيث يباسط أهله ، فنشأ أبو القاسم فى سنى تكوينه الفكرى والخلقى ، فى كنف رعايته الصالحة يقتبس من علمه وآدابه . وكان رحمه الله صادق التقى نقى العقيدة لا يخشى فى الحق لومة لائم ،وكانت له غيرة على شئون المسلمين والاسلام ،تنفعل بما كان يجرى آنذاك من أحداث بالشرق العربى وطرابلس الغرب أو بلاد الريف .

كانت أسرة الشيخ الشابى على شئ من اليسار من ثروة موروثة ومن راتبه كقاضى ،على أن هذا اليسار يوصف على ثلاث مراتب أكثرها اعتدالا قول محمد الحليوى (١) :

" المعروف أن أسرة الشابى كانت أسرة ميسورة العيش ، وكان لها بعض الغلات فى الجريد وبعض الأراضى بجهة مجاز الباب على ما أعتقد " .

أما السيد محمد الفاضل بن عاشور فانه يتوسع فى الكلام عن هذا اليسار فيقول : (٢)

" عاش أبو القاسم الشابى فى بيئة عائلية مطمئنة محافظة منعم عليها لا تعرف البؤس ولا الحرمان " .

أما زين العابدين السنوسى فقال :

" ترعرع الشابى فى كنف والده ، أسعد الولدان طفولة وأرغدهم صبى ، تعد أمامه الكماليات وتبسط له أسباب السعادة من حيث لا يحتسب " .

والسنوسى هنا يناقض قولا آخر له يصف فيه الحال التى كان عليها الشابى فى أيام دراسته فى الزيتونة اذا يقول :

" وفوق ذلك فانى أعرفه وهو طالب يسكن بيت مدرسته ، وهو لا يأكل الا البقول والحبوب بينما رفاقه يكرعون وينهشون شهى الشواء " . (٣) .

وخلاصة الرأى أن الشابى عاش فى أسرة ميسورة الحال رغيدة العيش ربما كان ذلك من الأسباب الت التى منعته من طلب العيش فى وظائف الدولة .

بيئة الشابى :

للعالم العربى جناحان يترامى طرفاهما ، ولكن يشد بينهما أواصر من النسب واللغة والدين والتاريخ ، وما زال الوطن العربى منذ فجر الاسلام وحدة ثقافية تقوم على وحدة العقيدة واللغة العربية الفصحى ، أما اختلاف اللغات كثيرا أو قليلا ،والتقسيم السياسى وتباين الأحوال الاجتماعية الذى طرأ على العالم العربى فى غضون تاريخنا الطويل وما تخلله من المآسى والكوارث ، فانها لم تستطع أن تنال من وحدة العالم العربى المستمسكة بالعروة الوثقى : وحدة العقيدة ، ووحدة الدين .

والمغرب هو الجناح الأيسر من العالم العربى ، كان وما يزال أشد حرصا على هذه الوحدة ، من الناحية العملية من صنوه المشرق ،ومع دخول المغرب فى الاسلام عمت العربية الفصحى فى المغرب ، فزاد ذلك فى شد أواصر الوحدة بين أقطاره . وكان من نتائج ذلك رسوخ الاعتقاد بين المغاربة بأن البربر اخوان العرب هاجروا من مساكنهم من اليمن ، فى شبه جزيرة العرب كما هاجرت جميع الشعوب المنتشرة فى الوطن العربى من شبه جزيرة العرب نفسها .

---

١) مجلة الفكر — مايو — ١٩٦٠ م — ص ١٩ .
٢) الحركة الأدبية — ١٧٨ .
٣) الشابى — شاعر الحب الحياة — عمر فروخ .

وان التاريخ يعلمنا أن المغاربة لم ينسوا هذه الأواصر قط ، ولم يُرمَّم حُبُّ المشرق من قلوبهم ، فكانوا دائما يهفون الى المشرق ويتشبهون به فى كل مظهر : فى الأدب والثقافة والأحوال الاجتماعية ، فالخلال الحميدة التى وُلِدَتْ فى المشرق لا تزال راسخة الأصول فى المغرب واضحة المعالم ظاهرة فى كل بقعة . أما المشرق فقد مرت عليه أحيانا - من الدهر نسى فيها المغرب وجهل أحواله وغفل عن حقيقة اللحمة بينهما وتعليل ذلك يبدو سهلا : ان المغرب ظل أصفى نسبا وأنقى لغة وأقل خضوعا حقيقيا للاستعمار ان المشرق ناء فى النسب بأمشاج من الفرس والروم والنبط والفرنجه والترك ، فانتشرت فيه شعوبية جامحة فى عدد من أدوار تاريخه . وكذلك اتسعت الدعوات السياسية والدينية فى المشرق ، ثم خلفت وراءها رواسبزرعت المشرق كله بالأقليات الدينية والمذهبية وبالجماعات التى بدأت طوائف دينية ثم انقلبت الى وحدات اجتماعية مستقلة تشوه وحدة المشرق ، وتفرق جهود المشارقة فى كثير من ميادين الحياة .

ومع أن المغرب قد خضع لمثل ما خضع له المشرق زمنا طويلا ، فانه عاد ، منذ أواخر القرن الرابع الهجرى " ومطع القرن الحادى عشر الميلادى " الى صفائه الأول : الى قطر مغربى مسلم لا يُقالُ فيه بربرى ولا يقال فيه عربى ، وزالت المذاهب من المغرب فلم يبقَ الا المذهب المالكى . على أن ثمت الى اليوم جماعة صغيرة من الاباضية الخوارج ونفرا قليلين على المذهب الحنفى ، لا يغيرون شيئا من صورة المغرب ، ولا نجد لهم رأيا يخالف رأى الجماعة فى السياسة والحياة . وفى العصر الحديث زاد عدد الفرنجة فى المغرب عن طريق الاستعمار الأوربى ، ولكن هؤلاء الفرنجة ظلوا الى اليوم غرباء عن المغرب لا يعدون فى المغاربة : لا يحيون حياة المغاربة ولا يحيا المغاربة حياتهم الا نفرا قليلين استمالهم العالم الغربى يعيشون اليوم فى المدن الساحلية ، ولكن عندما جاء الاستقلال قل عدد الفرنجة فى القطر المغربى والقطر التونسى كثيرا ، وكذلك قل نفوذ المغاربة الذين تعودوا فى أيام الاستعمار أن يحيوا حياة الغربيين ، فى أعمالهم وبيوتهم وعواطفهم أحيانا .

والمغرب هو الزاوية الشمالية من قارة افريقيا ، وعلى هذا تبلغ مساحته ثلاثة ملايين ونصف مليون كيلو متر مربع . من أجل ذلك كان العرب اذا ذكروا هذا البسيط المترامى قالوا : المغرب الأدنى علما على ما يقصرُبُ منه من المشرق ، وقاعدته القيروان أو قالوا المغرب الأقصى علما على مابَعُدَ منه من المشرق . فالمغرب الأدنى هو الجانب الشرقى من المغرب وهو ما يعرف بالقطر التونسى ، والمغرب الأقصى هو الجانب الغربى ويعرف بالقطر المغربى " المغرب " فقط . ومع ذلك ظلت هاتان التسميتان قاصرتين عن الدلالة الدقيقة فنشأ اسم المغرب الأوسط ، منذ زمن بعيد ليَدُلَّ على الجزء الذى لا يُعَدُّ من المغرب الأدنى ولا فى المغرب الأقصى ، وهو الذى نسميه اليوم القطر الجزائرى أو " الجزائر "

والشابى الذى ندرسه من المغرب الأدنى من القطر التونسى . وتبلغ مساحة الجمهورية التونسية مائة وعشرين ألف كيلو مترا مربعا تنقسم ثلاثة أقسام : قسما شماليا غربيا تنتهى فيه سلسلة جبال الأطلس ، وهى السلسلة التى تخترق المغرب كله من أقصاه الى أدناه ، ولذلك كانت هذه المنطقة من القطر التونسى باردة مرتفعة تكثر فيها الصوائف وكانت ذات مراع كثيرة خصبة ثم قسما ساحليا على شئ من الخصب فى شماله ، أما جنوبه فصحراوى ، ثم قسما جنوبيا داخليا يتألف من سهول عظيمة ومراع واسعة وواحات نخيل . وتقع جنوب هذه الواحات من النخيل صحراء افريقيا الكبرى . (١)

وفى هذا القسم الجنوبى من القطر التونسى الذى يدعى بلاد الجريد " بلاد النخيل بحيرة واسعة تدعى شط الجَريد . وعلى الجانب الشمالى الغربى من هذه البحيرة تقع بلدة تَوْزَر . وتَوْزَر بلدة قديمة مشهورة فيها نخيل كثير حولها أرباض واسعة . . . . وهى أكثر بلاد افريقيا تمرا وشربها من ثلاثة أنهار ، ولا يعلم مثل اترنجها (٢) جلالا وحلاوة وعظما " ومن غواحى تَوْزَر الشابة (٣) ويبدو أنها كانت معروفة ومزدهرة فقد أنجبت للقرنين العاشر والحادى عشر للهجرة " السادس عشر والسابع عشر للميلاد " نفرا من رجال القلم ورجال السيف . وعلى مقربة من تَوْزَر شمالا بُلَيْدَة اسمها الحامة أو الحمّة على الأصح والحمّة هى العَيْن الحارة يستشفى بها الأعلاء والمرضى ، وفى بلاد العرب حمّات كثيرة يهمنا منها هنا حمّة توزر أو حامّة تَوْزَر ، وكذلك نجد الى غرب تَوْزَر ، على الشاطئ الغربى من بحيرة شط الجريد قرية اسمها تقيوس .

أما تاريخ تونس الحديث ، فهو مأساة من تلك المآسى التى مازالت تحل بالعرب والمسلمين منذ خروج العرب من الأندلس فى مفتح العصور الحديثة .

لما كان السلطان سليم الأول العثمانى يفتتح بلاد المشرق ، كانت الدولة الحفصية فى تونس قد آلت الى الضعف ، ففكر العثمانيون بفتح المغرب وفرضوا عليه حمايتهم مدة من الزمن . وأخيرا استخلصوا الأتراك المغرب عام ٩٨١ هـ " ١٥٧٣ م " فزال الاستعمار الأسبانى عن تونس ، وانقرضت الدولة الحفصية .

ولم يحكم الأتراك تونس حكما مباشرا بل كانوا يُنَصِّبون عليها ولاه ، عرفوا فى تاريخ تونس باسم الدايات ، وكان العمال الذين يتولون جمع الأموال يلقبون بالبايات . وفى عام ١٠٤١ هـ " نحو ١٦٣٠ م " استطاع مراد باى أن يستبد بشئون البلاد ، ثم كتب الى الباب العالى فى الآستانة يطلب لقب باشا ، فاستطاع الحصول على هذا اللقب . ومنذ ذلك الحين اصبحت تونس تحت حكم البايات ، ثم ظلت تونس يتولاها باى بعد آخر حتى عام ١١١٧ هـ " ١٧٠٥ م " حينما استطاع حسين باى الأكبر بن على أن يجعل ولاية تونس وراثية فى عقبه . فنشأت الأسرة الحسينية التى ظل أفرادها يتعاقبون على عرش تونس باسم " باى " أيضا الى أن تبدلت تونس بالملكية حكما جمهوريا عام ١٩٥٦ م .

كان الحكم العثمانى على تونس دائما اسميا ، وخصوصا بعد عام ١١١٧ هـ حينما أصبح الحكم وراثيا فى الأسرة الحسينية ، على أن تونس ظلت دائما فى ولائها للعثمانيين فساعدتهم

---

١) التُرُنْج " بضم التاء والراء وسكون النون " أنواع الليمون كالبرتقال والحامض .

٢) يقول السنوسى " ص ١١ " : بلدة الشابة " كذا " حذو مدينة تَوْزَر . ولكنه يقول فى أماكن الشابية ولا يبعد أن تكون الشابة هى الصيغة الأصلية .

٣) راجع خلاصة تاريخ تونس ص ٦

باسطولها البحرى فى حربهم مع روسيا عام ١١٨٥هـ " ١٧٧١ م " وفى القضاء على ثورة اليونان عام ١٢٣٧ هـ " ١٨٢١ م " كما اشتركت تونس بحريا مع نوارين الى جانب العثمانيين ضد اليونان عام ١٢٤٢ هـ " ١٨٢٧م " وفى القرم ضد روسيا عام ١٢٧٠ — ١٢٧٢ هـ " ١٨٥٤ ١٨٥٧ م " .

ووافق طمع فرنسا بشمال افريقيا اضطرابات مختلفة فى شمال افريقيا ، فاستطاعت فرنسا أن تحتل الجزائر نهائيا عام ١٢٥٣ هـ " ١٨٣٧ م " وتونس عام ١٢٩٩ هـ " ١٨٨١ م " .

والاستعمار شرٌ كله وظلم ، ألاّ أنّ لكل نوع من الاستعمار خصائصة من الشر والظلم ، فالاستعمار الفرنسى يقوم على افقار البلاد التى يستعمرها وتركها متأخرة عن ركب الحضارة ثم هو يمالئ جميع الغرباء فى البلاد التى يستعمرها ، ويقهر أهل البلاد سياسيا واقتصاديا واجتماعيا . والاستعمار يكره الاسلام كرها شديدا ، ذلك لأن الاسلام دين يوحى بالعزة والكرامة ويأبى الخضوع ، ولذلك رأينا جميع المستعمرين مجمعين على اضطهاد المسلمين فى كل صقع نزلوه . أما سياسة فرنسا لشمال أفريقيا فكان بالغاً حد القسوة ، ذلك لأن شمال افريقيا قريبة من فرنسا وتريد فرنسا أن تجعل من ممتلكاتها فى ذلك الصقع مدى حيويا لها ، وجزء تابع لها سياسيا واداريا واقتصاديا .

أما الجو الذى عاش فيه الشابى وشهده فيمكن أن نسرد منه مايلى :

١) كان مجلس الشورى الذى يشرف على توزيع ميزانية الدولة قاصرا على الفرنسيين ،ولم يشترك فيه التونسيون الا نحو عام ١٩٠٦م .

٢) حاول المجلس البلدى أن يضع يده على مقبرة الزلاج الاسلامية " التى تشرف على تونس من الجهة الشمالية الغربية " ، ولما حاول التونسيون منع ذلك قابلهم الفرنسيون باطلاق النار ثم باعتقال عدد كبير منهم وحكموا على بعضهم بالاعدام .

٣) اشترك فى الحرب العالمية الأولى خمسة وستون ألفا من التونسيين فى الجيش الفرنسى قتل منهم اثنا عشر ألفا .

٤) فى عام ١٩٣٤م عمت الضائقة المالية ، فتظاهر التونسيون وطلبوا بالاصلاحات التى يمكن أن تنعش بلادهم فقابلهم رجال الأمن بالسلاح فجرح عدد كبير من المتظاهرين وقُتل فريق آخر وقد أعلنت السلطات الفرنسية الأحكام العرفية فى تونس وعطلت الصحف العربية ونفت رؤساء حزب الدستور . ولكن المظاهرات لم تخف بل اشتد بعضها حتى تحول الى معارك دموية ، كما اتفق فى مدينة بنزرت فى شهر كانون الثانى من عام ١٩٣٨م .

٥) سجلت أفضل الأراضى الزراعية باسم الدولة ثم وزعت على الفرنسيين المستوطنين فى تونس وكانت الضرائب التى تجمع من الوطنيين يوزع معظمها على الفرنسيين لمساعدتهم على استعمار البلاد .

٦) أى يشرف على الادارة التونسية نحو ثلاثين ألف موظف ثلاثة أرباعهم من الفرنسيين

٧) أما نسبة الأطفال التونسيين الذين كانوا يذهبون الى المدارس فتبلغ نحو ٥ر١٢ ٪ مقابل ٥ر٨٧ ٪ من الأطفال الفرنسيين .

٨) ظلت آمال التونسيين تعلو وتنخفض وتتقلب بحسب الحكومات الفرنسية بباريس . وفي عام ١٩٣٨ م استعد حزب الدستور التونسي لصراع واسع النطاق مع السلطات الفرنسية كان من نتائجه أن زج بحوالي ألف مواطن وطني في السجن . ثم ان السلطة الفرنسية أعلنت حالة الحصار على تونس ، تلك الحالة التي استمرت مده طويلة بعد ذلك . (١)

وفي العام التالي نشبت الحرب العالمية الثانية ثم مرت بويلاتها على تونس . وأخيرا فيض لتونس أن تخرج عن الاستعمار الفرنسي وتتمتع باستقلالها . ولكن لا جدوى من استعراض شئ من مآسي الحرب العالمية الثانية ولا من نعم الاستقلال ، لأن تلك المآسي وهذه النعم قد جاءت كلها بعد أن فارق أبو القاسم دنيانا .

آثـــار الشـــابي :

لقد ذكرت المصادر المختلفة آثار الشابي ، فمنها ما اكتفى بالاشارة اليها كما فعلت د . نعمات أحمد فؤاد في كتابها شعب وشاعر ومن هذه المصادر ما أفاض في بسطها وشرحها ، ولعل خير هذه المصادر هو كتاب أبو القاسم محمد كرو " آثار الشابي وصداه في الشرق " والآثار التي ذكرها نوردها مرتبة كما يلي :

١) أغاني الحيـــاة :

ديوان شعر ، طبعة أولى ، مطبعة مصر ، القاهـرة " ١٩٥٥ م " ١٩٦ ص ، قياس ٢ر٢٤ × ٦ر١٦ . قدم له شقيق الشاعر : الأستاذ محمد الأمين الشابي .

وقد تعرض الديوان لدراسة ونقد كثير ومن الذين نقدوه :

ا ــ البشـير العربي في :

١ ــ الشابي في أغاني الحياة : كتاب " ذكرى الشابي وأحمد أمين " مطبعة الشـمال تونس ١٩٥٦ م ، وهو كتاب حوى عدة دراسات بقلم أدباء تونسيين ألقيت في احتفال أقيم احتفاء بظهور الديوان . ص ٢٦ ــ ٣٠ .

٢ ــ مطالعات أغاني الحياة ــ الفكر س ١ ع ٤ ص ٦٤ " ١ ــ ٥٦ "

ب ــ رضـوان ابراهيـم :

١ ــ أغاني الحياة : الحج . س ١٠ ج ١ ص " ٢١ ــ ٢٥ " ١٣ ــ ١ ــ ١٩٥٦ "

٢) ــالخيال الشعري عند العرب :

محاضرة ألقاها الشاعر تحت اشراف النادي الأدبي التاسع لجمعية قدماء خريجي المدرسة الصادقية بتونس ، وكان القاؤها في قاعة الجمعية الخلدونية يوم ٣٠ شعبان ١٣٤٧ هـ ــ ١٩٢٩ م (٢) .

وقد طبع الكتاب في نفس السنة ، مطبعة العرب ــ تونس ، بلا تاريخ ، ١٤١ ص حجم ½ ١٣ × ٧٥ر١٨ حجم وقد أهدى الشابي كتابه الى والده ، وقدم الكتاب ناشره السيد زين العابدين السنوسي .

---

١) الشابي ــ شاعر الحب والحياة ــ عمر فروخ عن القناة التونسية ، الخطاب الثالث ص ٢ ــ ٤ .

٢) هذا التاريخ ذكره كما يقول أبو القاسم محمد كرو ــ الأستاذ محمد صالح المهيدي في مجلة =

نقـــــــده :

أثار الكتاب ضجة كبيرة فى تونس منذ ألقى بشكل محاضرة ، ثم بعد طبعة وانتشارة ، وقد ذهب معظم النقاد الى معارضة الشابى فيما ذهب اليه من أن الشعر العربى لم يسم الى الآفاق التى ارتفع اليها الشعر الآوربى .

وكانت أكثر الكتابات مشحونة بالزراية والتحامل والاستنقاص . ولعل خير ما كتب فى هذا الموضوع هو ما نثبته فيما يلى كما يقول " أبو القاسم محمد كرّو " .

١) محمـد الحليـوى :

حول كتاب الخيال الشعرى عند العرب مقالتان مطولتان فى مجلة العالم الأدبـــى مجلد ١٩٣٠ . وقد أعاد الكاتب نشرهما مع كتابات أخرى عن الشابى فى كتاب "مع الشابى " تونس ١٩٥٥ م سلسلة " كتاب البعث " (٢) ص ٦ — ٣٤ .

ثم أعاد اذاعتها بشكل محاضرة ألقيت فى الذكرى الخمسين لميلاد الشابى ، الـــذى نظّمته دار الجمعيات الثقافية فى تونس ١١/١٩٥٩ م .

٢) مختار الوكيـل :

الخيال الشعرى عند العرب : أبوللو — م ١ ع ٧ ص ٨٣٣ " ٣/١٩٣٣ م "

٣) أبو القاسـم الشابى رد على نقد مقال رد فيه الشابى على نقد الوكيل الســابق : أبوللو م ١ ع ٠ ١٠ ص ١١٧٢ " ٦/١٩٣٣ م " . ونفس المقال نقلته جريدة الزيتونـة ، عدد خاص بالشابى بتاريخ ٢/١١/١٩٥٤ م .

٤) مصطفى خريف :

فكرته فى الخيال الشعرى عند العرب : الأسبوع عدد خاص بالشابى رقم ٣١١ — " ٢٤/١١/١٩٥٢ م ٠ " ص ٩ .

٥) محمـد الصالح المهيدى :

الخيال الشعرى عند العرب : الندوة عدد خاص بالشابى س ١ ع ١٠ ص ١٧ " ٢٠/١٠ ١٩٥٣ م ٠ "

٦) محمـد الفاضل بن عاشـور :

الحركة الأدبية والفكرية فى تونس : منشورات جامعة الدول العربية القاهرة ١٩٥٦ م ص ١٦٠ — ١٦١ .

٧) مجلة الحديث :

٤/٢٠٣ (٢)

٨) محيى الدين الكـــــبى :

(أ) النقد والتأليف عندنا — مجلة العالم الأدبى س ١ ع ١ " ١٩٣٠ "

(ب) الخيال الشعرى عند العرب — العالم الأدبى س ١ ع ٣ — ١٩٣٠ م .

---

(١) كانت وفاة والده يوم ٨/٩/١٩٢٨ م (٢) ذكر هذا المرجع الاستاذ داغر فى مصادر الدراسة الأدبيـــة .

(*) تونس س ١ ع ٢ ص ٣٦ " ١٢/١٩٣٦ م " وهو مرجع عندنا . وقد ذكر شقيق الشاعر فى تقديم للديوان " أنه حاضر عام ١٩٢٧ م وطبع المحاضرة عام ١٩٢٨ م وذكر الشيخ محمـــد الفاضل بن عاشور فى كتابه الحركة الأدبية فى تونس ص ١٦٠ أن المحاضرة القيت فى نوفمبر ١٩٢٩ م

٩ :ـ الزمـــان

س ١ ع ٧ بتاريخ (٣٠/ ٧ / ١٩٢٩م).

١٠ :ـ مجلـة منيرفـا : ـ م ٧ ص ٣٨٦ (أكتوبر/ سنة ١٩٢٩م).

مقـــالات ودراســـات

==========

١ :ـ النفس التائهة: النهضة الأدبية بتاريخ (١٦/ ٢/ ١٩٢٧م).

٢ :ـ اليقظة الاسلامية الحاضرة : الزمان سنة ١٩٢٩م.

٣ :ـ الشعر ما يجب أن يفهم منه وما هو مقياسها الصحيح : العالم الأدبي س١ ع٢ سنة ١٩٣٠

٤ :ـ أيها القلب: العالم الأدبي س١ ع٧ سنة ١٩٣٠م.

أغنية الألم :ـ العالم الأدبي س١ ع٧ سنة ١٩٣٠م.

٦ :ـ صفحات داميةمن حياة الشاعر :العالم الأدبي س٣ ع٦ سنة ١٩٣٠م.(١)

٧ :ـ روح ثائرة : العالم الأدبي س٣ ع٨ بتاريخ ٣٠/ ٤/ ١٩٣٢م.

٨ :ـ يقظة الاحساس وأثرها في الجماعة: العالم الأدبي س٣ ع٦ بتاريخ ١١/ ٤/ ١٩٣٢م.

٩ :ـ تعليق على مقال الشاعر في تونس: الزمان بتاريخ شهر ١٠/ ١٩٣٢م.

١٠ :ـ الشعر والشاعر عندنا : العالم الأدبي س٣ ع٢٨ بتاريخ ٢٤/ ١٠/ ١٩٣٢م.

١١ :ـ رد على نقـد : مقال رد فيه على نقد مختار الوكيل لكتابه (الخيال الشعرى عند العرب) أبـوللو م١ ع١٠ ص١١٧٢ بتاريخ شهر ٦/ ١٩٣٣م.

الأدب العربي في العصر الحاضر: دراسة قام بها ديوان الينبوع لأبي شادى : ط١ القاهرة (١/ ١٩٣٤م.

١٣ :ـ لخصوصية الشعر : الزمان س٦ ع٢٤٤ بتاريخ ٤/ ٩/ ١٩٣٤م.

١٤ :ـ الفنون والنفس العربية : الباحث سلسلة أولى س١ ع١ ص١٠ بتاريخ شهر ١/ ١٩٣٨م.

رســـائـل الشـــابي

==========

كان الشابي يراسل عددا من أدباء وشعراء تونس والبلاد العربية : وقد ذكر أبو القاسم محمد كرّو في كتـابـه آثـار الشابي وصداة مـــا يلـي :

محمـــد الحليـوى ـ تونس:

يحتفظ هذا الأديب بمجموعة من رسائل الشابي لاتقل عن خمسين رسالة ـ وقد نشر بعضها في المجلات والصحف التونسيـة ، و لأمـــر مـــا لـم ينشـرهـــا مجمـوعـة في كتـــاب.

---

(١) :ـ المقـالات ((٤ ، ٥ ، ٦)) ذكر الأستاذ الحليوى أنهـا مقتطفـة مـن يوميـات الشابي نشرهـا في حياته وذكر غيره أن رقم ((٦)) فصل من كتـاب لـه بهـذا العنـوان .

٢ :ـ محمد البشروش ـ تونس

أديب جهير عاش مدة بعد الشابي وقد توفي سنة ١٩٤٥م ،ولا يعلم أحد مصير رسائل الشابي اليه

٣ :ـ مصطفى خريف ـ تونس

شاعر تونسي جشهير وأديب لامع قيل أن لديه مجموعة من رسائل الشابي غير أنه لم ينشر منها سوى رسالتين .

٤ :ـ محمد صالح المهيدى ـ تونسي

كاتب تونسي معاصر للشابي كان صديقا للشاعر وغير بعيد أن تكون له بعض رسائله الأدبية لأن الشابي يشير في رسائله لمصطفى خريف الى ما يدل على وجود مراسلات بينهما .

٥ :ـ أحمد زكي أبو شادى ـ مصر

شاعر وعالم مصرى شهير ،كانت بينه وبين الشابي صلات أدبية وثيقة والى أبي شادى يعزى الفضل في انتشار وذيوع شعر الشابي في الشرق ،وقد كان أبو شادى يحتفظ بمجموعة من رسائل الشابي اليه غير أنها ضاعت أثناء هجرته الى أمريكا عام ١٩٤٦م.

٦ :ـ ابراهيم ناجي ـ مصر.

شاعر وطبيب مصرى معروف ويقول أبو القاسم محمد كرّو أن شقيق ابراهيم ناجي لم يعثر على شيء من آثار الشابي في مخلّفات أخية وكان الأستاذ محمد صالح المهيدى قد أشار الى وجود مراسلات بين الشابي وناجي .

٧ :ـ الدكتور علي ناصر ـ حلب.

شاعر سورى ذكر المهيدى أن الشابي كان يراسله .

٨ :ـ عبد العزيز عتيق ـ مصر.

شاعر مصرى ذكر طه عبد الباقي سرور في كتابة "أبو القاسم الشابي ـ شاعر الشباب والحرية". ص ٩٧/ أن الشابي وعتيق كانا يتبادلان الرسائل الأدبية .

رسـائلـه المنشـورة

نشر بعض الأدباء التونسيين جملة من رسائل الشابي اليهم وفيما يلي تفصيل ما نشروه مع أماكن النشر.

١ :ـ محمد الحليوى :

١ : نقتا من رسائل الشابي اليه استدل بها في دراسته المطولة عن أدب الشابي ـ المجلة الأدبي ص٤ ج٢ ((٢٤ / ١٢ / ١٩٣٤م)) وكتاب الحليوى مع الشابي ص ٦٤ ـ ١٠١.

مع أماكن النشر :.

(أ) محمد الحليوى :

١ ــ نتفا من رسائل الشابى اليه استدل بها فى دراسته المطولة عن أدب الشابى العالم الأدبى ــ س ٤ ع ٢ " ١٩٣٤/١٢/٢٤ م " وكتاب الحليوى مع الشابى ص ٦٤ ــ ١٠١ .

٢ ــ رسالة مؤرخة بتاريخ ٥/٢/صفر ١٣٤٨ هـ . الأفكار س١ ع ١ " ١٩٣٦/١١ م "

٣ ــ نتفا من رسائل الشابى اليه استدل بها الحليوى فى مقال نشرة عن الشابى من خلال رسائله . الأفكار ــ ١ ع ١ ص ١٩ " ١٩٣٦/١١ م . "

٤ ــ رسالة مؤرخة بتاريخ ٢١/ ذى الحجة عام ١٣٥١ هـ : الندوة س١ ــ ١٠ " ١٠/ ١٩٥٣ م " عدد خاص بالشابى .

٥ ــ رسالة مؤرخة ٢٠ شوال ١٣٤٨ هـ : الزيتونة ــ عدد خاص بالشابى ١١/٥٤

٦ ــ رسالة مؤرخة بتاريخ ١٩٣٣/١٢/٨ م : الفكر س٢ ع ١ ص ٥ " ١٩٥٦/١٠ "

٧ ــ رسالة مؤرخة ١٩٣٣/١٢/١٩ م الفكر سنة ١٩٥٦ م .

٨ ــ رسالة مؤرخة ١٣٥١/١٠/٢٦هـ : الفكر س٤ ع ١ ص ٢١ " ١٩٥٨/١٠ م " .

(ب) مصطفى خريف :

١ ــ رسالة مؤرخة ١٩٣٠/١٠/٢٣ م : العالم الادبى س٤ ع ١٩ " ٣٦/٤/٢٠ "

٢ ــ رسالة مؤرخة ١٣٥٢/٥/٢٥ هـ : الفكر س٢ ع ١ ص ٢٦ " ١٩٥٦/١٠ م "

يوميـــــات الشـــابى :

مذكرات يومية ترك الشابى منها مجموعة ، منها تبدأ بيوم ١٩٣٠/١/١ م وتنتهى بيوم ١٩٣٠/٢/١٢ م . وفيها يتحدث الشاعر عن حياته اليومية وأثرها فى تفكيره .

وبعض هذه اليوميات تعد قطعا أدبية جميلة بأسلوبها وخيالها الفنى البديع ، والبعض الآخر جاء عاديا جدا . وهى بلا شك وثيقة هامة جدا لدراسة وفهم حياة الشابى وأدبه وخاصة تطوراته النفسية والأدبية والاجتماعية ، ويحتفظ بالنسخة الأصلية لهذه اليوميات صديق الشابى الأستاذ ابراهيم بورقعه ، الذى نشر جانبا منها فى مجلة مكارم الأخلاق ، التى كانت تصدر بصفاقس ، وهذا تفصيل ما نشره فيها ، وما تم نشره فى غيرها :

١ ــ مكارم الأخلاق :

يومية ١٩٣٠/١/٣ م ــ ع ٧ ص ٢٧١ " ١٥ ذى القعدة ١٣٥٥ هـ "

يومية ١٩٣٠/١/٧ م ــ ع ١١ ص ٤٤١ " صفر ١٣٥٥ هـ "

يومية ١٩٣٠/١/١٣ م ــ ع ٥ ص ١٨٧ " ١٥ شوال عام ١٣٥٥ هـ

يومية ١٩٣٠/١/١٨ م ــ غ ٢ ص ١٨ " ١٥ شعبان عام ١٣٥٥ هـ "

٢ ــ الأســـبوع :

يومية ١٩٣٠/١/١ م ــ ع ٣١١ بتاريخ ١٩٥٢/١١/٢٤ م

يومية ١٩٣٠/١/١٢ م ــ ع ٣١١ بتاريخ ١٩٥٢/١١/٢٤ م

٣ ــ الفكـــــر :

يوميـة ١٩٣٠/١/٢٥م ــ س٥ ع٦ ص ٣٠ " ١٩٦٠/٣م "

يوميـة ١٩٣٠/١/٢٧م ــ س٥ ع٦ ص ٣٠ " ١٩٦٠/٣م "

يوميـة ١٩٣٠/٢/٥م ــ س٥ ع٣ ص ٤٤ " ١٩٥٩/١٢م "

يوميـة ١٩٣٠/٢/٦م ــ س٥ ع٣ ص ٤٥ " ١٩٥٩/١٢م "

يوميـة ١٩٣٠/٢/٢٣م ــ س٥ ع٦ ص ٣٠ " ١٩٦٠/٣م "

٤ ــ الصبـــــاح :

سلسلة من الفقرات المقتطفة من يوميات الشابي ، ضمنها محمد فريد غازي سلسلة من المقالات المنشورة تحت عنوان " أبو القاسم الشابي من خلال يومياته " . وهي تسع مقالات نشرت تباعا في كل أسبوع ابتداء من عدد ١٩٠ بتاريخ ١٩٥٥/١٠/١٥ الى ١٩٥٥/١٠/٢١م .

محـــــاضـــــرات :

١ ــ الهجـرة النبويـة : محاضرة ألقاها الشاعر عام ١٣٥١ هـ في نادي الطلاب بتونس بمناسبة ذكرى الهجرة المحمدية ، فقد نشرت تباعا في مجلة العالم ابتداء من عدد ٦ س ٢ بتاريخ ١٩٣٢/٦/١م .

٢ ــ جميل بثينه : محاضرة باسلوب قصصي أعدها لتلقى في النادي الأدبي عـام ١٣٤٨ هـ ، ولكن المرض منعه من القائها .

٣ ــ شعراء المغرب الأقصى : في عام ١٩٢٩م ظهر في مراكش كتاب " الأدب العربي في المغرب الأقصى " وقد تناول فيه مؤلفه الأستاذ محمد بن العباس القبّاج طائفة من شـعراء مراكش المعاصرين بالترجمة والتعريف والمختارات ، وكان الجزء الثاني خاصـا بالشعراء الشبان وقد تناول الشابي هذا الجزء بالنقد والتحليل ، وأعد من ذلك دراسة لتلقى في النادي الأدبي تحت عنوان " الأدب العصري في المغرب الأقصى " وكان موعد القائها مساء يـوم ١٩٣٠/١/١٣م .

" .... ذهبت أنا والأخ زين العابدين السنوسي والأخ مصطفى خريف مساء اليـوم الى النادي الأدبي لالقاء محاضرتي عن كتاب " الأدب العربي في المغرب الأقصـى " الذي طلب مني النادي الادبي أن أبسط لهم رأي فيه ، ولكننا لم نجد أحدا هناك . "

كتب أخـــــرى :

١ ــ في المقبرة : رواية أو قصة على نمط قصص جبران باسلوب فني عذب ، وخيال شعري فائق ، وقد وصفها من اطّلع عليها فقال :

" .... وله باع طويل في النثر الشعري ، قرأنا له فيه رواية حسنة بديعة " ناهيـك أنها نوع من الاعترافات ، يقص فيها على لسان بطلها حوادثه وتأثراته النفسية ، وهو نـوع عزيز حتى عند الأمم المختمرة في نفسها الروح الروائية (١)

٢ ــ السكير : " مسرحية ذات فصلين من نوع الاعتراف ، وهي أصعب أنـواع

---

(١) زين العابدين السنوسي ــ الأدب التونسي ص ٢٠٧ تونس عام ١٩٢٧م .

التأليف كما هو معروف عند أدباء المسرح ،وأعرف هذه المسرحية عند أبي القاسم — وكان رحمه الله — كثير الاعجاب بها قرأها علي مرارا ولعلها تكون باقية في آثاره . . .) (١) .

تلك هي مخلفات الشابي الأدبية ولا شك من أن له آثارا غير معروفة ولكنها ما تزال مهملة مقبورة عند أهله وأقاربه وأصدقائه ،ولم ينشر منها سوى ما ذكر مفصلا في الصفحة السابقة (٢) .

كفـــاح الشـــابي

على الرغم من أن كفاحه كان شاقا وأن عصره كان لا يفهمه ،ولا يقدره فانه برغم ذلك كله كان شديد الايمان برسالته ،وكانت عزيمته قوية .

ويتبين لنا مدى احتماله للشدائد من رسالة بعث بها الأستاذ الحليوى ردا على رسالة الأخير يشكو اليه فيها ظلم الحياة ومضاضتها قال فيها : " مالنا وشكوى الحياة ؟ " .

فمـن تألّم لـم ترحم مضاضته . . ومن تجلّد لم تهزأ بـه القمـم

فلنترك الألم ولنصعد بأقدام ثابتة الى جبل الدنيا المقدسة ،جبل الفن والفكر والأحلام :

فالمجـد في القمـم الرفيعة مـالي ... جبل الحياة بضوءه الخـلاب

ولنعرض بأبصارنا عن أشباح الموت والظلام في أعماق الوادى وفي شعاب الجبل ،فان في الذروة العليا موسى الحياة الخالدة ،وفجر الحياة السرمدى .

ولقد انقسم كفاح الشابي قسمين :

١ :— تطبيق آراءه في شعره وفنه وأعماله .

٢ :— الكفاح في سبيل نشر هذا الشعر والدعوة الى التجديد في نثره وشعره .

أما تطبيق آرائه في شعره فخير ما يمثله ما كتبه أديب تونسى معاصر لعهد الشاعر وهو الأستاذ محمد النيّال يقول : انه قرأ للشابي قصيدة في احدى الصحف التونسية فسأل صاحب الصحيفة عن هذا الشاعر الناشئ ،فأجابه : " انه شاب من طلاب جامعة الزيتونة أقلقني بمقطوعاته المكدسة بمكتبتي يرجونشرها ولقد رأيت أن آخذ بخاطره فأنشر له هذه القصيدة " .

ولقد أعجب الأستاذ النيّال بالقصيدة فكتب عنها يقرظها وينقدها فاذا به يفاجأ بأبي القاسم الشابي الشاعر يجيئه ليشكره ويعلن له أنه سرّ جدا باهتمامه به ،وحدبه عليه .

وهذه القصة ترينا الى أى حد كافح الشابي في مبادئ حياته لنشر شعره ،بل لقد كان يحدث أكثر من هذا فقد كان الكثيرون من أهل الصحافة لا يفهمون لغة الشابي ولا يدركونها ،ويحدثنا في ذلك الشابي نفسه اذ أنه اجتمع مع اثنين من خلصاء أصحابه من أهل الصحافة فراح أحدهما يدير الحديث حول شعر فقـال : " انه يجب على الشابي أن يخرج شعره من تلك الناحية الواحدة التي يعيش فيها شعره يقصـد الناحيـة الانسـانيـة .

وقال الآخر : انه يزعم أنه لا يفهم من شعر الشابي ولفته شيئـا .

وهنا يعلق الشابي على ذلك فيقول : " اليوم أدركت أني وحيد في وسط قوم لا يفهمون لغة نفسي " ولكن ولكن هل كان نتيجة لأن الناس لا يفهمون لغة الشاعر أن ضاع شعر الشابي ومات في مهده ؟ كلا فلقد استطاع الشابي أن يخرج به بعزيمته الصادقة من حيزّ الاقليمية الضيق فينشره بمصر بمجلة أبوللّو ثم في بعض المجلات اللبنانية واذا بشعره قد حاز اعجاب النقاد في المشرق والمغرب واذا بشعره قد تناقلته الصحف

(١) :— محمد بو رقمة — مجلة الثريا — س٧ — ع٤١٤ — ع٤ ((٤ / ١٩٥٠م) .
(٢) : — آثار الشابي وصداه في الشرق — أبو القاسم محمد كرّو .

في مصر والشام والعراق وغيرها ، واذا شهرته قد طبقت الآفاق .

هكذا اذا كان موقف الشعب والمفكرين من الشابي : عزلوه عن الحياة ، ووصموه بالالحاد والكفر ، واذا به غريب بين أبناء وطنه وعشيرته غريب بين قوم لا يفهمون لغة نفسه ، وها هو ذا يعبر عن ذلك فيقول :

أنت كالزهرة الجميلة في الغاب ولكن ما بين شوك ودود

وهو يرى في الدنيا والحياة نظرات جديدة ومنابع جديدة للحب والحياة ، غير أنه يرى للحياة فتنة وجمالا لا يدركهما البصر ولكنه عندما حدث الناس عن ذلك أعرضوا عنه ونفروا منه فاذا به يصرخ :

يا صميم الحياة كم أنا في الـــــدنيا م غريباً شقي بغربة نفســـــي

بين قوم لا يفهمون أناشيد فؤادي ولا معـــــــاني نفســـــي

ثم اذا به يثوب الى نوع جديد من الأمل الى نوع جديد من الحياة المثالية في ظلال حيث منابع الخير والجمال ومظاهر الحق والاطمئنان .

ولكن كفاح الشابي لم يضع وها نحن أولاء نرى اليوم ثورة الشابي ومبادئه وقد تحققت في كل مكان في تونس الحرة والأدب العربي وهكذا صدق الله العظيم : (فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض) .

ولقد ثار الشابي على هذه الحياة الكئيبة وعلى الروح الجامدة وعلى الجهالة المتأصلة والجمود الأخرق وندد بها فقال :

أنت يا كاهن الظلام حياةً تعبدُ الموتَ أنتَ روحُ شقي

كافرٌ بالحياةِ والنورِ لا يصغي الى الموتِ قلبُهُ الحجريُّ

أنت دنيا يظللها أفق الماضي دليل الكآبة الأبدي

والشقي الشقي في الأرض شعب يومه ميت وماضيه حبي

وليس من شك أننا نستطيع أن ندرك أنه كان من جند الطليعة الأولى الذين شقوا أول الطريق وكان لهم فضل بناء حجر الأساس وبرغم ما تحملوا من عذاب وأهوال وشقاء كانوا مؤمنين برسالتهم المقدسة وقد حملوا رايتهم الى بر الأمان وجابهوا في سبيل ذلك القوى الاستعمارية والرجعية الجامدة والأمة اليقظة والدينية التي تؤمن بالدين ككتب محنطة وأفكار رجعية .

ولقد حمل أبو القاسم الشابي الشاعر المجيد لواء الاصلاح الأدبي وتحرير الأدب العربي من قيوده السوالف وشارك في جميع الاصلاحات السياسية والاجتماعية والاقتصادية وكان له شرف بناء الوعي الجديد في العالم العربي عامة وفي تونس خاصة .

ولقد بدأت رسالة الشابي كما آمن بها تظهر بوادرها في عالم الحقيقة والواقع بعد أن كانت منذ ربع قرن تقابل بالسخرية والاستهزاء ، انها اليوم تقابل بالاحترام والتكريم وها هي ذي رسالته التي قدمها في الحرية للشباب التونسي تقابل بحب وايمان وصدق تلك الرسالة التي قال فيها :

(أن تونس لفي حاجة الى أن تتقدم بخطوات ثابتة في سبيل النور والزهور ان تونس لفي حاجة الى أن ترفع رأسها عاليا حتى تشاهد أنوار السماء وشموسها وحتى تقبل شفتاها أضواء النجوم !) .

لقد أصبح الشابي اليوم في تونس خاصة وفي العالم العربي عامة صورة من صور الثورة السياسية والاجتماعية

والعقلية ، وأصبح مظهرا قويا من مظاهر الثورة النفسية وهي : وذي ثورة الشابي قد أصبحت رمزا من رموز الثورة والانطلاق ، فلقد انتصر الشابي وهو ميت ، لأن شعره خالد لا يموت :

إذا الشعبُ يوما أراد الحياةَ
فلابد أن يستجيبَ القدرْ

ولابد لليل أن ينجلي
ولابد للقيد أن ينكسر .

==========

الباب الثاني

أضواء على شخصية الشابي وأثرها في شعره

أ :ـ مرضه : وعن مرضه نشأ تشاؤمه وشدة انفعاله حينا بعد حين .

ب :ـ حالته المادية : وعنها نشأ ضغط أعباء الحياة وتكاليفها عليه فحرمه من كثير من الحرية التي كان يحب أن يتمتع بها .

ج :ـ مطالعاته : وهي التي طبعت نفسه وشعره بعناصر من الخيال والانفلات والنفمة ثم أدخلت على شعره شيئا من الجدة والطرافة .

د :ـ جمال بلده تونس في البؤس الاجتماعي والتخلف الثقافي والضعف السياسي مما خلفه الاستعمار الفرنسي .

ولقد أضيفت الى هذه العوامل عبقرية أصيلة وشاعرية فياضة فاذا نحن أمام شخصية فذة ولكنها هائمة مضطربة عاجزة ولكنها طموحة متمردة .

كان الشابي ضعيف البنية نحيف الجسم مديد القامة ثم زاده المرض ايآن النمو نحولا وضعفا وكذلك كان ذكيا حاد الذهن سريع الانفعال ،وكان فوق ذلك رضيّ الخلق بشوشا قانعا بما يصل اليه من عرض الحياة الدنيا متواضعا خجولا كثير التسامح في معاملة أصدقائه وخصومه ،رقيق الطبع لطيف المعشر خافت الصوت عند التحديث قليل التكلف في حياته الخاصة والعامة ،وكانت تعلو وجهه مسحة من الكآبة والوجوم على الرغم من المرح الذى كان يحاول اصطناعه في جميع الاحوال والأحيان ،ويروى فروخ قصة عن الحليوى مفادها أن الأخير زار الشابي مرة برفقة مصطفى خريف ،فلقي منه ملاطفة وايناسا على الرغم من أنه كان في ذلك الحين يصارع الموت ويغالب آلام النزاع ،فقال الحليوى معلقا على ذلك : " وكان يحتضر ذلك الذى اقتبلنا هاشا باشا حتى جعلنا نُسَر من حالته ونحسب شفاءه كأنه أمر محقق ،وما درينا أن الرجل يصارع الموت ويغالب آلام النزع ،ليقوم بواجب ملاطفتنا وايناس وحشتنا "

أولا :ـ مرضه :

كان للمرض الذى عاناه أثر واضح في اتجاهه في الحياة العامة وفي الشعر ، وسنجد شعره مملوءا بالتشاؤم وبالنقمة على الناس وعلى أحوالهم .

ان المرض يمنع صاحبه التمتع بمسرات الحياة ويمنعه تبيين تلك المسرات ،ومع أنه قد يكون للشخص المريض نظرات متفرقة صائبة في الحياة ،فاننا لانستطيع أن نقول أن نظراته هذه صورة للحياة لأنها صورة نفسه هو في سراج الحياة ،وكذلك كان شأن الشابي في هذا الأمر .

ثم واجب علينا أن نفرق بين الأشياء التي يقولها الرجل بعقله وبين الأشياء التي يقولها بقلبه ومع الاعتراف بأنما يقوله الرجل بقلبه يكون شعرا جميلا ،فانه ليس من الضرورى أن يكون صحيحا أو صوابا ،ونحن في دراسة الشابي انما نتصفح شعرا ،من أجل ذلك سنعنى بعنصر

الجمال أكثر مما سمعتي بعنصر الصواب .

كان الشابي منذ أول عمره مريضا ضعيف البنية ، ولكن علته لم تبرز واضحة ولا بدا اثرها في تفكيره وشعره الأدبي في السنوات الست الاخيره من حياته ، تلك السنوات التي كانت أيضا ذروة انتاجه الادبي .

والمرض عامة ، ومرض الشابي خاصة ، يغير نفسية المريض تبعا لمقابيل الداء .

ان مرض الشابي في قلبه كان له تأثير سيء على رئتيه فاعقب ذلك اضطرابا في التنفس أي حركة الرئتين ،واضطراب حركة الرئتين يؤدي الى اضطراب الدورة الدموية فيتعرض المريض حينئذ لانحطاط في القوى وتعب مستمر حتى في الاحايين التي لا يقوم بها في مجهود ملموح . فاذا اضفنا الى ذلك أن الاطباء كانوا قد منعوا الشابي من القيام بالأعمال التي تورث جهدا جسمانيا أو عقليا : منعوه الجري والقفز والسباحة ورمي الكرة وتسلق الأشجار والتلال وكل ما يعده الناشئون من ملاهيهم — وهو في الحقيقة في النشاط الطبيعي لكل انسان — أدركنا ما كان يدخل على نفس الشابي من أثر ذلك . وان كثيرا مما كان يستشعره الشابي من القلق وما كان يدب في نفسه من السآمة والملل والتشاؤم والنقمة مرده الى مرضه ولا شك في ذلك . ولم تكن حال الشابي ، فيما يبدو ، خافيه على المحيطين به ، ولا كانت عاقبة ذلك المرض في الشابي مجهولة . من أجل ذلك لا نستغرب أن ينفجر الشابي ، اذا استرق همسات اصدقائه واعدائه على السواء بمثل قوله :

ساعيش رغم الداء والاعداء .·. كالنسر فوق الصخرة الشماء !!

وربما خرجت نقمته عن حد الكلام المنظوم ، وتبدى انفعاله ثورة من العنف . استشهد الدكتور محمد فريد غازي بقطعة من يوميات الشابي تتصل بليلة من ليالي رمضان من سنة ١٣٤٨ هـ (الخميس بتاريخ ١٩٣٠/٢/٦ م) هي :

" .... ما شرعت أكتب ،وكلفت ابن عمي الصغير بأن يسخن سحورنا على البابور حتى اضطربت حركاته وتلعثم لسانه ،فلم يستطع أن يبين . فقلت له :

ماذا ؟ .

— لم أجد البابور !

— انسيته خارج البيت ؟

— كلا ، أدخلته

— وكيف فقد اذن ؟ أسرقته الشياطين ؟ انك نسيته خارجا ، يامجنون !

— كلا — بل ادخلته !

— لا تقل ادخلته ، ياكلب! وهل سرقته الجنة ؟ ولو كنت صادقا اذهب وابحث عنه خارجا لعلك تلقيه .

فخرج الصبي ، وقد أعمى النوم والخوف بصره ،فلم يجده ، فعاد والخيبة تغشى وجهه فسألته :

— هل وجدته ؟ فقال بانكسار

— كلا ، ولكني أدخلته ،والله .

ـ اسكت ، ياكـــذاب !

وظل صامتا ، وظللت أفكر . ثم اندفعت عليه ضربا وشتما فى ثورة من الغضب والعنف . ثم أفاق اخو الخطيئة فاعطيته حقه من الشتم والتقريع . ثم سكت سكوت الغائب بعد العاصفة وظللت كذلك حينـــا .....

لا خلاف فى أن الشابى كان متشائما كئيب النفس ، فقد قال هو عن نفسه : " انـنى فى كثير من الأحيان ..... تطغى على نفسى كآبة الليل المبهم فاصدف عن الكـتب ويوصد قلبى عن جمال الوجـود "

وليس بمستغرب ان يشعر الشابى ، بالاضافة الى هذا ، بجانب من مركب النقص فـى نفسه ، فهو يقول عن نفسه أيضا " ان القدر هاته السنة ـ فيما أرى ـ لا يريـد أن يسلك معى الا مسلك المعاكسه والعناد ، وكيف يكون ، ياصديقى ، حال من يتعمد القـدر معاكسته ؟ " .

ويكثر الشابى فى مثل هذا الكلام : " وما يطيف بى فى هاته المعاكسات ... وسخرية القدر بى " .

ويتبع محمد الحليوى تشاؤم صديقه ثم يحاول أن يجعل ذلك التشاؤم أدوارا فيقول : " كل من يتتبع آثار أبى القاسم الشابى ، عن قرب أو عن بعد ، يعرف أنه من الشعراء المتشائمين . وقد مر تشاؤمه فى ثلاثة أطوار :

أولا : طور التشاؤم القاتم :

وكان الشابى فى هذا الطور ينحو نحو جبران وينكب على المطالعة " لزوميات المعرى " ولم يكن لتشاؤمه فى هذا الطور سبب غير هذا وهذا التشاؤم الذى لاسبب معروفا لـه شئ يشارك الشابى فيه كثير من صغار الشعراء ومقلديهم ، ويختار الحليوى ابياتا من شعر الشابى تمثل هذا الطور المتقدم من التشاؤم عنده منها (١)

لم أجد فى الحياة نغما بديعا ∴ يسبينى سوى سكينه نفسى
ناولتنى الحياة كأسا دهاقا ∴ بالأمانى فما تناولت كأسى ؟
ان فى روضة الحياة لاشوا ∴ كا بها مزقت زنابق نفسى !

ثانيا : الطور الثانى :

أما تشاؤم الشابى فى هذا الطور فكان تشاؤما مصحوبا بالتعليل ، كما يرى محمد الحليوى مع شئ من التساؤل القائم على الحيرة والقلق : مانحن ؟ ما الحياة ؟ ما الموت ؟ من أين جئنا ؟ والى أين نذهب ؟ ..... الخ .

ثالثا : الطور التشاؤمى الثالث :

وأما فى هذا الطور ، فيتبدد شئ من غيوم الكآبة عن أعين الشابى ، وتشرق فى ظلمات حياته

---

(١) ديوان ٤٦ ـ هذه الأبيات من قصيدة قالها الشابى قبل المشمرين . " راجع الأدب التونسى ، ١ ـ ٢١١ ، الشابى ١٠٩ ـ ١٢٧ " .

فات من الأمل .

ويعزى الحليوى هذا التبدل الى اصطياف الشابى فى عين دراهم ، فى عام ١٩٣٢ م . لما بها من مناظر جميلة ، ثم لأ ثر شعر لامارتين فى عقله الباطن ، ومع أن تقسيم الحليوى يصلح ماشيا لدراسة التشاؤم فى شعر الشابى فانه يحتاج الى دراسة أوفى مبنية على تاريخ صائد الشاعر ونسقها فى سلسلة واحدة من أحداث حياته . وأعتقد مع فروخ أن بروز التشاؤم فى شعر الشابى مرة واختفائه مرة ثانية راجعان الى الأزمات النفسية والصحية التى كان يمر بها الشابى ، كما تكون الحال عند جميع الناس . ودليل على ذلك مأخوذ من رسالة لمحمد الحليوى الى الشابى مكتوبة فى بنى خلاد بتاريخ ١٩٣٣/١٢/١٣ م . قبل وفاة الشابى بأقل من عشرة أشهر ، يقول الحليوى فيها : " رجائى اليك أن تترك الأفكار السوداء ، والاعتقاد بأن الدهر يعاكسك ، فكفاك ما أنت فيه من سوء الصحة وشواغل الحياة . . . . ومع ذلك فالانهزام عار على بنى الانسان ، والاستسلام ضعف واستخذاء ، فالشابى كما نرى لم يكن فى آخر عمره " أحسن تشاؤما " منه فى أول عمره ! .

وأنا مع فروخ بالأخذ برأى زين العابدين السنوسى من أن كآبة الشابى وأساه وتشاؤمه راجعة الى مرضه فى الدرجة الأولى ، والى ما أعقب هذا المرض من حرمان الشابى من التمتع بالحياة تمتعا عاديا مألوفا .

ومثل ذلك رأى الدكتور محمد غازى ، الذى يرى أن مرض الشابى لم يكن ذا تأثير على نفسيته فقط ، بل على شعره أيضا .

وقد ذهب البشير الزريبى الى أن الشابى غير متشائم ، وربما كان ذلك رأى قوم آخرين ولكن محمد صالح بن ابراهيم ينكر ذلك على الزريبى كما ينكره الشاذلى بو يحيى على القوم الآخرين .

ولعل ضغط الحياة المادية أشد عليه تأثيرا من مرضه .

كان الشابى يحب أن يعيش طليقا من كل قيد مادى يشده الى حاجات الحياة اليومية وما كان يصبو لأن يعيش حرا من قيود المجتمع . غير أن موت والده ألقى على كتفيه أعباء مادية رغسته فى تكاليف الحياة فاصبح مضطرا الى أن يهمل " السعادة الروحية " التى كان يحلم بها للقيام بما تتطلبه الحياة منه نحو أسرته . ولقد فرك ذلك فى نقمته على هذا النوع من الحياة ، ثم على الحياة نفسها . ويجب ألا ننسى أن هذه الأعباء الجديدة قد حرمته فعلا من الراحة التى كان عليه أن يتمتع بها فى سبيل مداراة مرضه ، لقد رأينا شيئا من شكواه ، بعد موت أبيه ، من أعباء الحياة . وفى مايلى أبيات تجمل رأيه فى الحياة التى يحياها ، وفى الأمور التى تصرفه قسرا عن مثلها يقول : (١)

ليت لى أن أعيش فى هذه الدنيا . . يا سعيدا بوحدتى وانفرادى
أصرفوا العمر فى الجبال وفى الفلا . . بات بين الصنوبر الميادى
ليس لى من شواغل العيش ما يصرف نفسى عن أسماع فؤادى

---

(١) الديوان ص ١٢٤ .

وأتنى مع البلابل في الغاب ... به وأصغي الى خرير الوادي
لا أعنّي نفسي بأحزان شعبي ... فهو حي يعيش عيش الجماد
هذه عيشة تقدسها نفسي وأدعو لمجدها وأنادي !

مطالعة الشابي وثقافته

كان الشابي واسع المطالعة ، غير أن مطالعته هذه لم تكن متصلة ، مما نرى في ديوانه ، بالعلوم التي لقاها في الزيتونة ، أو بالفنون التي استمع الى محاضرتها في كلية الحقوق ، ثم أن الشابي قد اقتصر في مطالعته لى ما كان ينشر في اللغة العربية أصلا أو منقولا فانه " لم يكن يعرف لغة أجنبية ". ومع ا لا يقان بأنه كان د تأثر بشيء من الأدب القديم الذي نلمسه في عدد من قصائده التي نظمها على الأسلوب الجاهلي في طواره الأولى في الأغلب ، فان مطالعته الواسعة كانت في الكتب الحديثة عن الأدب المعاصر خاصة ، في ما ينطبق عليه وصف تجديد على الأخص .

لا مشاحة في أن الشابي طالع آثار كبار الأدباء : من العصر الجاهلي الى الحضارة الأموية ، فالعباسية لأندلسية . " وهذا واضح في شعره ، وخصوصا في طوره الأول ، اننا اذا قرأنا أبيات الشابي التالية لم نخطئ فيها نفس شعر الحماسة في الجاهلية معاني وأسلوبا .

فيا أيها الظالم المصّر خده ... رويدك ان الدهر يبني ويهدم
سيمثأ رللعز المحطم تاجه ... رجال اذا جاش الردى فهو هم
رجال يرون الذل عارا وسبة ... ولا يرهبون الموت والموت مقدم ! "٢"

ولما بدأ الشابي نظم قصيدته — (الى الطغاة "٣" وما بعدها) ، كانت قصيدة المتنبي (لا افتخار لا لمن لا يضام) نصب عينيه حتى قال :

أي عيش هذا وأي حياة ..... (رب عيش أخف منه الحمام)

ضمّن عجز بيت المتنبي (رب عيش أخف منه الحمام) عجزا في بيته هو . غير أن التليسي لما أ ورقصيدة لشابي شاهدا على شعر الثلبي في الوطنية ، لم يميز هنا العجز سهوا أو عمدا .

على أن الظلمات التي تركت في نفس الشابي وعلى شعره أثرا عميقا مطالعاته في النتاج الأدبي الحديث في الأدب المهجري منه خاصة ، فمن الترجمات العربية عن الفرنسية عرف الثلبي نتفا من الأدب اليوناني الروماني والأدبين الانجليزي والألماني .

وكذلك وصل الى نتاج الأدب الفرنسي من خلال الترجمات العربية ايضا .

ويبدو أن الشابي قد تأثر برباعيات الخيام . تأثر بعدد من آثارها ، كما شقت أمامه طريق لتنوع في ثقافية وعدد الأشطر الا أن يكون قد تأثر في ذلك بالموشحات الأندلسية .

هذا ويرى أبو القاسم محمد كرو "٤" : أن أثر الأدب المهجري في تفكير الثلبي وأدبه يكاد يفوق كل أثر بل أثر كل أدب آخر فقد أكثر الثلبي من قراءة الأدب المهجري ومن الحفظ من نثره وشعره في أيام طفولته لغضة قبل أن يبلغ الخامسة عشرة من العمر فاذا في نفسه منه أثر لا يمحى .

---

(١) : الديوان ص ١١٠ . (٢) : الديوان ص ٤٢ .
(٣) : الديوان ص ١١٥ . (٤) : آثار الشابي وصداه أبو القاسم محمد كرو ص ٤٩ . وما بعدها

ويرى التليسي أن الاجماع ينعقد على أن الشابي كان تلميذا للمدرسة المهجرية والطابع الذى تركته هذه المدرسة في أدب الشابي لا سبيل الى انكاره أو اغفاله .

هذا ويعقد التليسي في كتابه (الشابي وجبران)[1] أراد أن يصحح فيه الوهم الذى علق ببعض الأذهان فصور لها أن أثر الد جبران في الشابي لم يتعد حدود الصياغة وطريقة الأداء .

ويخرج التليسي الى أن الدراسة الواعية لانتاج هذين الأديبين تكشف مدى الأثر العميق الذى طبع به جبران الشابي . . . وتوضح أن الشابي كان تلميذا لا تابعا لجبران ، والتليسي يرد كل خاصة وكل غرض في أدب الشابي الى أدب جبران ، وان الحب والحرية والطموح والتمرد والثورة على الجمود والرجعية وكره الاهتدال وايثار الألم الحافز الذى يدفع الأفراد والشعوب الى الحياة والنهوض حتى في قصيدته (النبى المجهول) "٢" . و (الى الشعب "٣") كلها ترجع الى أدب جبران وأثر ذلك الأدب في الشابي . وكذلك تقديس الحب والارتفاع بالمرأة عن الحدود المادية والتغزل بها بعيدا عن التدني الى الأغراض الجسدية ، والتمهيد لأمومتها أمور تأثر بها الشابي بجبران ، ويزيد التليسي ذلك شرحا فيقول : (لا شك في أن الشابي قد تأثر بنظرة جبران الى المرأة وتأثيره سابق على كل تأثير وكل تأثير جاء بعده لم يكن له من وظيفة سوى تعميق أثر جبران) "٤" .

كما يضيف التليسي قائلا : ان الشابي تلقى ثورته على الكهانة والرجعية الدينية عن جبران ، ومثل ذلك تقديس الطموح ، والدعوة الى الكفاح والثورة على الميت في ظلام قديم فانها كلها مأخوذة عن جبران "٥"

ويضيف قائلا ان الشابي كان يؤمن بالطموح ايمانا عميقا ، وكان يبحث في شعبه عن صورة المغاور المقتحم ومن هنا كانت هتافته المشهورة :

اذا الشعب يوما أراد الحياة . . . . فلا بد أن يستجيب القدر
ولا بد لليل أن ينجلي . . . . ولا بد للقيد أن ينكسر

هذه القصيدة الخالدة التي تعلم الناس أن الطموح حب الحياة ، وروح الشر يجب أن نبحث عن العناصر التي كانت تغذي جذورها في أدب جبران ، في فكرتها العامة وتشبيهاتها .

ويقول الفروخ معلقا على رأى التليسى "٦" :

(فاذا فرغ التليسي من تحدى الشابي لجبران في أغراضه ، التفت الى الخصائص الفنية فقال : " ان تجويد الفن والسمو به عن الأغراض التافهة ألقاه جبران في نفس الشابى ، " . والصدق الشعور والانفعال الحاد وبغلظة الأداء وقوة الايحاء ، والأسلوب التصويرى الذى ينتزع صوره من مشاهد الطبيعة ، مزايا تفرد بها جبران في أدبنا المعاصر كما يقول التليسى وانتقلت . الى شعر الشابى ، بادمان الشابى مطالعة كتب جبران وعكوفه على تلك الكتب ، صورا وتعابير وأبياتا قائمة بنفسها " . حتى قصيدة النبى المجهول الشابى تتصل بأفكارها

---

(١) الشابى وجبران — ص ٤٩ — ٦٦ محمد خليفه التليسى .
(٢) الديوان ص ١٠٢ — ١٠٥ .
(٣) الديوان ص ١٧٥ — ١٧٨ .
(٤) الشابى وجبران ص ١٣٩ محمد خليفة التليسى .
(٥) الشابى وجبران ص ٥٦ — ٥٨ محمد خليفه التليسى .
(٦) الشابى شاعر الحب والحنان ص ٥٨ — عمر فروخ .

تمردة واتجاهها الأدبى وطريقة الأداء فيها وببعض مقاطعها لأ دب جبران .

ولقد استوحاها الشابى من كلمتين " أى قطعتين " لجبران بعنوان بين ليل وصبا ح ، ليل الكافر ص ١ .

وينسى التليسى أنه كان قد قال (٢) : " وليس يعيب الشابى أن يتتلمذ فى بداية نشأته ى الآخرين ، وانما يعيبه حقا أن يظل عبدا للتقليد ، وتلك صفة ترفع عنها . فما كان الشابى صر طريقه حتى استوى له فى الشعر مذهب قائم على شخصية مستقلة ، تمتاز بمقوماته الخاصة مهجها المدروس ، وقد كان الشابى ثائرا على حصر الشعر فى الدائرة الضيقة التى كان يعيش ها شوقى وحافظ وغيرهما من شعراء الأقطار العربية (٣) ، وكان متأثرا فى ذلك بالأدب مهجرى ، وبنقدات ميخائيل نعيمة التى وجهته الى الاستفادة من أخطاء مدرسة شوقى وحافظ" لقد نسى التليسى ذلك فعاد يقول (٤) : " ويقظة الاحساس ، ذلك المبدأ الذى قدسه شابى وجعله كل شئ فى حياته ، ليس سوى فكرة جبرانية ..... ان الشابى قد تأثر بالأدب مهجرى وتأثر بجبران بنوع خاص والباحثون فى حاجة الى أن يلتفتوا الى أدب جبران أكثر ى أى أديب آخر ، وهم فى غنى عن التخبط والتعسف والتعويل على الظن والتخمين : سلوب الشابى النثرى متأثر بجبران ، وأسلوبه الشعرى متأثر بجبران ، وأفكاره متأثرة بجبران .. لمشابهة بينه وبين جبران أعظم من أن توحيها المصادفة ، أو وقوع الحافر على الحافر ولكنها مشابهة التي تنتجها التلمذة : تلمذة المكفوف على دراسة جبران وأدبه .... مرة أخرى ول : أنه اذا اريد فهم الشابى والمدارس الأدبية التى أثرت فيه وعملت فى أدبه ، فانه يجب ى نلتفت الى جبران بصفة خاصة " .

ولكن القريب من الصواب ، أن نميل الى قول الشاذلى بويحيى فى مجلة الفكر (٥) : " لقد عرف الشابى شعر جبران وشعر المهجر كله ، وأولع به ، كما أولع به جيله ، شك فى أنه أعجب به ، ولعله أراد (الحذو) حذوه ونسج مثله . لكن عبقرية الشابى وقوة خصيته فى شعره ساطعتان لا تتركان المجال للباحث أن يقف عند التأثير الجبرانى ، وألا عدوه كمجرد مرحلة — وهى مجرد مرحلة الى ميدانه الذاتى حيث الشابى هو الشابى ، لا جبران ولا لامرتين " .

أثـــر الأدب المهجـرى بالشـابى :

ومع العلم بأن الشابى قرأ كثيرا من دواوين الشعراء العرب كما هو واضح من شعره ، فانه ن معجبا بشعراء المهجر أمثال جبران خليل جبران ، وميخائيل نعيمه ، وايليا أبو ماضى ،

---

١) الشابى وجبران ص ٦٠ محمد خليفة التليسى .
٢) المرجع السابق ص ١٩ — ٢٠ .
٣) يقصد الشعراء الذين يحافظون على عمود الشعر العربى فى مقابل الشعراء الذين يقلدون الأدب الغربى .
٤) الشابى وجبران ص ٦٤ — ٦٦ محمد خليفه التليسى .
٥) الفكر ديسمبر ١٩٥٩م — ص ٥٠ .

وليس من المستغرب أبدا أن يكون الشابى أشعر من الذين قلدهم فان أبا القاسم محمد كرو يميل فى كتابه الشابى (١) الى أن الشابى كان أشعر من جبران حيث يقول :

" .... غير أن الشابى كان أعمق من جبران ، وأصدق تصويرا ... وهو يمتاز " من أدباء المهجر " بدقة بالغة فى تعبيره ، وبراعة فائقة فى تصويره " .

ولعل الذى ذكره أبو القاسم محمد كرو ، ينطبق على أدباء المهجر الشمالى فى الولايات المتحدة أمثال " جبران ، ونعيمة ، وأبو ماضى " ، أكثر من انطباقه على أدباء المهجر الجنوبى أمثال " الشاعر القروى رشيد سليم الخورى " ، فالشابى شاعرا خير من جبران بلا ريب ولعله فى قصائده المختارة يتقدم أيضا على أبى ماضى ، هذا مع العلم أننا نوازن هنا بين شاعر ما وافت سنه عبلى النضج وبين شعراء استنفذوا نضجهم كله فى أشعارهم .

تأثر الشابى بحال بلده تونس وبما فيه من تعس وفقر :

لم يكن بامكان الشابى الا أن يتأثر بحال تونس فى التعس والفقر والظلم ، ويرى فروخ ن الشابى أنصف بلده فى شعره فلم يكتف بأن يصفه وصف ناقم أو راحم فقط ، بل كان يحث ومه على الرقى ويمنيهم بالنتائج التى يمكن أن يصلوا اليها اذا استيقظوا ونهضوا . غير نه أيضا كان فى بعض شعره السياسى متشائما نافضا كلتا يديه من امكان الاصلاح أو لنهوض . ويرى أيضا أن كثير من آراءه فى هذه الباب ، كانت تقليدا للشعراء الذين طرقوا ثل هذه الموضوعات .

واذا قبلنا ما قاله " أبو القاسم محمد كرو " من أن الشابى قرأ كثيرا للمعرى وابن الفارض ابن الرومى والخيام ..... وجبران وسائر أدباء المهجر ، فاننا لا نعدو الحق معه فى أن رد كثيرا من هذه النقمة الى هذه المطالعات وحدها ، واختلف الدارسون فى موقفهم من لشابى ، من الناحية القومية الوطنية :

فأبو القاسم محمد كرو يجعله : " من المكافحين الأبطال ، بل نموذجا رفيعا منهم وصورة ية شاملة لحياة الشعب التونسى فى هذه المرحلة القلقة التى بهرته — أى الشابى — فيها لحياة الجديدة ، فملأت قلبه بالأشواق والرغبات ، وأيقظت فى نفسه عوامل الطموح الوثاب لكفاح العنيف " . (٢) ولم تكن آلام الشابى وجراحه فى رأى كرو :

" الا آلام الشعب التونسى كله ،وجراح أمته بأسرها ..... ومنذ اللحظة الأولى التى حس الشابى فيها بآلام شعبه ، اندفع الى الصفوف الأولى مناضلا لخير بلاده وتقدمها ،ومكافحا ى سبيل تحريرها واستعادة مجدها " .

ويشارك محسن بن حميده كرو رأيه اذ يقول عن الشابى :

---

١) الشابى — أبو القاسم محمد كرو ص ٢٦ — ٤٧ — ٥٠ — ٥٨ — ٧٠ — ٧٧ .
٢) الشابى — أبو القاسم محمد كرو ص ٢٢ — ٤٣ .

يشارك محسن بن حميده كرّ رأيه اذ يقول عن الشابي انه (الشاعر الذي كان يعيش مأساة شعبه كلها يحاول ان يبعث في شعبه روح الثوره على الموت والايمان الصادق بانتصار الحياة بل حاول من خلال مأساته الخاصة في مأساة شعبه ولم يحاول أن أحداهما عن الاخرى . وربما لم يكن التلميح او الاشاره الى مأساته الخاصة الا مجرد وسيله للتعبير عن المأساة العامة) .

اما الشاذلي بويحي فانه يقتصد في تقديره هذا الموقف السياسي للشابي فيقول عنه انه (شاعر تونسي في فتره من حياتها هي تلك الفتره التي عاشها ، فكان صوت تونس في أنينها ونداتها وفخرها فهو شاعرها بلا منازع) . ولقد شهد الشابي، في أثناء حياته القصيره كما يقول الصادق مازيغ فتره من تاريخ الشعب التونسي كانت المشكله الجوهريه في اثنائها قضية بقاء هذا الشعب أو انقراضه : (أمة بأسرها كانت تتوقع كارثة الفناء وتشاهد بعينها معاول الأبادة تهدد هيكلها ، فكان الشابي ذلك الرائد الذي فتن بالانبعاث الانساني القومي ، وانطلقت من خلال أهازيجه الملهمة أنشودة الحياة الطافرة المتغلبة على فنون المسف وقيود الأسر والارهاق ، فعبّر عن ذلك الوعي الخافق النافق ، وتمثلت في شعره أمتنا وهي في مفترق الطرق ومهب العاصفة متأهبة لخوض المعركة الحاسمة) .

أما فروخ فله رأي آخر يقول فيه :

على أن مراجعة الديوان وكرّ النظر في رسائله ويومياته التي رأت النور وأمكن الاطلاع عليها لا يقران تلك الحملة في رفع الشابي الى مقام المصلح الاجتماعي والمحكم والمناضل السياسي الجريء . ويدعّم رأيه بقوله : كان يوم الاثنين في (١٩٣٠/١/٢٧م) موعدا لمحاضرة يلقيها الشابي في النادي الأدبي في تونس فلم يحضرها حد ، وكانت أبواب النادي نفسها مغلقة ، وسمّى الشابي بذلك فكتب في يومياته :

(. . . لقد أصحت يائسا من المشاريع التونسية ناقما على التونسيين . . . . تؤمل فيهم الآمال الكبار وتعتقد أنك تخاطب روحا متجسدة في فكرة تلتهب ، حتى اذا جاء دور العمل تمزقت تلك البراقع وخمدت النزوات . . . . " وتنظر الى الشباب التونسي فلا تلقى . الا حماسا وعزما ومشاريع . لكن شتان أنك حين تعود الى العمل لاتجد الا عزائم خابية وشبابا هرما يغطّ في سبات الأحلام اللذيذة "١") . (وفي عام ١٩٣٠م . نفسه نشر الشابي قصيدته النبي المجهول "٢" التي يقول فيها : "٣"

أيها الشعب ليتني كنت حطابا . . . با فأهوي على الجذوع بفأسي
أنت روح غبية تكره النو . . . . روتقضي الدهور في ليل تعسي
انني ذاهب الى الغاب يا شعـ . . . بي لأقضي الحياة وحدي بيأس
ثم أنساك ما استطعت فما أنـ . . . . ت بأهل لحسرتي ولكأسي "٤"

وفي هذه الفترة ذاتها ، وبعد وفاة والده في الأغلب ، نظم الشابي قصيدته (أحلام شاعر) قال فيها :

ليت لي أن أعيش في هذه الدنـ . . يا سعيدا بوحدتي وانفرادي
لا أغنّي نفسي بأحلام شعبي . . فهو حيّ يعيش عيش الجماد

وفي عام ١٩٣٢م ، أجرت مجلة ((العالم الأدبي)) استفتاء لاختيار ثلاثة شعراء مقدمين في تونس

---

(١) : الفكر مارس عام ١٩٦٠م ص ٣٠ . (٢) : نشرت في مجلة العالم الأدبي (مع الشابي ص ١٢٠) .
(٣) : الديوان ص ١٠٢ — ١٣٣) . (٤) : الديوان ص ١١٤ .

ان الفائزين فى هنا ثلاثة من غير الشبان فثار الشعراء الشبان على هنا الاستفتاء وعلى شعراء الثلاثة ، وأدلى الشابى دلوه فى الدلاء ، وكتب مقالا عنيفا — وكان يومذاك يصطاف عين دراهم مستشفيا — ونشره فى تشرين الأول " أكتوبر " من عام ١٩٣٢ م (١) قال شابى فى مقاله :

(لقد أجزنا لهذا الرأى العام المأفون أن يتحكم فى مصير السياسة والقوانين ، لان هذين سا فى الحقيقة الا مظاهر لتلك الحماقات الجليلة الخالدة والنزاعات المجنونة الطائشة والميول ضربية المتحولة التى تحويها فكرة الشعب فى أعماقها ، أما الفنون فهى أجل من ذلك وأقدس اذا حكمنا فيها أيضا فكرة الشعب فذلك دليل على أننا أمة ضعيفة التمييز مريضة الادراك شعور . واذا انحط الفن الى خدمة الشعب ، وأصبح آداة يصرفها كيف يشاء ، فقد انقلب نا صبيانيا ساذجا لا قدسية فيه ولا جلال) (٢) .

وقبل أن يموت الشابى بأقل من عشرة أشهر ، كتب رسالة الى صديقه محمد الحليوى " توزر شابية ١٩٣٣/١٢/١٩ م " قال فيها :

" أما ده فينى ، فاذا أردت أن تكون مخلصا للحق والفن والتاريخ ، فاكتب عنه كما يراه الله دى ينقم هو " أى ده فينى " عليه ويجدف به — لا كما تريد هاته الجشرات الآدميه التى نا فى تونس بأن نحسب حسابها فى كل شئ ، بدل أن ندوسها بأقدامنا .

أكتب عنه كما هو غير مبتغ ارضاء لهاته الطائفة الغبية العمياء ..... ان الفنان اذا أصغى الناس وما يقولون ، وطار فى هاته الدنيا بأقدامهم ورآها بأبصارهم ، وأصغى اليها بآذانهم فقد بالفن وخان رسالة الحياة " (٣) .

فلا غرو اذن ، اذا لقى الشابى مناوأة فى بيئته ، ومقاومة من أجل تطرفه ، ثم هاجمته صحافة ، لأن " العاطفة قد أفسدت عليه حياته ، كما أفسدت كثيرا من أحكامه حين أوهمته ليس من طينة الناس" (٤) .

ومع الايقان بأن الشابى كان يريد الخير لبلاده ، ورفعة شعبه ، كما كان يحث مواطنيه التطلع الى الحياة ، والنهوض بالوطن ، ويشدد من عزائمهم لاستئناف الكفاح كلما ثبطت مهم ، وفتت فى أعضادهم المصائب والنكبات واذلهم الأفق ، كما نرى فى كثير من شعره وفى نثره ، فاننا نختار أن نذهب مع مذهب الدكتور محمد فريد غازى فى تعليل ذلك كله .

يرى الدكتور غازى أن لمرض الشابى تأثيرات متنوعة متعددة انعكست على نفسية الشابى وأدبه حيل ، حتى أن عددا من قصائده كانت ملامح صادقة لمرضه ، كما كان الشابى نفسه أيضا أن مرضه لعب دورا هاما جدا فى نبوغه وانتاجه الشعرى .

) نشر فى مجلة الزمان " مع الشابى ص ١٢٦ " والمقال مثبت فى كتاب الحليوى " مع الشابى ص ٤٦ — ٥٩ " وقد ذكرت فى آخره عين دراهم بجانب اسم الشابى . ص ٥٩ .

) مع الشابى ص ٤٧ — ٤٨ .

) الفرد ده فينى كاتب وشاعر فرنسى " ١٧٩٧ — ١٨٩٣ م " .

) الشابى وجبران — محمد خليفه التليسى .

وما دامت الحياة تتكيف تكيفا مستمرا لانفعالات الانسان الباطنية ، التي تجبره عليهـــا انفعالات الخارجية ،فان الشابي قد حاول — وهو مريض — أن يغالب هذه التيارات المعادية راه يرى نفسه متجســدا في بطل ،بفضل عملية لا شعورية كثيرا ما نراها عندالشعراء . . . . . ني لا أذهب " عمر فروخ " الى أن قصيدة ارادة الحياة نفسها ستلزم " تفتشي " تفسـيرا مق مما نذهب اليه في كل مرة .

لا ريب في أننا نرى فيها تصويرا للشعب ، ولكني أرى أن الشابي قد صور وراء هذه الكلمات جبارة ، مطامحه واندفاعاته كرجل مريض (١) .

ان الشابي في قصيدة ارادة الحياة ، يتجسم في شعب بأسره ، ويرى ذاته المريضة تطابـق ات الشعب المريض ، ولكنهما كليهما مندفع نحو الحياة : نحو الوجود الأخصب .

والدكتور غازي يرجو أن يقوم طبيب تونسي بدراسة أوفى لمرض الشابي وبحث أعمق .

انا نحن تأملنا بيئة الشابي العامة في تونس، ثم بيئته الخاصة ، فهو ابن قاض شرعي وخريج جامعة الزيتونية ، عجبنا لامّحاء الأثر الاسلامي في ديوانه ، ثم نزيد تعجبا اذا رأينـا الأثر وثني شديد البروز في شعره .

ان أول ما نلاحظه أن الألفاظ الدينية قد خسرت في شعر الشابي قدسيتها ودلالاتها المألوفة لله والنبي ، والصلاة والجحيم ،أصبحت عند الشابي كلمات عامة كسائر الألفاظ القاموسية الدائرة ي الاستعمال اليومي . من ذلك قوله : لتمس الورى شاء الآله وجودهم ، صانكن الآله مـــن لمة الروح ، وتشدو كما شاء وحي الآله ، فالنور ظل الآله " .

ومثل ذلك قوله : (٢)

أيها الليل ياأبا البؤسوالهـــــو . . ل وياهيكل الزمان الرهيب
فيك تجثو عرائس الأمـل المـــذ . . ب تصلي بصوتها المحبوب

وأكثر ما يقف الشابي ألفاظ الدين ورهبة العبادة والمعبود على المرأة في سياق وثني (٣)

في فؤادي الرحيب . . معبد للجمـــال
شيدته الحيـــاه . . بالرؤى والخيـــال
فتلوت الصـــلاة . . في خشوع الظـلال
وحرقت البخـــور . . وأضـــأت الشموع .

وأشد ايغالا في التحلل من الوحدانية الاسلامية ما نجده في قصيدته " صلوات في هيكـل حب " (٤) قال يخاطب محبوبته ويقيمها مقام الالوهية في القدس والعبادة ، والقدرة والارادة

---

١) الفكر — ديسمبر ١٩٥٩ م — ص ٣٤ .
٢) الديوان ص ٢٥ .
٣) الديوان ص ١٦٠ .
٤) الديوان ص ١٢٢ — ١٢٣ .

ى الشفاعة والزفلى :

أنت قدسى ومعبدى وصباحى . . وربيعى ونشوتى وخلودى
يا ابنه النور ، اننى أنا وحدى . . من رأى فيك روعة المعبود (١)
فدعينى أعيش فى ظلك الفذ . . ب وفى قرب حسنك المشهود
وارحمينى فقد تهدمت فى كو . . ن من اليأس والظلام مشيد
وحرام عليك أن تسحقى آ . . مال نفسى تصبو لعيش رغيد
فالآله العظيم لا يرحم العبد . . اذا كان فى جلال السجود

على أن الشابى ما استطاع أن ينفلت من الدين مرة واحدة : انه ظل يصوم رمضان على الرغم ى مرضه . وكذلك ترك الموت فى قلب الشابى رهبة لم تستطع مظاهر الطبيعة أن تلفته عنها ستيقن جلال الله فهو يوقل : (٢)

ان من أصغى الى صوت المنون وصدى الأجداث
ليس تستهويه ألحان الطيور ،
بين أزهار الربيع الساحرة ،
وابتسامات الحياة الساخرة ،
عن جلال الله !

ان الشابى قد استمق من التراث الدينى قضية القضاء والقدر وحدهما ، وهذا أمر بين سبب ، منى الشابى بمرض لا يرجى منه شفاء ، فلم يستطع الثورة على حاله الطبيعية المرضية ا ثار على حاله النفسية والاجتماعية . انه كان يظن أن كل شئ فى العالم يمكن أن يتبدل ا شاءت الارادة الفردية أو الشعبية أن تبدله ، ولكنه لما اصطدم بحقائق الحياة الطبيعية صف فى قيود المرض ، أدرك أن " هذه الارادة " عاجزة عن تبديل ما قد جرى به الزمن الأول اد يطمئن نفسه بصحة القدر . ان فى الأبيات التالية اذعانا للقضاء والقدر ، ورضا بما جرى القلم الأزلى (٣) .

مالى تعذبنى الحيا . . ة كأننى خلق غريب !
واذا سألت : لم الوجو . . د وكله هم مذيب ؟
قالت : نواميس السما . . ء قضت ومالك من هروب !

واذا كان الشابى يحاول أن يتمرد على نتائج القضاء والقدر ، فانه مقتنع بأن هذه النتائج دها الى أمر أقره القدر نفسه اذ هو يقول فى احدى قصائده (٤) .

سأعيش رغم الداء والأعداء . . كالنسر فوق القمة الشماء
وأقول للقدر الذى لا ينثنى . . عن حرب آمالى بكل بلاء

---

١) النور أحد الالهين فى الديانة المانوية " النور والظلمة " .
٢) الديوان ص ٨٣ .
٣) الديوان ص ١٧٦ .
٤) الديوان ص ٢٦ — ٢٧ .

وبعد هذا الكفاح الظاهر يعود فيستسلم للقدر ، اذ لا يجد بدا من الاستسلام مادام ل شئ يجرى هذا المجرى المكتوب .

والقضاء والقدر لا يكونه عند الشابى فى الخير أبدا ،بل فى الشر دائما اذ يقول (١)

لا تحاول أن تنكر الشجو ، انى ... قد خبرت الحياة خبر أديب
كن كما شاءت السماء كئيبا ... أى شئ يسر نفس الأديب ؟
انما الناس فى الحياة طيور ... قد رماها القضا بواد رهيب ؟
يعصف الهول فى جوانبه السو ... د فيقضى على صدى العندليب

ان استسلام الشابي للقضاء والقدر ،لم يطلع الشابي على سرهما ،ولا حل له لغز الحياة ل القاه في الحيرة والشك ودلا في اليأس،فتراه يقول : (٢)

أرى هيكل الأيام يعلو مشيدا ... ولا بد أن يأتي على رأسه الهدم
فيصبح ما قد شيّد الله للورى ... خرابا كأن الكل في أمسه وهم
لتعس الورى شاء الاله وجودهم ... فكان لهم جهل وكان لهم فهم

ولما أفاق الطبي من النوبة الشديدة التي انتابته عام ١٩٣٠م، نظم قصيدته "الى الله" (٣)فشطح بها شطحة هي الالحاد قال :

خبروني هل للورى من اله ... راحم – مثل زعمهم – أواه !
انني لم أجده في هذه الدنيا ... فهل خلف أفقها من اله ؟

ويدرك الشابي المزلق الخطر الذى وقع قدمه عليه قبل أن يرتد نفسه عن البيت الثاني ،فيقول بعده مباشرة : (٤) :

ما الذى قد أتيت،يا قلبي الها ... كي ،وماذا قد قلته ياشفاهي ؟
يا الهي قد أنطق الهم قلبي ... بالذى كان ،فاغتفر،يا الهي !

واذا كان عمر فروخ قد رأى أن الشابي يتحلل من الدين في بعض الأحيان وأفقد الألفاظ الدينية حيتها ،ولم يظهر أثر لتدينه في شعره كما مر من قبل ،فاننا نجد باحثا آخر،بل باحثة تذهب مذهبا غايرا لفروخ ،اذ لا ترى الدكتوره نعمات أحمد فؤاد – في كتابها شعب وشاعر أثرا لعدم التقيد بالدين ي شعر الشابي وخاصة في قصيدته التي يقول فيها : (٥) .

أنت قدسي ،ومعبدي ،وصباحي ... وربيعي ،ونشوتي وخلودي
يا ابنة النور ،انني أناوحيدي ... من رأى فيك روعة المعبود
وحرام عليك أن تسحقي آما ... ل نفس تصبو لعيش رغيد
فالاله العظيم لا يرحم العبد ... اذا كان في جلال السجود

---

(١) : الديوان ص ٨٣ .
(٢) : الديوان ص ٩٠ – ١١٦) .
(٣) الديوان ص ٩٨ – ١٠١ .
(٤) عمر فروخ – الشابي شاعر الحب والحياه .
(٥) :الديوان – ص ١٢٢ – ١٢٣ .

فهي ترى أن الشابي يرى في الجمال مظهر قدرة الله ويرى في الجمال روعة المعبود ،وترى أن لا دقة ولا تحلل في البيت الأول " أنت قدسي ـــــ معبدي "بل واضح من الرفيف الشعري أنه تعبد لا عبادة حقيقية دينية وأما في البيت الأخير فان المرء لله هنا فيه تعظيم ،فهو يتوسل بالعظيم المتعالي أن يجعل منه مثالا يرجو الحبيب أن يتطلع اليه ويتأثر به .

وتضيف قائلة بأن العمر أغلى وأضيق مما من تبديده في تصيد حرفية لفظ هنا وهناك ـــ وحرام في شرعة الدين وفي شرعة الوطنية وفي شرعة القومية العربية العامة ،أن نشوه أصوات المقاومة في نواحي الوطن العربي ، بأحداث لفظ قصاراه أن يشوش ،ولكن هيهات أن يحول دون نفاذها الى القلوب والى التاريخ ،تاريخ المقاومة الشعبية في افريقيا .

فماذا على الشابي ،حتى يكون موقفه فيما يتعلق بالدين فيما يتعلق في أشكاله المختلفة ،واضحا لا يحتاج الى تعليق الا أنه قال :

ملئ الدهر بالخداع ،فكم قد . ضلل الناس من امام وقس

والباحث لا ترى ان نقد الشاعر للامام والقس في البيت المذكور نقدا للاسلام والمسيحية ل ان الأديان السماوية كلها صفاء وخير ومحبة ،ولكن معتنيقها ا (و بعضهم على الاقل شئ اخر ، وتعترف ان فروخ عاد واعترف بأن الشابي وان كان قد اداز ظهره للدين ،لم يكفر بالله ولم يكن زنديقا ، بل ظل له شئ من الايمان (بالعظيم المجهول) واذا كان الشابي شديد الايمان بالابيات الاتيه :

ان من اصغى الى صوت المنون ـ وصدى الاجداث .
ليس تستهويه الحان الطيور
بين ازهار الربيع الساحره
وابتسامات الحياة الساخره عن جلال الله .

فاننا نراه في المقطوعتين التاليتين قد تحلل من مدلول الالفاظ الدينية تحللا تاما ، ورفع المحبوبه الى مكان الالوهية ، او انزل الله الى درك المحبوب المادي ، فهو كفر او تزندق على الاقل في رأي فروخ عندما قال الشابي :

في فؤادي الرحيب . معبد للجمال
شيدته الحياه . بالرؤى والخيال
فتلوت الصلاه . في خشوع الظلال
وحرقت البخور . واضأت الشموع

وهو اشد ايغالا في التحلل من ذلك في قصيدته المشهورة (صلواته في هيكل الحب) فهو يخاطب محبوبته ويقيمها مقام الالوهية في القدس والعبادة ،وفي القدرة والارادة ،وفي الشفاعة والزلفى اذ يقول :

أنت أنشودة الأناشيد غنا . ك اله الفنا رب القصيد
أنت قدسي ومعبدي وصباحي . وربيعي ونشوتي ،وخلودي
يا ابنة النور انني أناوحيدي . من رأى فيك روعة المعبود

فدعيني أعيش في ظلك العذ . . ب، وفي قرب حسنك المعبود
عيشة الناسك البتول يناجي الـ . . ـرب في نشوة الذهول الشديد
وامنحيني السلام والفرح الـرو . . حي، يا خمرة فجرى المنشود
وارحميني فقد تهدمت في كو . . ن من اليأس والظلام مشيد
فحرام عليك أن تسحقي ا . . مال نفس، تصبو لعيش رغيد
منك ترجو سعادة لم تجدها . . في حياة الورى وسحر الوجود

فالالاه العظيم لا يرجم العبد . . اذا كان في جلال السجود

فالباحثة ترى أن الشاعر لم يخلع على حبيبته القدرة والارادة ، وسائر الصفات الالهيه ، بل ن شعراء الغزل يرددون مثل هذا وأكثر منه ، وان لكل انسان قدرة بل قدرات وارادة ، ولو م يكن له قدرات وارادة فكيف يحاسب ؟ وترى أن لا تشبيه بين قدرة الحبيب كبشر وقدرة الله عالى التى ندين لها بدون حدود . وتستشهد الباحثة على رأيها برسالة سأل فيها الحليوى لشابى رأيه فى بيت قاله :

حاملا كالاله قلبا كبيرا . . فيه ما في الوجود لن أكون

فجاءه جواب الشابى فى هذه السطور : (١)

" ان الفنان ياصديقى ، لا ينبغى أن يصغى لغير ذلك الصوت القوى العميق الداوى فى أعماق لبه ، أما اذا أصغى الى الناس وما يقولون ، وسار فى هاته الدنيا بأقدامهم ، ورآها بأبصارهم أصغى اليها بآذانهم ، فقد كفر بالفن ، وخان رسالة الحياة .

ولو شئت أن أسوق الأبيات التى لى ، على غرار بيتك هنا ، فى التشبه بالاله والآلهه لأكثرت ، خرج بى القلم عن غايتى ، ولكنك سترى ذلك فى الديوان ان شاء الله : وانى لأعمق ايمانا بالله ن كل أحد حينما أعبر بهاته التعابير الكافرة ، فى نظر اولئك الناس ، فالالوهية وما تعرف منها ى رمز للمثل العليا ، التى نصبوا اليها بأرواحنا ونشخص اليها بأبصارنا فى هاته الحياة لذلك فاذا أردنا أن نعبر عن معنى نحس له بجلال المثل الأعلى وسموه فانما سبيلنا فى لك أن نفرغ عليه رداء الالوهية التى هى أسمى ما تتصوره الانسانية من جمال المثل الأعلى وجلاله"

فكأن فروخ لم يطلع على هذه الرسالة ، والتى توضح رأى الشابى فى الألفاظ التى خرجت حرفية فظها عن معناها ، والا لما اتهم الشابى بالتحلل من الدين .

والحياة والموت كلاهما جنى على الشابى ، فلا الحياة مدت له من أسبابها ، ولا الموت تباطأ أمهله ، حتى يقضى وطرا ..... أو لعلهما أحسن اليه فلولا أن ألهبته الحياة بأشواقها وخزته بأشواقها ، ولولا أن نازله الموت مرتين ظافرا من المعركتين بأبيه وحبيبه ، ثم ظل يطارده فى الشعور والخيال ..... لولا هذا كله فيما يبدو ، لما عزف نايه ، وبكى وتره ، ونظم ديوانه هذه الأنغام التى تعيش فى جوها وصداها الى يومنا هذا (٢)

---

(١) مجلة الفكر عدد ١ أكتوبر عام ١٩٥٦ م ص ١٠ — ١١ — ١٢ .
(٢) شعب وشاعر — د . نعمات أحمد فؤاد .

أثـر مدرسة أبوللو على الشـــابى :

قبل الحديث عن أثر مدرسة أبوللو على الشابى لابد من لمحة موجزة عن مؤسس المدرسة واتجاهاته الأدبية .

أحمـــد ذكى أبو شـادى " ١٨٩٢ ـ ١٩٥٥م "

أقفل عينيه فى عام ١٩٥٥م بعد أن فتح عيونا كثيرة كما يقول " مصطفى عبداللطيـف السحرتى فى كتابه شعراء مجددون " .

ذلكم هو الدكتور أحمد ذكى أبو شادى ، الذى خلف تراثا فنيا قيما ، وتراثا انسانيا من الخير الشرف والتضحية والاباء وانكار الذات .

هذا الفنان الموهوب ، والرجل الانسانى الذى توحد الفن بحياته وشخصه ، فكان كـلا لا يتجزأ .

فلقد جرى الفن فى دمه ولحمه وهو فى سمة الصبا ، ورف بجوانحه الاحساس الفـنى فى البكور ، وذلك راجع الى البيئة الأدبية النابغة التى تربى فى حجرها ، فلقد تأثر بشاعرية أبيه الكلاسيكية وفطاحته ، وتأثر بأسلوب أمه العاطفى وطيبتها ، كما تأثر بأسلوب خاله مصطفى نجيب ووطنيته .

وارتوى الفنان الصغير من ندوات أبيه التى كان يعقدها أسبوعيا فى قصره بالقبـه ، والـتى كان يؤمها كبار أدباء مصـر ، وعلى رأسهم خليل مطران الذى تأثر أبو شادى بفنه وتجديده ، كما تأثر بمثاله الخلقى الكريم ،وفى ذلك يقول أبو شادى فى ديوانه الأول ، " أنداء الفجر " الذى أخرجه فى عام ١٩١٠م .

أدبى يدين اليـــه ∴ بل قلبى وغاية مطمعى
وقوام تفكيرى الجـــديد ∴ ووثبتى وتدفقـــى

فى هذا الديوان البكر الذى أخرجه فى سن السابعة عشرة ، يتمثل لنا نبوغ الفنان الباكر ونلمس الحساسية الفنية ، تتألق من ومضات التجديد والطلاقة التعبيرية فى بعض قصائده الغزلية والوطنية والوصفية ، فاذا تصفحنا قصيدته " باقـة أنغام " التى يصف بها حبيبته الصغيرة وهى توقع على البيان نراه يصف الألحان أوصافا غير مألوفة فيصف اللحن باللون المضئ ، ويصف لنا لحنا آخر بالعطر ، ويصف الألحان مجتمعة بباقة الزهور فهو يقول :

أصغى الى هذه الألحان زاهيـة ∴ كأنها نخب الأزهار للعين
فكل لحن له لون يضئ بـــــه ∴ وجمعها باقة من زهرك الفنى
وكل لحن له عطر يفوح بـــــه ∴ وان تخيله غيرى من الظـن
وأنت كونى وكونى فى حقيقتـــه ∴ جم المعانى التى غابت عن الكون .

هذه الجرأة الأدبية والاتجاه الى المفارقات الوصفية ، وهذا التركيز فى المعانى ، تكشـف عن بذرة فنية أصيلة توشك أن تخرج الى النور فى ازدهار واثمـار .

وقد زكت البذرة فى البيئة الصغيرة ، وارتوت من ثقافته المصرية والانجليزية المبكرة ، واتقـدت من حب عذرى وليد ، وترعرعت فى جو من الحرية ، وتغذت من ممارسة الموسيقى والتصوير فى المكـور

وكان تشوقه للقراءة والتزود من كتب الأدب العربى من العوامل التى دعمت فنه وأدبه ، وتجلت آثارها فى كتبه النثرية ، " مسرح الأدب " " وأضواء الحياة " كانت جوهرا نفيسا فى صلب صنائعه الفنية ، فما خلا شعره من حقيقة علمية أو سيكولوجية أو واقعية .

ولا قوام لفن بدون علم وثقافة ، وحبه العذرى لاحدى قريباته ، كان أول حوافز ! شاعريته ثم سار ينبوعا ثرا من ينابيع غزله فى شبابه وكهولته وشيخوخته ، فهو فى الينوعة يترنم بهذا الحب فى مثل قصيدته " عبادات " فيقول :

مالعينى كلما ألقاك بالفرحة تدمع .

وتستعر فى الكهولة شعلة الحب فى قلبه فيقول :

ربع قرن مضى وهيهات تمضى ... شعلة الحب عن وثوب ووميض
لم أزل ذلك الفتى فى جنون ... وفؤادى بنبضه أى نبض
ذكريات الهوى وأشباحه النشوى ... وى أمامى فى كل صحو وغمض

فهو فى الشيخوخة تندلع بقلبه الشعلة فى قصيدته " قلب لا يشيب "

عوذت قلبى ياحبيبى ... من أن يكدر بالمشيب
ذنبى لديك تلهفى ... هل ذاك ذنب ياحبيبى
تجرى السنون ولم تذل ... طفلا تنزه عن مشيب

أما ميله الى التصوير ، فقد سرى الى قلبه فى الينوعة ، وتجلى فى شعره التصويرى الذى لا يجاريه فيه شاعر ، فلم يخلو ديوان من دواوينه من بضع صور لرسامين عالميين أو مصريين عبر أبو شادى عن مشاهدها وحلل معانيها ، وكشف عن أسرارها فى دقة وقوة ملاحظة منقطعة النظير ، وقد انتهى به هذا الميل ، الى التصوير بالريشة ، فرسم فى نيويورك لوحات زيتية رائعة ، وأقام معرضا للرحالة بنيويورك عام ١٩٥٢ م أعجب به الرسامون ، وأعجبوا بفنه التصويرى القوى الجرئ وأشادوا بموضوعاته المنوعة المذهب بين واقعية ومثالية ورمزية .

وقد وقعنا على بعض الصور مصغرة لهذه اللوحات ، ومن بين ما افتتنا به لوحة " القلب الكسير " وهى لوحة واقعية مثالية " تحمل رسالة " :. رسم الفنان قطاعا من حديقة حيوان فى الربيع الأشجار فيها مزدهرة والسنجاب الفرح يتناول بندقا من يد سيدة ، والسيدة مع طفليها فى سعادة والطفلان يلهوان بمناطيد ملونة ، وفى خلفية اللوحة أسد حبيس بين القضبان ، ملك الغابة بمعانى من الأسر ، والسنجاب فى فرح ، والأطفال فى سعادة ، فيا لعجائب الدنيا ومفارقاتها المؤسية!

ولقد كان من حسن حظ الفنان أن يعيش فى ربوع انجلترا وفى حضن ريفها الجميل عشر سنين ونيف اكتملت فيها عناصر فنه وازدهرت : توسعت آفاقه الفكرية وربت ثقافته ، وتنوعت تجاربه ، وعمقت تأملاته وقويت ملاحظته ، ودربت بدراساته الطبية وبخاصة أبحاثه المجهرية ، حتى أصبحت عينه أشبه بالمجهر ترى العجائب والدقائق فى الأشياء والأحداث وطبائع الناس.

ولما نال أجازته الطبية عام ١٩١٥ م وشهادتى شرف من جامعة لندن عام ١٩١٦ — ١٩١٧م ووجد العمل فى مهنة الطب ممتنعا عليه فى انجلترا تحول الى النحالة . وكان رائدا من روادها فى انجلترا ، وقد تعلم من النحالة جدها واتقانها وتعاونها .

عاد أبو شادي الى مصر عام ١٩٢٢م .لمرض والده الخطير ولأ ذاه من الروماتزم المفصلي ،وعاد الفنان لانسان ليفتح عين بيئته التي خاط الأذى أجفانها ،يفتحها على نهضة ابتداعية سليمة مشرقة ، ليبشر بألوهة الجمال والاندماج في الطبيعة ،وحركة الفكر ،ومجاهدة التقاليد الآفنة المفنة ،وعاد شدهها بمعانيه الجديدة الطريفة وتجدداته المغنية ،التي لم يعرفها جيل من الأدباء الكبار ،من هذه تجديدات وصوغ الشيء المادي بالمعنوي ، ووسم المادي بسمة من سمات الانسان كما جاء في قصيدته لفنان" التي يخاطب فيها حبيبته في موسيقة آسرة ،وطلاقة بيانية يقول : (١)

أطلي يا حياة السرو . . ح في عيني تحيني
شرابي منك أقوى . . وقوتي أن تناجيني
أطلي وانظري شغفي . . ترى معنى عباداتي
عبادات خصصت بها . . وفي عيني مراآتي

عاد ينفح البيئة بترجمة الهمسات ،والخوالج النفسية بما لاعهد لها به ،كما نجد ذلك في مثل قصيدته" أحلام الظلام" التي يترجم فيها عن نفسه وعواطفه عند الوداع والتي يقول فيها : (٢)

وقفة كوقفة الدنيا اذا ما . . أطاح بها السلام الى الحمام
وما هي غير لحظة مستمز . . ولكن قلبه دام ودام
ويجري النور في لون عجيب . . على وجناتنا جري الدام
فنسكر في صحون اليأ سرحتى . . كأن اليأس من سكر الغمام
وأشرب حسرتي الكبرى دواء . . وان كان الدواء من الغرام

ولم يقف أبو شادي عند التجديد الفني ،بل شده البيئة الجامدة بأرائه المتحررة الجريئة ،شدهها شعره الغزلي الذي قد سرفيه جمال المرأة ،بل عد الجمال من عناصر الألوهية أو رموزها ،شدهها بشعره صوفي الذي اعتمد على العلم لا على التوهمات والتخيلات والشطحات ،فتمثل وحدة الوجود وحدة قائمة ى المعرفة ،شدهها بشعره الميثولوجيا ،أو الأساطير الذي اختفى به اختفاء شديدا ،لاستقطار حكمة منها ،وشدهها بشعره العلمي ،الذي خصص له ديوانا أسماه "الكائن الثاني" (٣) ،ونثر منه نرات في دواوينه الأخرى ،شدهها بتفكيره الحر ،وقوله الحق ،حتى كادت كلمة الحق لا تدع له صديقا .

فبينما كان أدباؤنا كبار الأسنان يتمسحون بأعتاب الملك فؤاد ويسبحون بحمده ،وجه اليه هذا وظف المتحرر قصيدة في أحد أعياده ،يدعوه فيها الى رعاية الشعب، والنظر الى بؤس الفلاح ، قد كتبها في شهر ارتجال ،وما جاء فيها قوله :

الشعب أن بما يعاني ريفه . . وكأنه قفر بلا سكان
والمابثون الصائحون تنعموا . . فكأن هذا الريف ليس بهاني
والزارعون المحسنون تمرغوا . . في الترب كالموتى بلا أكفان

ختتمها بقوله :

فاقبل رجائي فهو أنبل غاية . . عن كل مدح لا يشيب رجائي
واسمع صوت الشعب فهو شاعر . . يأبى رياء المادحين اباء

(١) : ديوان أطياف الربيع الفنان ص٣٢ . (٢) : ديوان فوق العباب ص٥٨
(٣) : أخرجه في يناير سنة ١٩٣٥م .

وهكذا ظل أبو شادى نصيرا للحقيقة ،بل مجنونا بحبها ،وظل وفيا لمبادئه الرفيعة لايتخلى عنها فكم خاصم وخاصم أدباء لانحرافهم عن الجادة ولكنه كان منصفا أمينا عادلا في وزن أدبهم وصفاتهم الفنية ،والنزاهة الفكرية أعلى سمات الفنان . وكم حمل على زعماء كانت تربطه بهم أواصر أسرية قوية لانحرافهم عن أهداف الشعب ،لأن المبدأ عنده أرفع من كل أسرة ومن كل قرابة ، وكم ذا لقي الجحود والعقوق والغدر من أناس عاندهم أدبيا وماليا ،ولكنه كان في النهاية يصفح عنهم وينسى اساءاتهم ،لأن الذى يعرف الكل يغفر للكل كما يقول المثل الغربي ،أو كما يقول في قصيدته "محال" (١) .

محال أن تحاول هدم حبي .·. وان لم ألق بين الناس حبا
صفحت عن الخصوم وان أساءوا وكادوا واعتبرت الكل صحبا
لهم أسفي واشفاقي وقلبي .·. وان لم يعرفوا أسفا وقلبا
ومهما خلتني أشكو بأسي .·. ذنوب الناس خلت اليأس ذنبا
سيطوينا الزمان وكل ذنب .·. سيمحوه الزمان لمن تأبى

ومن هذا نشهد كيف اقترن فن الرجل بانسانيته وكيف قويت ملاحظته ،ودق تحليله ،وتدعم أدبه بثقافته ،وكيف علا أدبه بأمانته ونزاهته الفكرية وكيف تقوت أصالته وحرية فكره وغرامه بالحقيقة ،وسمات الفنان الحقيقي :

الحاسة الفنية ،ودقة الملاحظة ،والحياد الفكرى ،امتزجت بسمات الرجل: انسانيته وتضحيته وحيته ،ورقته ،وثقافته ،فأصبح الفنان والرجل كملا لايتجزأ . (٢) .

هذا هو أبو شادى مؤسس مدرسة أبوللو ورئيسها ،والذى كان له الفضل الأكبر في نشر شعر الشابي .

صلة الشابي بأبوللو ورأى رئيسها ومؤسسها فيه :

أبو القاسم الشابي الشاعر التونسي المشهور المتوفى في (٩ أكتوبر سنة ١٩٣٤م) هو أحد الشعراء الذين عنيت "مجلة أبوللو" قبل سواها بابراز فنه ،ويقول أبو شادي من حديث له بصوت أمريكا عن الشابي :

"ان ما نؤثره هو انسانيات هذا الشاعر المحلق ،الذى لم تعقه أحلامه عن النزول الى ميدان المجتمع والسير في مواكب البشرية ،عازفا مشجعا هاديا . . . . .ويعجب أبو شادى بروائع الشاعر اعجابا كبيرا . . . وليس هذا بعجيب من أبي شادى الذى يقدر المواهب الأدبية حق قدرها ، دون تأثر في حكمه عليها بضجيج أوعصبية أو جاه ،ولقد فسح أبو شادى صدر مجلته للشابي وهو حي فلما مات الشابي نشر عنه الكثير من الدراسات والبحوث (٣) ،ولأبي شادى قصيدة يرثيه بها فيقول فيها :

أبا القاسم الشابي ،أبا القاسم الشابي . مكانك في الأخرى مكانة أرباب

---

(١) أطياف الربيع ص ١٣٢ .
(٢) : شعراء مجددون ـ مصطفى عبد اللطيف السحرتي ـ ص ٥٥ .
(٣) : راجع مجلة أبوللو ـ عدد ديسمبر سنة ١٩٣٤م .

أبي الخالق الفنان جلّت فنونه . . لمثلك الا الخلد في دار أحباب
وما المبدع الفنان الا أشعّة . . من الله لم ترجع كرجعة غيّاب
سقتنا رحيق الفن صرفا وودعت . . فأين مذاب النور يملأ أكوابي
كأن أغاني الكون قد غالها البِلى . . فطاحت كما طاحت أناشيد ألباب
ألست الذي ناجى الطبيعة كلها . وترجمها سحرا سريا لأحباب
ألست الذي غنى الأنوثة كلما . . يعبر عن أسمى الصلاة بمحراب
ألست الذي قد عاش في الناس سلخطا
وفي الفن مسرورا وجيدا بأوصاب
رحلت صديقي بعدما جئت موصيا
بشعرك فأرحل غير خاش وهيّاب
أنا حارس الفن الذي أنت ربه . . وهيهات خذلاني مواهب وهّاب

ويقول أبو شادي عن الشابي :

" ان لأبي القاسم روائع كثيرة ظفرت "جمعية أبوللو" وجلّتها التي عنيت قبل سواها بابراز فنّه ـ ظفرت بالقسط الأوفر منها ، وانه لتصعب المفاضلة بين قصائده هذه ، فجميعها يتسم بالجمال الفني الأنيق بكامل عناصره . أنؤثر قصيدته "صلوات في هيكل الحبّ" (١) التي يقول فيها :

عذبة أنت كالطفولة كالأحلام كاللحن كالصباح الجديد
كالسماء الضحوكة ، كالليلة القمراء ، كالوردة كابتسام الوليد
يالها من وداعة وجمال ، وشباب منعّم أملود
يالها من طهارة تبعث التقديس في مهجة الشقيّ العنيد

أم نؤثر قصيدته الفلسفية الواقعية "السعادة" (٢) التي يقول منها :

ترجو السعادة يا قلبي ولو وجدت . في الكون لم يشتمل حزن ولا ألم
ولا استحالت حياة الناس أجمعها . وزلزلت هامة الأكوان والقمم
خذ الحياة كما جاءتك مبتسما . في كفها الغار أو في كفها العدم
وارقد على الورد والأشواك ممتهدا . غنّت لك الطير أو غنّت لك الرجم

أم تؤثر قصيدته "الأشواك التائهة" (٣) وقد جمعت بين ألوان من اليأس واحتقار الوجود اذ يقول :

يا صميم الحياة كم أنا في الدنيا غريب ! أشقى بغربة نفسي
بين قوم لا يفهمون أناشيد فؤادي ، ولا معاني بؤسي
في وجود مكبل بقيود تائهة في ظلام شك ونحس
فاحتضني ، وضمّني لك بالماضي فهذا الوجود علة يأسي

أم نؤثر قصيدته الجنة الضائعة "والتي يذكر فيها عهد الطفولة ، (٤) ويعرضه عرضا فنيا بديعا بصوره الفاتنة المنوعة ثم يختمها بهذه الحرقة :

---

(١) مجلة أبوللو ـ المجلد الأول ، أبريل سنة ١٩٣٣م ص ٨٤٨ .
(٢) مجلة أبوللو ـ المجلد الأول ـ أبريل سنة ١٩٣٣م ص ٨٦٨ .
(٣) مجلة ابوللو ـ المجلد الأول ـ مايو سنة ١٩٣٣م ص ١٠٢٤ .
(٤) مجلة أبوللو ـ المجلد الأول مايو سنة ١٩٣٣م ص ١٠١٢

قد كنت في زمـــن الطفولة والســـذاجـــة والطهور
أهيا كما تحيا البـــــلابل، والجـــداول، والزهور
لا نحفـــل بـ الدنيا تدور بأهلها أو لا تـدور
واليوم أحيا مرهق الأعصـــابـ مشبوب الشعور
متأجج الاحســاس، أحفل بالعظيم، وبالحقـــير
تمشي على قلبـــي الحيـــاة، ويزحف القوم الكبير
هذا مصيري، يابني الدنيـــا، فما أشقى المصير!

أم نؤثر قصيدته "الأبد الصغير" (١)، المفعمة بالتأملات الفلسفية الوجدانية، وبها يخاطب دنيا في قلبه:

ياقلب كم فيك من دنيا محجبـــة .. كأنها حين يبدو فجرها ارم
ياقلبكم فيك من كون قد اتقـدت . فيه الشعور عاشتغوقه الأ مم
يا قلب كم فيك من أفق تنمّقـــه . كواكب تتجلى، ثم تنعـدم
ياقلبكم فيك من قبر، قد انطفأت . فيه الحياة، وضجت تحته الرحم
ياقلب! كم فيك من غاب ومن جبل . تدرى به الريح أم تسمّو به القمم
يا قلب! كم فيك من كهف قد انبجســـت
منه الجداول تجـــرى مـا لها الجم
تمشي، فتحمل غصنا مزهرا نضرا . أو وردة لم تشوه حسنها قدم
أو نحلة جرها التيار مندفعـــا . الى البحار تغني فوقها الديم
أو طائرا ســاحرا ميتا قد انفجرت . في مقلتيه جراح جنّة ودم
ياقلب! إنك كون مدهـش عجـب . ان تسأل الناس عن آفاقه يجموا
كأنك الأبد المجهول قد عجـزت . عنك النهى، واكفهرّت حولك الظلم

أم تؤثر قصيدته المتشككة الحائرة "في ظل وادي الموت" التي يتشوق في ختامها الى تجربة العـدم:

ثم ماذا؟ هذا أنا صرت في الدنيا بعيدا عن لهوها وغنـاهـــا
في ظلام الفناء أرقب أيامي، ولا أستطيع حتـــى بكاهـــا
وزهور الحياة تهوى بصمت محزن مضجر علـــى قديـــمـــا
جفّ ســحر الحياة ياقلبي الباكي فهيـا نجرب المـــوت، هيّـا!!

أم تؤثر قصيدته "الحانة السكرى" (٢) ـ العذبة العبقة التي يقول في ختامها:

أيها الدهر! أيها الزمن الجارى . الى غير وجهة وقرار!
أيها الكون ايها الفلك الدوا ر .. بالفجر بالدجى والنهار!

---

(١): مجلة أبوللو ـ المجلد الأول ـ يونيو سنة ١٩٣٣م ص ١١٤٦.
(٢): مجلة أبوللو ـ المجلد الثاني ـ يناير سنة ١٩٣٤م ص ٣٩٠.

أيها الموت أيها القدر الأعمى ! . . . قفوا حيث أنتم أو فسيروا
ودعونا هنا : تغني لنا الأحلام والحب والوجود الكبير
واذا ما أتيتموا فاحملونا ولهيب الغرام في شفتينا
وزهور الحياة تعبق بالعطر ، وبالسحر ، والصبا في يدينا !!

أم تؤثر قصيدته الواقعية المريرة " الناس " (١) التي تشجى منها زفرته :

ماقد سر المثل الأعلى وجمله . . . في أعين الناس الا أنه حلم
ولو مشى فيهموا حبا لحطمه . . . قوم ، وقالوا بخبث انه صنم
لا يعبد الناس الا كل منعدم . . . ممنع ، ولمن حاباهم العدم
حتى العباقرة الأفنان حبهم . . . يلقى الشقاء ، وتلقى مجدها الرمم
الناس لا ينحنون الحي بينهمو . . . حتى انا ماتوارى عنهم نغموا
الويل للناس من أهوائهم أبدا . . . يمشي الزمان وريح الشر تحتدم !

أم تؤثر قصيدته الرائعة " من أغاني الرعاة " (٢) التي جاءت من وحي استشفائه " بعين دراهم " في الشمال التونسي ، وكل بيت من أبياتها صورة شعرية تتألقة بجمال الطبيعة التي كانت تحتضنه وترعاه في مرضه بين جبال وأودية وغابات ، وفيها يخاطب شياهه وخرافه بأعذب الألحان ؟

أم تؤثر قصيدته الشامخة " نشيد الجبار " أو هكذا غنى بروميثوس " التي يرد فيها على حساده الشانئين ويقول عن نفسه بعد مماته :

فأنا السعيد بأنني متحول . . . عن عالم الآثام والبغضاء
لأذوب في فجر الجمال السرمدي
وأرتوي من منهل الأضواء !

قصيدته

أم تؤثر التأملية العاطفية الرواية الغريبة " وأبياتها الحالمة بين العواصف " وكلها آيات من الرقة والحساسية والرومانطيقية الجميلة الساحرة . (٣)

انما تؤثره هو انسانيات هذا الشاعر المحلق الذي لم تعقه أحلامه عن النزول الى ميدان المجتمع ، والسير في موكب البشرية ، عازفا مشجعا هاديا مهيبا بالصاغرين اذ يقول :

اذا الشعب يوما أراد الحياة . . . فلابد أن يستجيب القدر
ولابد لليل ان ينجلي . . . ولابد للقيد أن ينكسر
اذا ما طمحت الى غاية . . . ركبت المنى ونسيت الحذر
ولم تتجنب وعور الشعاب . . . ولا تبعة اللهب المستعر
ومن لم يحب صعود الجبال . . . يعش ابد الدهر بين الحفر !

ولم تزل قصائده الموجة الى الشعب ترانيم سماوية خالدة ، وان سكن جثمانه القبر ! ، ومنذ نيف وأربعين سنة كان شاعر شاب مفجوع في حبه ، يتسمع الى أنغام تختفي وتظهر على التناوب

---

(١) مجلة أبوللو — المجلد الثاني — فبراير عام ١٩٣٤ م ص ٤٨١ .
(٢) مجلة أبوللو — المجلد الثاني — مارس عام ١٩٣٤ م ص ٦٠٨ .
(٣) مجلة أبوللو — المجلد الثاني — فبراير عام ١٩٣٤ م ص ٤٨١ .

فى الظلام ،ثم عرف بعد ذلك انها موسيقى الحرس لحبيبته الهاجرة ، فنظم قصيدته المشهورة " عرس المأتم " التى تأثر بأسلوبها الأصيل شعراء كثيرون ، فى مقدمتهم الشاعر التونسى النابغة أبو القاسم الشابى ، وما كان ذلك الشاب الا الشاعر المصرى " المغترب الآن فى أمريكا " أحمد زكى أبو شادى " .

وقد جاء فى مطلع تلك القصيدة المؤثرة والتى نشرها الأستاذ حسن صالح الجداوى فى ديوان " زينب " :

عذبة أنت ، فى الخفاء وفى الجهر ، وفى الهجر يا أغانى الظلام
بلغى العاشق الأمين على الصبر شقاء لقلبه المستهام
وارقئى أدمعى ، فحسبى عزاء أن يُسَر الحبيب من ايلامى
ويزف الجمال ، جنةَ قلبى ، ضاحكا من فؤادى المترامى

أما رأى الشابى فى صديقه الحميم أحمد زكى أبو شادى وفى شعره فيتلخص فى فيما جاء فى مقدمة ديوان الشابى " الينبوع " الصادر عام ١٩٣٤ م ، قال طيب الله ثراه بعد مقدمة عن " الأدب فى العصر الحاضر " وبعد مقارنة بين الأدبين القديم والحديث :

" ... أبو شادى كشاعر من شعراء هاته المدرسة المجددة ، له مذهبه ، وأسلوبه ، وروحه الخاصة الممتازة .

أما مذهبه الشعرى — فيما أرى ، فهو أن يحرص الشاعر كل الحرص عن التعبير عما يدوى فى أعماق نفسه من أصداء الحياة ، وما يخالجها من وحى هذا الوجود ، وعلى أن لا يضيع من ذلك شئ ما استطاع اليه سبيلا .

وأما أسلوبه فهو يمتاز بجمال الطبع والسهولة والبساطة الحرة الواضحة التى لا تحب التكلف ولا تسعى اليه ، وهو يرسله ارسالا لا يتأنق فيه ولا يتعمل ، ويحرص على ما يحرص عليه بعض الشعراء ، من ظهور آثارهم بمظهر المترف الأنيق ، ولكنه يحرص كل الحرص على أن يكون صادقا دقيقا فى التعبير عن ذات نفسه ، ولو أدى به ذلك الى الغموض أحيانا .

وبعد أن رد على النقاد والمغرضين المتجنين قال الشابى :

" ..... وأما الروح التى يمتاز بها شعر أبى شادى فهى روحانية عميقة ، صوفية بعيدة المدى واحساس مرهف مشبوب ، وخيال متنقل سريع ، وبهذه الروح المركبة نظر أبو شادى الى هذا الوجود " . (١)

×·×

---

(١) رائد الشعر الحديث — أحمد زكى أبو شادى — ص ٧٠ — ٧٥ .

((الباب الثالث))

(٥١)

صدى الشابى فى الشرق :

ليس من شك فى أن هذه المكانه العظيمة التى يتمتع بها الشابى اليوم ، انما يعود الفضل فيها ، أولا وقبل كل شئ ، الى الشابى ، والشابى وحده ، فلولا عبقريته ، ولولا مافى أدبه من خصائص تثير الاهتمام وتستلفت الاعجاب ، لما كان له شئ مما هو عليه اليوم من المكانة السامية فى نفوس جيلنا المعاصر ، سواء فى المشرق أو فى المغرب .

ولكن هل كان أدب الشابى يستطيع منفردا أن يصل بصاحبه الى هذه المكانة التى يحتلها اليوم ؟ .

لا مراء فى أنه كان من المحتمل جدا أن لا يستطيع أدب الشابى ذلك ، بالنظر الى الظروف المعاكسة التى حفت به وبصاحبه ، والتى كان من أهمها : رجعية التفكير والأدب فى بيئته ، وموت الشابى المبكر ، وضعف الصلات الأدبية والثقافية بين مشرق العرب وغربهم .

غير أن حادثا واحدا كان سببا رمباشرا ورئيسيا فى قلب تلك الظروف المعاكسة ، الى ظروف مساعدة ، أسهمت الى أبعد حد فى اعلاء شأن الشابى ، وذيوع شعره واحلاله مكانة سامقة بين شعراء العرب المعاصرين .

أما هذا الحادث فهو اتصال الشابى بمجلة " أبوللّو " فى مصر ، ووثوق الصلة بينه وبين صاحبها ، الفقيد المرحوم الدكتور أحمد زكى أبو شادى . فعن طريق مجلة أبوللو ، وبما أسداه أبو شادى من رعاية واهتمام بالشابى وشعره ، واستطاع أدب الشابى أن يشق طريقه ، وأن يفرض وجوده بين عشرات ، بل مئات الشعراء العرب فى جميع الأقطار العربية .

أما قصة هذا الاتصال الأدبى الخصب ، وذلك الانتشار العجيب فهى تبدأ هكذا :

فى عام ١٩٢٩ م ، ألقى الشابى فى النادى الأدبى بتونس محاضرة عن " الخيال الشعرى عند العرب " ثم طبعها ، ونشرها فى كتاب صغير بنفس السنه . وبعد حوالى أربع سنوات من ظهور الكتاب بتونس ، وصلت نسخ منه الى بعض الأدباء فى القاهرة ، فكان من صداها الأدبى مقال كتبه الشاعر الناقد الأستاذ مختار الوكيل ، ونشره فى العدد السابع من مجلة " أبوللّو " ـ مارس " آذار عام ١٩٣٣م " (١) .

ومجلة أبوللّو أنشأها الدكتور أبو شادى لتكون منبرا للشعر ، وميدانا حرا للبحث والنقد فى كل ما يتصل بالأدب عامة والشعر بوجه خاص .

ووصل نقد الوكيل الى تونس ، وقرأه الشابى ، فلم يحتمله ولم يصبر عليه ، فكتب من عينه ردا (٢) وأرسله الى مجلة " أبوللو " ، وأرفق الرد برسالة أدبية فائقة ، وبقصيدتين من روائع شعره هما : " صلوات فى هيكل الحب " و " السعادة " .

وكأن الشابى أراد أن يثبت وجوده وشاعريته دفعة واحدة . وكانت بالفعل مفاجأة رائعة

---

(١) المقال منشور فى الباب الرابع من كتاب آثار الشابى وصداه فى الشرق ـ أبو القاسم محمد كرّو .

(٢) المقال منشور فى الباب الخامس من كتاب آثار الشابى وصداه فى الشرق ـ أبو القاسم محمد كرّو .

لصاحب "أبوللو" ومحررها الدكتور أحمد أبو شادي ، فما كان يعتقد أن في تونس شاعرا ممتازا كالشابي ، بل ما كان يظن أن في بلاد العرب جميعا شاعرا في روعة الشابي وعبقريته الشعرية الخارقة لهذا ما كاد ينتهي من الرسالة ومن قراءة " صلوات في هيكل الحب" حتى صاح :

هذا هو الشعر نشدناه ونشده من قبلنا ، فضلوا الطريق وضللنا ، حتى ظفر به الشابي دوننا .

وكان أبو شادي يرقص طربا ويهتز حبورا وهو ينشد :

عذبة أنت كالطفولة ، كالأحلام ، كاللحن ، كالصباح الجديد
كالسماء الضحوك ، كالليلة القمراء ، كالورد ، كابتسام الوليد
يالها من طهارة تبعث التقديس في مهجة الشقي العنيد
يالها رقة يكاد يرف الورد منها في الصخرة الجلمود
أي شيء تراك ؟ هل أنت فينوس تهادت بين الورى من جديد
لتعيد الشباب والفرح المسلول للعالم التعيس المنيد
أم ملاك الفردوس جاء الى الأرض ليحيي روح السلام العهيد
أنت ! ما أنت ؟ أنت رسم جميل عبقري من فن هذا الوجود !
فيك ما فيه من غموض وعمق وجمال مقدس معهود !!

وقد نشر أبو شادي القصيدتين في العدد الموالي ثم نشر له قصيدتين أخريين في عدد تابع ثم نشر رد الشابي على الوكيل مع قصيدتين جديدتين هما "أنا أبكيك للحب" و "الأبد الصغير"

ومنذ وصلت رسالة الشابي الأولى الى أبي شادي وهي تحمل قصيدتيه السالفتين مع قيمة اشتراكه في مجلة "أبوللو" ، أصبح الشابي عضوا في جمعية أبوللو التي كان أبو شادي سكرتيرها العام ، وكان شوقي رئيسا لها ثم تولى رئاستها خليل مطران بعد وفاة شوقي . وهذا أبو القاسم الشابي يحدثنا عن كيفية اتصاله الأول بجماعة أبوللو وانضمامه اليهم .

" . . . . أما علاقتي أنا "بأبوللو" فقد حدثتك في رسالتي السالفة بأنني وجهت لها قصيدتين ومعلوم الاشتراك ، وطلبت من صاحبها أن يوجه الي الأعداد الأولى منها . وقد ورد علي كتاب منه يعد ذلك وطيه معلوم الاشتراك نفسه قائلا :

انه يستميحني عذرا في ارجاعه لأن المجلة توجه الي كهدية خالصة ، وصحبته ورقة مطبوعة في طلب العضوية لجمعية "أبوللو" وطلب مني تحريرها وامضاءها وتوجيهها حتى يضمن اسمي في ثبت أعضائها ، كما طلب الي أن أرسل صورتي لتنشر بالمجلة مع شعري . وقد ضمن رسالته ما سمحت به نفسه من ثناء واعجاب كما أهدى الي نسخة من ديوان له حديث اسمه "أشعة وظلال" ووجه الي الأعداد الأولى من المجلة . . . . وقد أهديته من "الخيال الشعري عند العرب" نسخة ووجهت ثلاث قصائد لمجلته وصحبتها مطلب العضوية والصورة منذ نحو ٣ أيام" (١)

وتوالت القصائد للنشر ، وتوالت الرسائل للمودة ، ولم تمض مدة قصيرة حتى كان الشابي من أعز

---

(١) : أي من تاريخ الرسالة وهو ٢٦ / ١٠ / ١٣٥١ هـ .

الأصدقاء والشعراء في قلب الشاعر الشابي ، وان لم يبلغ شعر أبي شادى قمة الروعة الشعرية في نظر الشابي :

"أما أبو شادى فيما كتبت عنه فقد حاولت أن أكون صادقا جهدى ، لا أداريه و لا أغمطه . وقد تحدثت عن أسلوبه بأعظم ما يمكنني من الصراحة في مقدمة تكتب لديوانه وستطلع عليها ، فترى أني لم أجامل ولم أدار ، وانما أنصفت حسبما يقتضيني المقام . ولست أدرى من أين لك "أنني كتبت عنه معجبا " (١) .

والحقيقه أنني كنت لا أستطيع أن أتم قصيدا لأبي شادى ، ولكنّي رضّت نفسي على أن أتابعه حتى ألفتّه ، فتبين لي أن الرجل في صميمه شاعر حساس يمتاز بروحانية صوفية بنظرته الى الوجود ، ولكن الذى أسقط من قيمة أدبه انه متعجل مكثار ، لا يصبر على التجويد الذى هو عمل لا بد منه للفنان المتسامي . ان صوره الشعرية لا تبدو واضحة كاملة في شعره بحيث ترغمك على تذوقها واستمتاعها وذكراها ، بل أنها لتبدو ملتاثة غائمة ، سريعة كل السرعة ، كأنها صور شريط سينمائي يدار بسرعة جنونية . وهذا هو السبب الذى ينأى بالناس عن تذوق شعره وادراك ما فيه من صور شعرية واحساسات عميقة تدل على نفس حية واعية . ولذلك فشعره يبدو فاترا ، في كثير من الأحيان ، لا يسيطر عليك ويرغمك على تتبعه مسحورا مدهوشا . وما أشبه شعره في نظرى بتلك المرأة الجميلة التي يعجبك جمالها ولكن لا تستفزك أنوثتها القاهرة وسحرها الغالب . ولعلك لو روضت نفسك على تلاوة شعره لأدركت منه ما أدركت .

ذلك مجمل رأى في الرجل ، وانك لتدرك بالبداهة انه لا يمكنني أن أقول هذا القول ، وبهاته الطريقة ، في مقدمة تكتب لديوانه . (٢) .

وليس أدل على المكانة والمودة المتبادلة بين الشاعرين من أن كلا منهما قد اعتمد على الآخر في تقديم ديوانه الى الجمهور ، فقد كتب الشابي تقديما لأحد دواوين أبو شادى ، وهو " ديوان الينبوع " المطبوع أوائل عام ١٩٣٤م ، كما وعد أبو شادى صديقه الشابي بتقديم ديوانه "أغاني الحياة" وطبعه في القاهرة طبعة أنيقة فاخرة باشراف مجلة " أبوللّو " وقد ثبت من جهات وملابسات عديدة أن الشابي كان يقترح ارسال الديوان الى أبو شادى (٣) صبيحة اليوم الذى فارق فيه الحياة من سحره .

وعندما توفي الشابي كان مجموع ما نشره من شعره في مجلة " أبوللّو " أربع عشرة قصيدة وثلاث مقطوعات . وكان آخر ما نشر فيها هو قصيدة "الايمان بالحياة " و " نشيد الجبار " .

وهذا الشعر الذى نشر في مجلة أبوللّو هو كل ما عرف من شعر الشابي في حياته ، مع وجود قصائد

---

(١) : الخطاب لصديق الشابي محمد الحلوى المخاطب بهذه الرسالة .

(٢) : من رسالة الشابي نشرت في مجلة " الفكر " — تونس: س٢ ع ١ ص ١٣ — ١٤ .

(٣) : أبو شادى مثل أبو القاسم لا يعرب جزؤه الأول الا اذا كان كنية ، أما اذا كان علما أو لقبا كما هو الحال هنا فلا .

قليلة أخرى تردد في الشرق ولا يعرف على التحديد متى ظهرت لأول مرة ، ومن بينها قطع غير معروفة تماما في تونس .

وهكذا نرى أن مجلة "أبوللو" قد كانت هي الطريق الأول الذى مشى عليه شعر الشابي الى دنيا الأدب العربي في الشرق ، وان الفضل في ذلك يعود الى صاحبها مجلة "أبوللو" ، صديق الشابي المرحوم أحمد زكي أبو شادى . و

ومما لا ريب فيه أن تأخر نشر ديوان الشابي قد أخر كثيرا بمكانة الشابي الأدبية ، وأخر الاهتمام به جيلا كاملا ، كما سنرى ذلك بعد قليل .

والغريب هنا أن الشابي كان قد أعد ديوانه للطبع ، بل أوصى بارساله الى أبو شادى في حالة وفاته . وهنا أبو شادى نفسه يروى ذلك في احدى رسائله الشخصية بتاريخ " ١٠ / ٥ / ١٩٥٣م . فيقول :

" تلقيت بيد الشكر رسالتيك القيمتين : " الشابي " و " كفاح وحب " ، في بريد اليوم ، وسامحني بعرضهما والحديث عنهما في محاضراتي ، في الاجتماع المقبل لرابطة " منيرفا " الأدبية بجامعة كولمبيا في الحادي والعشرين من هذا الشهر . واني لأشكر للأخ الكريم أريحيته وودده الأدبي ، لا لذاته فحسب ، بل لأنه شمل أيضا صديقا عزيزا هو المرحوم أبو القاسم الشابي الذى كتب الي قبيل وفاته بأنه أوصى بارسال ديوانه الي لأتولى درسه والتقديم له ، ونشره في طبعة فاخرة منذ كانت تجمعني به صلات من الفكر والعاطفة والفن ، كثيرا ما عبر عنها في رسائله الي " ، ولكن يد القدر العاتي حرمتني اياه كما حرمتني أداء ذلك الواجب . . . . " (١) .

أصدقاء آخرون :

بالاضافة الى أبو شادى كانت لأبي القاسم صلات أدبية عن طريق المراسلة لعدد من أدباء الشرق وشعرائه ، عرفنا منهم حتى الآن : الدكتور الشاعر المرحوم ابراهيم ناجي والشاعر عبد العزيز عتيق ، والدكتور الشاعر علي الناصر في حلب . ولكن صلات الشابي الشهرة قد كانت فقط مع أبو شادى . . . . .

فأبو شادى هو الذى فسح المجال أمام شاعرية الشابي ، لتظهر على مجلة " أبوللو " وهو الذى رثاه ومجد ذكره بعد وفاته مباشرة ، سواء في مجلة أبوللو أو في مجلة " الامام " التي كان أبو شادى يشارك صاحبها الناقد الجهير الاستاذ مصطفى عبداللطيف السارتي تحريرها والاشراف عليها .

وعن طريق هاتين المجلتين عرف الشرق شعر الشابي ، وبالتالي عرف مكانته وأكبر نبوغه واعترف بتفوقه وشاعريته .

---

(١) في رسالة من الشابي الى صديقه الحليوى ، أن الحليوى كان متفقا مع الشابي على تقديم الديوان ، وقد يكون أبو شادى وعد بمقدمة أخرى .

نسيان مؤقت :

كان الاهتمام البالغ بين سنوات ١٩٣٣ — ١٩٣٦م ثم خفت صوت الشابى ولم يعد له صدى يذكر فى الشرق الا لماما ، ومن فرصة لأخرى حين يكتشفه أديب ناشئ أثناء مطالعته لما مضى من **أعداد** مجلة أبوللو التى كانت قد ماتت هى الأخرى بعد الشابى بعام واحد .

وحين يصادف شعر الشابى قارئ جديد ،ويكون أديبا فانه قد يكتب عنه من خواطر أو مقالة تعتمد على تحليل نفسية الشاعر أو شاعريته من خلال تلك القصائد القليلة المنشورة فى مجلة أبوللو ،دون معرفة واضحة ودون فهم كامل لما ينبغى أن يعلم من حياة الشابى وملابسات شعره .

وقد استمر هذا الوضع من عام ١٩٣٦م — ١٩٤٨م أى مدة اثنى عشر عاما ،لا نجد خلالها الا بعض المقالات التى لا تعتمد الا التحليل والاعجاب بتلك القصائد المحدودة من شعر الشابى . ومعظم هذه المقالات نشر فى مجلات " الأمالى " و " الكشوف " و " الأديب " فى لبنان و " الرسالة " و " الهلال " فى القاهرة ، و " القافلة " فى القدس . وبعض المجلات العربية الأخرى .

كتاب واحد :

وخلال هذه المدة ١٩٣٦ — ١٩٤٨م لم يظهر أى كتاب عن الشابى ، بل لم يذكره الا مؤلف واحد من ألفوا عن الشعر المعاصر ، أو تعرضوا لأطواره واعلامه ، ومذاهبه . (١)

وهذا المؤلف كان — يوم وضع كتابه — أديبا شابا دفعه الاعجاب وحده الى اصدار كتاب صغير ضم مختارات من شعر عدد من الشعراء المعاصرين ، الذين أعجب بهم وأراد أن يذيع أدبهم بين الناس ، وهذا الأديب هو الشاعر محمد فهمى الذى نشر فى الجزء الأول من كتابه " الروائع لشعراء الجيل " مجموعة من أشعار الشابى ، استقاها كلها من مجلة أبوللو ، ولكنه لم يكن دقيقا فى نقله وعرضه ، كما أنه لم يعط لديه معلومات عن الشاعر ، للقارئ ، بل اننا لا نجد على الكتاب تاريخ طبعه ، ولولا نقد نشر عنه فى مجلة " المقتطف " عام ١٩٣٨م لما علمنا بالسنة التى طبع فيها وعلى الرغم من أن محمد فهمى قد قدم فى كتابه بعض التفاصيل عن حياة وأدب الشاعر الآخر الذى كان الشابى ثانيا معه ، فانه لم يقدم الشابى الا بصفحتين فيهما كلمة اعجاب بشعر الشابى ، واعتراف جميل بتفوقه وعبقريته .

---

(١) هناك كتاب آخر وهو " الشعر المعاصر فى ضوء النقد الحديث " للسحرتى ولكنه اكتفى بشواهد قليلة من شعر الشابى .

وان دل هذا على شئ فانما يدل على أن محمد فهمى لم يكن فى ذلك الحين يعرف أى شئ عن حياة الشابى وأطواره الأدبية ، وانه لولا مجلة أبوللو وما نشرته من شعر الشابى لما سمع محمد فهمى ومعاصروه بالشابى ، ولا أمكنهم التعرف الى شعره والحكم عليه ولو بصورة عامة غامضة .

وقد أخطأ محمد فهمى فى كلمته مرتين ، الأولى حين ذكر أن الشابى ولد سنة ١٩٠٨ م والصواب أنه ولد سنة ١٩٠٩ م ، والثانية حين ذكر أنه مات مسلولا ، بينما مات الشابى بمرض القلب .

ومع هذا فان كتاب (الروائع لشعراء الجيل) قد أسهم من جديد فى احياء اسم الشابى وتعريف الجيل الصاعد بشعره ، مما كان له أثر بعيد المدى فى تكوين عدد كبير من شعراء الشاب الذين تثقفوا خلال الحرب العالمية الثانية ، وظهرت مواهبهم وبواكير شعرهم فى أعقابها مباشرة .

جيل جديد :

ومنذ انتهاء الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٥ م الى عام ١٩٥٢ م شاع شعر الشابى بين طلبة المدارس الثانوية والعالية ، وخاصة بين الأدباء الشبان الذين وجدوا فيه ضالتهم المنشودة وأملهم المفقود ، ذلك أن أكثر هؤلاء الأدباء الشبان كانوا يطالعون الشعر الغربى بلغاته الأصلية ، ويتأثرون به وينفعلون معه ، فيتوقون الى وجود شعر عربى على نمطه من حيث : خصائصه الفنية ، والمذهبية ، والشعورية .

ولما عثروا على شعر الشابى صار لهم انجيلا ، وأصبح قائله نبيا ، فآمنوا برسالته الأدبية ، وحاولوا احتذاءه فى قليل أو كثير من البراعة والنجاح .

والى هذا الجيل الجديد يعود اليوم شطر كبير وعظيم مما وصل اليه الشابى فى الشرق من مكانة شعرية عالية وتقدير أدبى كبير .

وهكذا كانت الحرب العالمية الثانية فاصلا بين جيلين اثنين من أجيال الأدب العربى الحديث : جيل عاصر الشابى وأظهر بعضه الاعجاب به ثم نسيه ، ولم يعد يذكره ، وجيل تتلمذ على شعره واتخذه رائدا فى شعره وتعبيره على السواء .

وكان أشد ما افتتن به هذا الجيل الجديد ، من شعر الشابى قصائده الخالدة : " نشيد الجبار ، أو هكذا غنى زرادشت " و " نرو موثيوس " التى مطلعها :

سأعيش رغم الداء والأعداء ... كالنسر فوق القمة الشماء !

أرنو الى الشمس المضيئة هانئا

بالسحب والأمطار ، والأنواء

لا ألمح الظل الكئيب ولا أرى

ما فى قرار الهوة السوداء

وأسير فى دنيا المشاعر حالما

غردا ، وتلك طبيعة الشعراء .

وقصيدته " الصباح الجديد " التى استهلها بقوله :

اسكتى ياجراح .·. واسكتى ياشجون
ماتعهد النواح .·.. وزمان الجنون
وأطل الصباح .·. من وراء القرون

وقصيدته " صلاوات فى هيكل الحب " ، وقصيدته " ارادة الحياة " التى مطلعها :

اذا الشعب يوما أراد الحياة .·. فلابد أن يستجيب القدر
ولابد لليل أن ينجلى .·. ولابد للقيد أن ينكسر

وقصيدته " النبى المجهول " التى يقول فيها :

أيها الشعب ليتنى كنت حطا .·. با ، فأهوى على الجذوع بفأسى
ليتنى كنت كالسيول اذا سا .·. لت تهد القبور رمسا برمس
ليتنى كنت كالريح فأطوى .·. كلما يختنق الزهور بنفسى
ليتنى كنت كالشتاء المنشى .·. كلما أذبل الخريف بقرسى
ليت لى قسوة المواصف ياشعـ .·. ـبى ، فألقى اليك ثورة نفسى .

ولابأس هنا بتحليل موجز لدوافع الاعجاب عند الجيل الأول ، ودواعى الانبهار والاجلال عند الجيل الثانى :

لقد كان الجيل القديم من أدباء الشرق يعجب ويطرب بشعر الشابى لما فيه من موسيقى عذبة ، وتعبير أنيق ، وخيال مجنح ، وصور فنية خلابة .

أى أن الاعجاب بالشابى لم يتجاوز عند هذا الجيل الجوانب الفنية الخارجية ، فكانوا مأخوذين بوجه خاص بموسيقاه العجيبة الدالة على قدرة الشابى الفائقة فى المزاوجة بين الألفاظ والتأليف بينها فى مجانسة منغمة عالية .

أما الجيل الثانى فان اعجابه بالشابى ليس من أجل مافى شعره من خصائص الجمال الفنى فحسب ، وانما أيضا من أجل مافيه من خصائص فكرية وشعورية فائقة ، فقد اكتشف هذا الجيل مافى شعر الشابى من صدق وروحانية ، وما فيه من حيوية دافقة ، وحرارة صاعدة ، ومن ايحاء وتأثير عاطفى قوى .

والأهم من هذا كله اكتشافهم روحة الوطنية ، ونزعته الانسانية ، وتصوفه الشعرى الخلاب ، فهو من هذه الناحية يشبه جبران خليل جبران شبها عجيبا .

ويمتاز هذا الجيل عن سابقه بأن معظم شعرائه الجهيرين قد تأثروا ، ـ فى مطلع شاعريتهم ـ بالشابى ، على اختلاف درجة التأثر وقوته فيهم .

وليس من شك فى أن معظم الشعراء الشباب فى العراق والشام ، ومصر والسودان متأثرون بشعر الشابى بصرف النظر عن مدى هذا التأثير ونتائجه .

ومن الشعراء الذين لو يدرس شعرهم لتبين مافيه من محاكات ، أو استيحاء لشعر الشابى أو تأثير بخصائصه الفنية واتجاهاته المذهبية .

ففي العراق نجد نازك الملائكة وعبد الوهاب البياتي ، في شعرهما الأول المتمثل في ديوا ن عاشقة الليل "لنازك ، و " ملائكة وشياطين " للبيّاتي .

أما في سوريا فنجد سليمان العيسى ، وشوقي البغدادى . وفي فلســـــطين نلتقي مع فدوى طوقان .

أما في مصر فنجد عددا كبيرا ، وفي مقدمتهم كامل أمين ، وفوزى المنتيل ، وكمال نشـــأت.

أما السودان نجد أن الشابي " في فترة من الفترات .ـ فترة بناء الأدب السوداني ـ كان هو المعين الوحيد لذخيرتهم الشعرية وانطبع شعر الشابي في معظم الشعراء الشباب في الفترة التي أعقبت معركة الاستقلال في السودان . وقد تشبث أغلب الشعراء بذخيرة الشابي ، منهم الشاعر عبد المنعم السيد الذى نقرأ في شعره تضمينا لقالب أبي القاسم الشابي ، ورغم أن الشعراء في السودان قد تأثروا بمدارس شعرية كحافظ وشوقي ونزار والبياتي ، الا أن تأثرهم بالشابي كان أشدّ وأقوى فشعر الشباب في المجلات والصحف تجد فيه روح الشابي مطلة عليك من بين سطوره .

ويضيق المجال ان أردت أن أتناول كل الشعراء السودانيين الذين تأثروا بمدرسة الشابي ، ولكني أجد شاعرا من أعمدة النهضة الأدبية في السودان ظهر له ديوان حديث أسماه " خواطر انسا ن " ذالكم هو الشاعر الكبير اسماعيل حســـن الذى تأثر بالشابي تأثرا واضحا فاضحا ، حتى لنـــكـاد نقرأ في شعره نغم الشابي الجميل . (١) .

واذا تركنا هذا الجانب ، وعدنا الى متابعة التطور المتصل لشعر الشابي في الشرق ، فاننا نجد قفزة كبيرة منذ عام ١٩٤٨م . حيث تتابعت الدراسات لشعره ، وكثر التغني به ، حتى لحنه الفنانون ، وغناه المطربون في المحافل والاذاعات والمسارح المختلفة .

والملاحظ هنا أن جميع الدراسات التي ظهرت عن الشابي منذ ظهر في الشرق ونشرت عنـــــه الى عام ١٩٥٢م ، لم تتجاوز نطاق المقالات في الصحف والمجلات ، أو صفحة عنه في كتاب ، بل ان الكتب التي تناولته بالبحث حتى عام ١٩٥٢م ، قد كانت فقط تستشهد ببعض شعره على مدى تطـــور الشعر العربي الحديث دون أن تتعرض لحياة الشابي وأدبه بالدرس والعرض والتحليل . (٢)

تطـــــور جـــــــديد :

وبعد عام ١٩٥٢م تغير الموقف تماما ، فقد ظهر لأول مرة في العالم العربي كتاب كامل عن الشابي قدمه في أوفى صورة عرفها الشرق سواء عن حياة الشاعر أو عن أدبه . وقد أحدث هذا الكتاب ـ الذى كان مؤلفه تونسيا ـ صدى كبيرا تجلى في عشرات المقالات والأحاديث التي نشرت أو أذيعت حوله ، وليس هذا فقط ، فان هذا الكتاب قد فتح الباب أمام الكتّاب والباحثين كي ينعموا النظر من جديد في دراسة الشابي وفي إصدار أحكام وآراء حول أدبه أكثر دِقة وعناية وتركيزا عن ذى قبل .

---

(١) : من مقال للكاتب السوداني : حسب الرسول ـ بانقا مجلة الاذاعة التونسية ـ س١ ع٢٥ ص١٦ ١٦ / ٤ / ١٩٦٠م .

(٢) : أبرز كتب هذه الفترة "الشعر المعاصر" للسحرتي ، وكتاب "الاتجاهات الحديثة في الأدب العربي الحديث" للمقدسي .

وقد أسهم هذا كله في اعلاء مكانة الشابي الشاعر ، وتصحيح كثير من الأخطاء التي كانت تملأ أذهان عدد غير قليل من الأدباء والقراء ، بل ان الكتاب قد عرف الشابي بكبار الأدباء الذين تبين أن عددا غير قليل منهم لم يسبق له التعرف الى الشابي ، وقراءة شعره ، فضلا عن دراسته ونقده .

ومهما يكن من أمر فان الاهتمام بالشابي وأدبه قد تطور بعد عام ١٩٥٢م ، وانتقل الى ميادين جديدة . فبعد أن كان الاهتمام مقصورا على المجلات والصحف ، ظهرت كتب عديدة تدرس أدب الشابي وتنقده ، أو تقارن بينه وبين غيره من الشعراء العرب المعاصرين . كما ظهرت الدراسات المطولة عنه في كتب خصصت للبحث في الشعر العربي الحديث . كذلك ظهرت كتب مدرسية أو كتب نصوص فيها مختارات من شعره . وأصبح الشابي يدرس في مناهج كثير من المدارس الثانوية سواء في مصر أو لبنان أو الأردن أو العراق . هذا فضلا عن الأعداد الخاصة التي أصدرتها عنه صحف ومجلات عربية كثيرة .

وليس من شك في أن للتطورات السياسية والاجتماعية التي شهرت أقطار وشعوب الشرق العربي عقب الحرب العالمية الثانية أثرا بارزا في هذا الميدان .

وكان شعر الشابي الوطني الثائر يتلاءم بشكل حاد مع الثورات القومية الزاحفة . لهذا كان الشباب يردد بحماسة في نواديه ومظاهراته قول الشابي :

اذا الشعب يوما أراد الحياة .. فلا بدّ أن يستجيب القدر
ولا بد لليل أن ينجلي .. ولا بد للقيد أن ينكسر

وكم من مرة كُتِبَ هذان البيتان على الشعارات التي يحملها المظاهرون من كراتشي في الباكستان الى الخرطوم في السودان . بل لقد ترجم البيتان الى اللغة اليابانية وحملا شعارا في طوكيو عاصمة اليابان . (١)

لقد أسهم هذا كله في تعريف الشابي الى الجماهير ، وخاصة الشباب المتعلم ، مما زاد من الاهتمام به والاقبال على قراءة شعره ومطالعة كل ما يكتب عنه .

وهنا لم يعد في وسع أيّة مجلة أو صحيفة أن لا تهتم بالشابي ، فكثر نشر قصائده وكثر نشر المقالات التي تحلل شعره وتمجد شاعريته . حتى بلغ صدى ذلك الى الفنانين فلحنوا شعره وتغنوا به . وكان المطرب اللبناني " حليم الرومي " أول فنان عربي من الشرق لحن شعر الشابي ، فاختار له لأول مرة ، قصيدة " ارادة الحياة " ، ثم اختار له قصيدة " الحان السكرى " التي يصور فيها الشابي خلوة سعيدة من خلوات الحب الطافح المشبوب :

قد سكرنا بحبنا واكتفينا .. يا مدير الكؤوس فاصرف كؤوسك
واسكب الخمر للعصافير والنحـ .. ـل وخلّ الثرى يضم عروسك
مالنا والكؤوس نطلب منها .. نشوة ، والغرام سحر وسكر ؟!
خلنا منك فالربيع لنا سا .. ق ، وهذا الفضاء كأس وخمر !

---

(١) : جريدة لاكسيون التونسية باللغة الفرنسية عدد ٢ / ١ / ١٩٥٦م .

وتغنت المطربة سعاد محمد بقصيدة "ارادة الحياة" من تلحين حليم الرومي حتى اشتهرت بها . ثم اختار المطرب عبد الرحمن الخطيب (١) قصيدة " أيها الشعب" فلحنها وغناها لأول مرة في أكتوبر تشرين الأول "سنة ١٩٥١م. ضمن برنامج خاص قدمته محطة الشرق الأدنى التي كانت تذيع من جزيرة قبرص، ومطلع هذه القصيدة :

أين ياشعب قلبك الخافق الحساس؟ أين الطموح والأحلام؟
أين ياشعب روحك الشاعر الفنان ؟ أين الخيال والالهام؟
ان يَمّ الحياة يدوي حواليك ، فأين المغامر المقدام؟
أين عزم الحياة؟ لاشيء الا الموت، والصمت، والأسى والظلام
عمر ميت وقلب خواء ، ودم لا تثيره الآلام !!
أيّ عيش هذا ؟ وأيّ حياة؟ رب عيش أخف منه الحمام

الى أن يقول :

أنت يا كاهن الظلام حياة، تعبد الموت، أنت روح شقيّ
كافر بالحياة والنور، لا يصغي الى الكون قلبه الحجريّ
أنت دنيا يظلها أفق الماضي ، وليل الكآبة الأبديّ
والشقي الشقي في الأرض شعب يومه ميت وماضيه حيّ

وغنى له عبد العزيز محمود من تلحينه قصيدة " الصباح الجديد " ، وقد كان موفقا فيها كثيرا ، واختار له المطرب الليبي كاظم نديم بن موسى قصيدة " صلوات في هيكل الحب " وأخيرا غنى له كارم محمود" يا ابن أمّي " من تلحين عصمان المنتهلي .

مهرجانات الذكرى :

==========

تلك صورة مجملة لمدى الاهتمام والصدى الذي لقيه شعر الشابي في الشرق منذ ظهر الى اليوم ، سواء في المجلات والصحف أو في الكتب أو في الطرب.

وهناك اهتمام آخر يتمثل في المهرجانات والاحتفالات الأدبية التي أخذت تنشر عن الشابي منذ عدة سنوات من طرابلس الغرب الى القاهرة ، فدمشق ، وبغداد وعمّان ، سواء في النوادي أو الاذاعات.

ولعل أعظم هذه الاحتفالات ما قامت به نقابة الصحافيين في القاهرة يوم ٢٧/١٢/١٩٥٢م، حيث شارك فيه لأول مرة بعض كبار الأدباء الذين لم يكونوا يعرفون شيئا عن الشابي أو يظهرون الاهتمام بأدبه ، أمثال عزيز أباظه ، والناقد الدكتور عمر عندور .

وقد تكلم باسم تونس في هذا المهرجان الشيخ محمد البشير الابراهيم، رئيس جمعية العلماء المسلمين في الجزائر، وقد نشرت جريدة البلاغ المصرية عددا خاصا حوى معظم ما قيل في (٢)

---

(١) هو اخو الطربة فائزة كامل .
(٢) :القسم الرابع من كتاب " آثار الشابي وصداه في الشرق" ـ أبو القاسم محمد كرّو .

المهرجان ، وقام بوصفه والتعليق عليه الكاتب الأستاذ كامل السوافيري ، وكان مما علق به قوله :

" . . . واذا كان لنا مأخذ على الحفل فهو أن أحدا لم يتعرض لترجمة حياة الشاعر وتحليل شعره ، ! ولولا الكلمة التي القاها الأستاذ الابراهيمي . . . ما عرف كثير من الحاضرين أين ولد وكيف اتخذ تونس موطنا ثانيا له بعد أن ترك موطنه الذى ولد فيه . . . . (١) . "

النبـــــــــــي المجهـــــــــول :

==========

وهكذا نرى أنه برغم صدور عشرات من الكتب وعشرات من المقالات والدراسات حول الشابي وأدبه فانه مع ذلك ـ ما زال مجهولا عند قراء شعره والمعجبين به .

فالسوافيري نفسه أخطأ في ! قوله :

" ان الشابي ترك موطنه الذى ولد فيه واتخذ تونس موطنا ثانيا له " ! ! فأين ولد اذن ؟ أذا كانت تونس هي موطنه الثاني ، واذا كان الشابي قد ترك موطنه الأول ليتخذ هـا موطنا ثانيا ؟ ! فكيف يكون حال الأدباء الذين لم يقرأوا عنه شيئا ؟ بل كيف يكون الحال قبل أن يظهر أى كتاب عن الشابي ؟ .

لقد كان الحال ولا شك غريبا جدا ، اذ كانت الأخطاء حول الشابي شائعة في معظم بلاد الشرق العربي ـ مثل مصر والعراق ، وسوريا والأردن وفلسطين ولبنان بين أعوام ١٩٤٨م ـ ١٩٥٢م .

أخطـــــــاء وأوهـــــــام :

==========

وعلى رغم جميع الكتب والجهود التي بذلت حتى الآن ، فان الأخطاء القديمة لم تنته ، بل انضمت لها أخطاء جديدة غريبة ، ونكتفي هنا بذكر بعض الأمثلة :

ففي عام ١٩٤٧م نشر الأستاذ عيسى الناعورى مقالين عن الشابي في "مجلة القافلة" بالقدس توهم (٢) فيهما أن الشابي من شعراء المغرب الأقصى ، وقد زين المقال بصور يمثل بعضها مدينة طنجه المغربية .

وفرق ظاهر بين تونس والمغرب الأقصى كما ظن الأستاذ الناعورى أن الشابي مات مسلولا ، وهو ظن يشترك معه فيه عدد غير قليل من قراء وأدباء الشرق ، مع العلم بأن الشابي مات بمرض القلب .

وزعم عبدالسميع المصرى : أن الشابي قد انهكت قواه حياة الخلاعة والمجون التى

---

(١) مجلة القلم الجديد : الأردن س ١ ع ٦ " شباط ـ فبراير سنة ١٩٥٣م "

(٢) عددا ١٠/١٠/ و ١٧/١٠/١٩٤٧م وهما برقم ٢٨ ـ ٢٩ .

عاشها أثناء تعلمه فى فرنسا (١) ! .

ونسب اليه أديب عراقى هو الاستاذ محمود الميطه فى مقال نشر بجريدة " الفجر " الصادرة فى الموصل ، أنه تولى منصب قاض ، وأنه تلقى فى الجامعة الزيتونية ثقافة عصرية (٢) .

ولا شك فى أن السيد الميطه قد وقع فى هذا الخطأ بسبب ملابسات لم تكن واضحة عنده ، فان والد الشابى كان قاضيا شرعيا ، أما الشابى فلم يتول أى منصب حكومى ، ولم يشتغل فى أى مهنة حرة ، بل عاش فى رعاية أبيه حتى العشرين من عمره ، ثم عاش سنواته الخمس الأخرى حليف المرض يعتمد فى عيشه على أملاك الأسرة التى كانت تضمن له عيش الكفاف ، فلا عسر ولا يسر .

أما الثقافة العصرية ، فقد توهمها الكاتب من عنوان المعهد فظن أن تسميته فى الجامعة لابد لأنه عصرى ، فى حين كان عتيقا فى برامجه ، وعقلية أساتذته ، وطرق تعليمه بالاضافة الى أنه معهد دينى .

وهناك اعتقاد سائد فى تفكير معظم أدباء الشرق ، بأن الشابى قد أصيب بمرض السل ومات به ، وعلى هذا الأساس أقامت الدكتورة الشاعرة " نازك الملائكة " بحثا كاملا بعنوان " الشعر والموت " .

وفى تونس نفسها جرى خطأ جسيم ، سيجعل الأجيال القادمة تعتقد بأن الشابى مات مسلولا ، وذلك أن الشابى اليوم يحمل اسمه مستشفى للأمراض الصدرية باحدى ضواحى العاصمة التونسية . وعندما تكتب الأقلام الصاعدة فى الغد سيكون هذا المستشفى برهان يؤكد مرض وموت الشابى بالسل (٣) .

وفى الواقع انى لأتساءل عن العلاقة بين الشابى — وهو شاعر فنان — وبين مستشفى لعلاج المرضى ، بصرف النظر عن اختصاص المستشفى حتى لا نزيد فى الأخطاء الشائعة خطأ جسيما من شأنه أن يشتت الحقائق المتعلقة بحياة الشابى ، خاصة وأن الشابى لم يصب بالسل ، كما لم يعالج فى هذا المستشفى ، وهو الى ذلك لم يكن موجودا فى حياته .

أخطاء جديدة :

لقد تفاقمت الأخطاء حول الشابى منذ عام ١٩٥٤ م ، أى منذ أصدر عمر فروخ كتابه " شاعران معاصران طوقان والشابى " . فقد ملأ فروخ القسم الخاص بالشابى من هذا الكتاب ، بمجموعة كبيرة من الأخطاء فى المعلومات والأحكام تلفت النظر وتثير الاستغراب

---

(١) مجلة الرسالة الجديدة : القاهرة ع ١١ ص ٤٥ " شهر ٢ / ١٩٥٥ م "

(٢) عدد ٢٢ — بتاريخ ٨/١٢/١٩٥٠ م .

(٣) الشابى — حياته وشعره — أبو القاسم محمد كرّو — مرض الشابى .

والمؤلم هنا أنها شاعت عنه بالنقل ، وأخذ الكتّاب يرددونها فى مقالاتهم دون تمحيص كما فعل عبدالسميع المصرى فى مقال مفسح به حياة الشابى وأدبه .

فاذا تركنا هذه الأخطاء جانبا ، وجدنا ظاهرة جديدة ، ظهرت بعد كتاب فروخ السالف الذكر ، وهى ظاهرة التحامل الشديد على حياة الشابى وأدبه ،ومحاولة التصغير من شأنه ، واعتباره شاعرا عاديا تفوّق فقط فى بعض قصائده القليلة التى تقوم عليها وحدها شهرته الواسعة ومكانته الأدبية .

ولنأخذ هنا نموذجا جاء فى كتاب " الشعر وقضيته " للشاعر ابراهيم المُرَيّض زعم فيه : أن الشابى ليس قمة من قمم شعرنا العربى الحديث ، وانه لو عاش أطول لساق الشعراء الذين يعتبرهم الأستاذ المُرَيّض قمما شامخة من شعرنا المعاصر ،قال المُرَيّض

" .... أما القمم التى تجذب فى شعرنا الحديث عين الناظر اليها من بعيد فهى — ولا اقصد المفاضلة — اليا أبو ماضى ، وعمر أبوريشه ، ومحمد مهدى الجواهرى ، ونزار قبّانى ، وبشاره الخورى ، وسعيد عقل ، ومحمد على الحومانى ، والشاعر القروى ، وفدوى طوقان ، ونازك الملائكة ، وأحمد الصافى ، وشفيق المعلوف ،والياس فرحات . ولكن طابعه من التجديد ، طال بقاؤهم جميعا (١) .

أما الشابى ، فان الموت المبكر قد جنى عليه ، وحرمه من الارتفاع الى قمم المُرَيّض التى رفع اليها بيمينه مجموعة متناقضة من المواهب والاتجاهات الشعرية ، ومن هنا لم نستغرب أن يقول المريّض — وهو شاعر — بعد كلامه السابق :

" فالشابى مثلا — وهو ولو كان حيا ليساق هؤلاء — لا ترفعه الى هذا المستوى الذى يشرف منه اليوم على دنيا الناس من سمائه ،الا بضع قصائد معدودة فى مقدمتها " صلوات فى هيكل الحب " عرفتنا قدره ولو لم ينظم شئ غيرها ، فان هذا الباقى المتبقى من شعره لا ينبئ الا عن محاولات أدّت للشاعر غرضها فى حينه ، وقيمتها تخص التاريخ وحده " (٢) .

والغريب أن الاستاذ ابراهيم المرّيض يخالف نفسه مخالفة صارخة ، حين يقدم لنا مقياسا نعرف به القمم من غيرها . فالشاعر فى نظره — لا يبلغ القمة فى جميع قصائده وانما يكفيه فقط بلوغها فى عدد محدود منها . ومع اعترافه بأن الشابى قد بلغ الاجادة فى " قصائد عرفتنا قدره ولو لم ينظم شيئا غيرها " ، فانه لم ينل بقصائده شرف التحليق فى قمم الشاعرية التى حدد الاستاذ المرّيض ارتفاعاتها عن سطح البحر .

وهذا مقياسه الخاص الذى ذكره فى معرض الخشية من اساءة فهمه ، وبالأحرى

---

(١) ص ٨٥ — ٨٦ من كتاب المرّيض .

(٢) ص ٨٦ من كتاب المريض — الشعر وقضيته .

تطبيقـــه :

" .... وأخشى هنا أن يسئ بعضكم (١) فهم مدلول معنى "القمة "، فأبادر بالقول — وان كانت بداهته لا تخفى — على الشعراء انفسهم — بأن الشاعر لا يوفق الى الاجادة فى آثاره كلها ، وانما القصائد التى يبلغ فيها غاية الجودة تسجل للناس الذروة التى يستطيع بلوغها . كمثل هذا الميزان الذى يسجل الحرارة فى رصده طيلة أيام السنة ، فلا يقدر العلم لوصف مناخ بقمة الا أرفع ماسجله الميزان لها فى الصيف من حرارة الصيف ، فى أشد أيامه حرا "!!

ويظهر أن ميزان الأستاذ العريّض قد أصابه العطب حين رصد به مناخ شاعرية الشابى ، لأن درجات رصده العالية لم تصل الى مستوى رصد الآخرين ، ولو لم يكن الأمر كذلك لما غفل ميزان الاستاذ العريّض عن رصد قصائد الشابى التالية : " ارادة الحياة " و " النبى المجهول " و " أغانى الرعاه " و " نشيد الجبار " و "الصباح الجديد " و " قلب الشاعر " و " الجنة الضائعة " و " الحانى العكرى و " الأشواق التائهة " و " فى ظل وادى الموت " و " الأبد الصغير " و " قلب الأم " و " الساحرة " و " الايمان بالحياة " و " أيها الليل " و " وأنا أبكيك للحب " و " يا ابن أمى " و "الى طغاة العالم " و " ومناجاه " و " وياشعر " . ثم قصيدة " صلوات فى هيكل الحب " التى ذكرها .

فاذا تركنا القصيدة الأخيرة بقيت عشرون قصيدة أخرى ذكرنا أسماءها ولا أظنه الا يعرفها جميعا . وأظنه لا يجهل أيضا أن أيا من الشعراء الذين أحلّهم قمم جباله الشعرية ، لم يبلغ . من الاجادة فى شعره عددا من القصائد يوازى عدد قصائد الشابى المذكورة ، وقد يختلف معى حضرته كما قد يختلف معى غيره فى أن هذه القصائد كلها جيدة ، ولكنه لا يستطيع أن ينكر أن أكثر من واحد من الشعراء الذين اعتبرهم قمما فى شعرنا الحديث ، ليس لهم قصائد تفوق فى جودتها ما يستجيده هو نفسه من قصائد الشابى " كمثل صلوات فى هيكل الحب " التى اعترف بقيمتها . ولكنها — وأخوات لها — لم تشفع عنده لكى يصبح الشابى سامقا لنازك أو فدوى أو المعلوف أو فرحات مثلا ، مع اعتبار طابعه الخاص من التجديد كما اعتبر لهم ذلك . (٢)

×××××××××××××××××××××××××
××××××××××
××××××

---

(١) الشعر وقضيته للأستاذ ابراهيم العريض ص ٨٦ .
(٢) آثار الشابى وصداه فى الشرق — أبو القاسم محمد كرّو — ص ٣٣ — ٥٥ .

الباب الرابع

الثورة في شعر الشابي
دوافعها واتجاهاتها

الثورة في شعر الشابي نقطة انطلاق في شعره الوطني ، اذ أنها تحمل الخطوط العريضة والواضحة التي تدل على مدى احساسه بضرورة البعث والتطور نحو الأهداف العريضة التي يريدها الشاعر لمجتمعه ، وهي في عنفها انما تدل على نواحي الضعف التي كان يرزح تحت وطأتها ، ونواحي القوة التي يريدها الشابي .

ونحن نلمح في شعر الشابي صورا كثيرة لفكره ، والحياة المتجددة سواء في قصيدته ارادة الحياة ، أو نشيد الجبار ، وسواء كان التقاء الشابي بنتشه في هذه الفكرة مصادفة أم نتيجة لترسبات ثقافية ، فلقد كانت تلك الفكرة هي النواة التي أنبتت الطموح والقوة في قلب الشاعر التونسي المظلوم ، فبعثت فيه النهضة والوعي ، على أن الشابي وقد اكتفى بالدعوة لهذه الفكرة ، فان نتيشة قد طبقها في جميع نواحي الحياة ومناحيها ، فدرسها دراسة فلسفية عميقة في كتابه " ارادة القوة " أو هكذا تكلم زرداشت .

والثورة دائما من جانب الشباب ، تلاقي اعراضا ونفورا من جانب الشيوخ القابعين في بروجهم العاجية ، والحقيقة أن الشباب مدفوعون الى الثورة ، والى الجموح بسبب جمود هؤلاء الشيوخ ، وما أصدق والت وايتمان الشاعر الانساني الأمريكي حين قال :

" . . . لا تلوموا الشباب اذا امتلأت نفوسهم بالمرارة والشك والغليان ، فالذنب ذنب الكبار الذين لم يحولوا المرارة الى قناعة والشك الى ايمان ، والغليان والثورة الى قوة دافعة للاصلاح ! " .

والثورة في شعر الشابي ليست ثورة سطحية ، وانما هي ثورة جذرية في جميع مناحي الحياة وأشكالها ، ثورة على أعداء الشعب ، ثورة على الظالمين ، ثورة على الرجعيين والجامدين والخامدين ، انها ثورة على القيود بكل مناحيها ونواحيها ومعانيها ، وهي منبثقة عن ايمان عميق بالحرية وبطبيعة الحياة الحرة ، وهي أيضا ثورة جامحة على خمود الشعب وجمود المفكرين ويعبر الشابي عن ذلك بقوله :

وأقول للجمع الذين تجشموا . . هدمي وودوا لو يخرّ بنائي
من جاش بالوحي المقدس قلبه
لم يحتفل بحجارة الدهماء

دوافع الثورة عند الشابي

يختلف الشعراء في احساسهم بالكون وبأنفسهم وما حولهم اختلافا مبعثه العمق والحدة في الادراك والنفوذ الى بواطنهم، أو بواطن ما يصورونه، فهم ليسوا جميعا سواء في الاحساس بل منهم من هو سطحيّ الاحساس لا يكاد يلمس ما يصفه الا لمسا خفيفا، وهو لذلك لا يؤثر فيك الا تأثيرا من الظاهر ان صح التعبير، فشعره فاتر لا حرارة فيه، ومن الممكن أن نودع في هذا القسم مجموعة النظامين الذين لا ينفعلون أي انفعال قبل الأشياء، وانما هم يسجلونها في شعرهم كأن شعرهم صحف حسابية لأعداد وأرقام.

وفي الشعراء من يتعمق ما يدركه ويحسه من ذات نفسه، أو ما يبصره أو يشاهده في الكون من حوله تعمقا يصل الى باطنه وخفايا داخله، فنقرأ شعره ونحس فيه كأننا في حلم سحري، ونشعر بشيء من التسرية عن أنفسنا والراحة والمتعة الحقيقية، لأن الشاعر ينفس عما في داخلنا بما يجري على لسانه من أبياته، أو قل من مشاعره وأحاسيسه، فنحن عنده نستقبل أنفسنا وعالمنا بكل ما فيه من اضطراب وقلق وكمال ونقص، اذ العالم ليس كما لا خالصا ولا نقصا خالصا، بل هو مزيج منهما، مزيج ينتظر الشاعر الذي يحسه احساسا حادا ويعرضه.

وبين هذين الفريقين من أصحاب الاحساس السطحي والاحساس الحاد، يقع كثير من الشعراء في مدارج وسطيّ، وليس من شك في أنه بمقدار ما يكون في الشاعر من مادة الاحساس تكون موهبته في الشعر كما يكون تأثيره في سامعيه وقرائه.

وأبو القاسم الشابي الذي هصر غصنه القدر سنة ١٩٣٤م ولما يبلغ الخامسة والعشرين، بعد كفاح شاق مرير بينه وبين المرض ـ مرض القلب ـ اذ أصيب في عنفوان شبابه بتضخم قلبه، هذا الشاعر يعد فلتة من فلتات عصرنا الحديث، في حدة الاحساس وعمقه ودقته.

لم يتعلم لغة أجنبية ولا خرج عن محيط بيئته، ولكنه قرأ واستوعب كل ما وقع عليه قديم وحديث وأدب غربي منقول، وانطبعت في خياله عن طريق قراءاته وخاصة للشعراء المجددين صورة فنية للشعر، فيها تحرر من القديم، سواء أكان في شكل القصيدة أم في موضوعها، فقد تخلص من رق المديح وما يتصل به واتجه الى نفسه وعصره وأمته، وشعر شعورا واضحا بالحق والجمال والكمال، وظل هذا الشعور يجري في شعره تيارا مندفعا لا ينقطع ولا ينفصل عن أي قصيدة أو مقطوعة ينظمها، ولكن شعوره هذا ليس هو الذي استنفذ شعره، وانما استنفذه شعور آخر، هو شعوره بالألم وعلته التي أصابته في شرخ شبابه، فالألم هو الدافع الحقيقي

للثورة عند الشابي .

ومن الشعراء من يصاب بالمرض مثل الشابي ، فمنهم من يتألم ولكنه يحول ألمه الى فلسفة في الحياة والى تفكير واسع فيما يلاحقها من نعيم وبؤس وسعادة وشقاء ، فالألم عند هذا الفريق لا يتحول الى نفسه والحديث عن أوجاعه وانما يتحول الى الحياة البشرية كلها وما ترتطم به من صخور الشر والظلم العارخ .

ومن المرضى من يعلو على ألمه ، بل من يحاول أن يقهر ألمه وينتصر عليه الى النهاية ، فتراه ضاحكا مبتسما ، كأنما تحول الألم عنده الى لذة فهو لا يتشاءم بل يتفاءل ، وهو لا يضيق بما حوله ، بل هو كثير التسامح ، كل ما حوله في الطبيعة جميل ، وجماله يفقده الوعي بنفسه وما يعتصر قواه من المرض ، وفرحته تعلو على كل آلامه ، اذ تطرد من صدره كل الوساوس والأوهام التي تجيش بصدور أمثاله .

غير أن هذان النوعان نادران ، أما الكثير فيكون على غرار أبي القاسم الشابي لا يحوله الألم الى فيلسوف ومفكر كبير ، وأيضا لا تحوله العلة الى ضاحك في الحياة أو مبتسم ، وانما تحوله الى لحن ضخم للعويل والبكاء وندب نفسه وحياته ندبا حارا .

وتصادف أن كان احساس أبو القاسم الشابي حادا ، وجعلته حدته محبا للحياة صبا بها ، وشعر برؤوس أفاع تمتد اليه في طريقه ، فتمنعه من السير بل ترده الى داره ان لم يكن الى فراشه وعلته ، فرجع محزونا يجر أذياله والكآبة قد ملأت نفسه ، وملأها أيضا الاحساس الدقيق بالكارثة وما ينتظره من موت عاجل محتوم .

ولم يجد أمامه ما يبثه لواعجه سوى ناي شعره ، فأخذ يشدو عليه أغاني مشجية تظمها والدموع تنهمر من عينيه ، وهي لذلك تعد أشجى أغانينا في العصر الحديث ، لأن صاحبها بللها بدموعه وهو يكتبها ، ولأنها تصور ألما حقيقيا ، بل لأن صاحب هذا الألم كان حاد الحس ، فسقط لا على الألفاظ التي تمثل ألمه ، وانما على الابر التي تلسع ، وحمى الابر في نيران قلبه فأصبحت تكوى وتلذع ، واسمعه يغني أغنية الأحزان " .

حطمت كف الأسى قيثارتي
في يد الأحلام
فقضت صمتا أناشيد الغرام
بين أزهار الخريف الذاوية

وتلاشت في سكون الاكتئاب
كهدى الفريد
كف عن تلك الأغاني الباسمه
أيها العصفور
فحياتي الفت لحن الأسى
من زمان قد تقضّى وعسى
أن يثير الشدو في صمت الفؤاد
بلبل الأفراح
ففؤادي وهو مقبور الجراح
بتباريح الحياة الباكيه
ليس تستهويه ألحان السرور
وأغاني النور
ان من أصغى الى صوت المنون
وصدى الأجداث
ليس تستهويه ألحان الطيور
بين أزهار الربيع الساحره
وابتسامات الحياة الساخره
عن جلال الله
غنّي يا طير أنات الجحيم
واسقني الآلام
واترع الكأس بأوجاع الحياه
واسقني اني كرهت الابتسام
غنّي ندب الأماني الخائبه
والليالي السود
غنّي صوت الظلام المكتئب
انني أهواه

ولا شك أننا نشعر في أثناء قراءتنا لهذه الأغنية بوخز الألم في صدر الشابي ، فقد تحطمت قيثارته ، حطمتها كف الأسى في يد الأحلام ، وذابت نغمات الغرام بدنياه في غمرة هذا التحطيم . ان المرض يطعنه في الصميم ، في قلبه ، وهو يتطلع الى الحياة كشمس تغرب تحت عينيه ، وانه ليعجب فيما غناء العصفور انه لا يبعث حنينا ولا بشرا ولا حبا ، انه لا يبعث الا الذكرى التعسة

والاّ أنـّة الأوتـار وهـو لا يـريد بعد اليـوم أن يـرى الصباح ، ويسمع بلبـل الأفراح فحياته أصبحت ظلامـا مطبقا لا تعرف النور ولا تطيـق السـرور ، وكيف تعرفهما والمرض ينشر أجنحته السود فوقها . ولا تلبث رياح الخوف والذعـر أن تهـب عليـه مـن كـل مكان ، اذ يـرهـف سمعه ، فلا يسمع سوى أصوات الموت المدوية وأصـداء القبور المرعبـة ، وانـه ليـفـزع سمعه قـرع أجـراس تقترب مـن بعيـد ، بـل مـن قريـب في أحشـائه وسـويداء فـؤاده .

وهـذا كلـه يـرهـف حسّـه وأعصـابـه ، فيبكـي ويعلـو بكـاؤه ، ويتجـه الـى بعض الطير يطلـب اليـه أن يهجـر غنـاءه الفـرح القـديـم الـى أنـّات الجحيم ساكبا فـي كـؤوسـهـا الآلام وأوجـاع الحيـاة ، حتى ينهـل منـهـا مـا يشـفي ظـمـأه ، ويطفئ غلـّته . ويتوسـل اليـه فـي اسـى وحسـرة أن ينـدب لـه أمانيـه الضـائعة وليـاليـه السـود الموحشـة ، مـرتـلا صـوت الظـلام الكئيب ، وقـد أشـرفـت الحيـاة علـى المغيب فـي لجـّة الظـلام العميـق .

ولـم يستطع أحـد ولا شـئ أن يـرد الشابي عـن هـذا الشعور بخيبـة الـرجـاء ، غالمـلة تعصـف بقلبـه ، وهـو يـراقـب أمـلـه بالحيـاة وأحـلامـه ، فـيراهـا تتسـاقط على نحـو مـا تتسـاقط أوراق الخـريـف ، ألا فليـَبـكِ وليـُرسـِل الـدمـع مـدرارا ، ومـا قصيـدتـه أو أغنيتـه " مـأتم القـلـب " الاّ حبـات مـن هـذا الـدمع الـذى يتنـاثـر دائمـا مـن عينيـه ، وفـيهـا يقـول :

فـي الـديـا جـي
كـم أنـا جـي
مسمع القـبر بفصـا . تنهيدي وشجـونـي
ثـم أصغـي عَلـّني أسـ . مع تـردد أنيـتي
فـأرى صـوتـي فـريـد
مـات هـبي
مـات قلـبي
فـاذرفـي يـا مُقلـَة اللي . ـل الـدرارى عـبرات
فـوق قلبـي فهوقدود . ع أوجـاع الحيـاة
بعـد أن ذاق اللهيب

وثاني الأسباب التي تجعلـه يتـألـم بعـد مرضـه ، هـو هـذا الحب الـذى يرثيـه مع قلبـه حبـه للحيـاة ومـا يتألـق في بصـره مـن جمـالها الـذى يسـطع على الأشـياء والأشخـاص مـن حـولـه ، وانـه لـيـُريـد أن يعانـق هـذا الجمـال بكـل جـوارحـه ، فـتـرتـّد يـدّ سـوداء تخـرج لـه مـن الظـلام ، تنهاه أن يقترب فيبكـي ويئن

ويشعر كأن الدنيا بكل ما فيها من سعادة وجمال وفتنة قد فرت من تحت بصره ، ولم يعد له الا كهوف الموت يتعثر بين صخورها . ويا لبؤس الحياة حين يضغط المرض على قلب الشاعر وصدره ، فتسوّد الدنيا في عينيه ، ولا يجد ما يفرج عن كربته ، أو يكشف عن غمته ، حتى أمانيه فانها تهوى متساقطة تساقط الشهب ، ولم يبق للشاعر من دنياه الا الظلام الموحش ، والرؤى المزعجة والأشباح المخيفة ، أشباح الموت القاسي الغاشم الذى لا يرحم :

أرأيت شرور الفلا . . مترنما بين الغصون
جمد النشيد بصدره . . لما رأى طيف المنون

++××++

فقضى وقد غاصت أغا . . ريد الحياة الطاهرة
وهوى من الأغصان ما . . بين الزهور الباسرة

++××++

أرأيت أم الطفل تبـ . . كي ذالك الطفل الوحيد
لما تناوله بعنـ . . فساعد الموت الشريد

++++××++

أسمعت نوح العاشق الـ . . ولهان ما بين القبور
يبكي حبيبته فيا . . لصارع الموت الجسور

فالدنيا حوله ليس فيها الا أشباح الموت ، وبصره يشاهد هذه الأشباح جاثمة على صدر كل شئ : الشعاريز والأطفال والمعشوقات ، فيستفيث ، ويستجير ، ويأخذه الفزع من كل جانب . ولم يكن هناك وقت يزدحم عليه فيه الفزع كالليل ، اذ كان ينهال عليه المرض جَلْداً وَوَخْزاً وَطَعْناً ، وكأنه سياط من نار أو كأنه سيوف حامية فكان يخافه ويرهبه ويرتجف حين يدنو منه رجفة شديدة ، حتى ليطير عقله أحيانا ويطير صوابه ، اذ يشعر كأنه سيخنقه خنقا ، وأغنيته "أيها الليل" تصور محنته به ، وفيها يقول :

أيها الليل يا أبا البؤس والهو . . ل ويا هيكل الزمان الرهيب
أنت يا ليل ذرة صعدت للـ . . كون من مواطئ الجحيم الغضوب
يا ظلام الحياة يا لوعة الحز . . ن ويا معزف التعيس الغريب
فيك تنمو زنابق الحلم المذ . . بوتذوى لدى لهيب الخطوب
وفؤديك في ضفائرك السو . . داء تدمى الأيام أى دبيب

فالليل عنده رمز البؤس والهول وعذاب الجحيم ، وأى عذاب ؟ انه عذاب المريض الذى تغلق عليه دائرة حياته ولا تنفتح الا للآلام والوجع .

وانه ليحس في أثناء ذلك بالعزلة في هذا القفر الضيق الذى سجن وراء قضبانه ، اذ أصبح غريبا عن الحياة وسط دياجيره . بل وسط لهيبه الذى تتناثر فيه الزنابق أحلامه ، وانه ليسير وقد أسر الأيام والآمال في ضفائره السود ، التى قد تشبه أدق الشبه الأغلال والقيود . ويجمع الشابي أمره وينظر في كل هذا الهول الى أعماقه ، وسرعان ما يقول :

سدّدت في سكينة الكون . ن للاعماق نفسي لحظا بعيد الرسوب
نظرة مزّقت شغاف الليالي .. . فرأت لهجة الظلام الهيوب
ورأت في صميمها لوعة الحز . ن وأصغت الى صراخ القلوب
انما الناس في الحياة طيور . قد رماها القضا بواد رهيب
يصفه الهول في جوانبه السو . د ليقضي على صدى المندليب

فهو يسدد نظره الى الليل فلا يرى فيه الا أمواجا من الظلام قد رسبت في أعماقها لوعات الحزن والآمه وعويل القلوب وصراخها ، هذا الصراخ الذى يطنّ في قلبه طنين الناقوس ، وما يلبث أن يلقيّ سلاحه ، ويستسلم قائلا :

"ان الناس في الحياة طيور رماها قضا في واد الحزن والألم حيث يصفه الهول والرعب في جوانبه الداجية حيث الموت فاغر فاه . يلتهم كل ما يلقاه .

وعلى هذه الشاكلة أغاني الشابي ، فكلها حزن وبكاء ، وكلها ثمرة هذا الألم الذى كان يعصر قلبه عصرا . وكأن هذا الألم هو مبعث وحيه ومنبع شاعريته فلولاه على ما يظهر ، ما تحركت في داخل نفسه الباطنية عبقريته الشاعرة ، وتمايلت أغصانها في ظلمة المرض وهمومه وأوجاعه .

وثالث أسباب الألم الذى يعاني منه الشابي : الظروف التي كانت ترزح فيها أمته اذ وجد هذه الأمة ترزح تحت كابوس الاستعمار الفرنسي وتستشعر منه ألما مريرا وهو ألم ينبعث من قلبها وصميمها كما ينبعث ألمه من قلبه وصميمه ، فقد أذهلها الفرنسيون ، وحوّلوا حياتها الى جحيم لا يطاق .

وكان الشعب التونسي في مجموعه كالنائم ، لم يستيقظ منه الا الأقلون عددا ، ثاروا لأمتهم وثار معهم الشابي ثورة تغلغلت في أعماقه ، اذ تصادف أن كان مصقولا ، فأحسّ احساسا دقيقا بعلة أمته وبالمرض السياسي الذي يطحنها طحن الرحى تحت أنيابه ، انه الاستعمار البشع الفاشم ، الذي بكلاكله القى كلكله على صدر أمته ، وانها لتذوق منه ومن ظلمه وبطشه الأمرين ، فترفع رأسها تريد أن تحيا حياة حرة كريمة ، فينهال عليها ضربا وطعنا ، حتى تخر مهيضة الجناح ، وهي تئن أنين الثكلى ويهب الشابي في وجه المستعمر ، فيلطمه بمثل قوله :

ألا أيها الظالم المستبد . حبيب الفناء عدوّ الحياة
سخرت بأنات شعب ضعيف . وكفك مخضبة من دماه
وعشّشت تدنس سحرَ الوجود . وتبذر شوك الأسى في رُباه

xxxxxxxxxx

رُوَيْدَكَ لا يخدعنك الربيع . وصحو الفضاء وضوء الصباح
ففي الأفق المرهب هول الظلام . وقصف الرعود وعصف الرياح
ولا تهزأنّ بنوح الضعيف . فمن يَذْرِ الشوك يجن الجراح

xxxxxxxxxx

تأمّلْ هنالك أنّى حصدت . رؤوسَ الورى وزهورَ الأملْ
وريّت بالدم قلب التراب . وأشرقته الدمع حتى ثمل
سيجرفك السيل سيل الدماء . ويأكلك العاصف المشتعل

فهو يسجل على عدو شعبه ظلمه واستبداده وما يسفح من دماه الزكية، وانه ليدنس رباه الطاهرة بما يغرس فيها من شوك الأسى والألم، ويقول له :

مهلا لا يخدعنك ما ترى من الصحو وابتسام النور في الربيع، فستعصف بك عما قريب ريح صرصر عاتية، تجرفك هي وأمواج الدماء التي أسلتها دموعا حمراء في جنبات الوطن، ان كل ذلك سيلتف بك ويبتلعك في جوفه ابتلاعا .

وهذا الشعر السياسي أو الوطني كان منتشرا في كل بلاد الشرق الأوسط : في مصر والشام والعراق ، ولكن شاعرا لم يبلغ في هذه البلدان ما بلغه الشابي في تونس من حدة الاحساس وعنفه .

حقا نجد عند حافظ والرصافي وأضرابهما تعبيرا سياسيا أو وطنيا مستحدثا في لغتنا ، ولكننا لا نجد عندهما هذا الاحساس الحاد الذي يجعل الشاعر يحسّ في أعماقه الآمّ أمّته وأوجاعها تلقاء المستعمر الظالم، فينتفض ويزأر في وجه الغاصب زئير العاصفة، على نحو ما يزأر الشابي اذ يقول :

ألا أيها الظالم المستبد . رُوَيْدَك ان الدهر يبني ويهدم
أغرّك أن الشعب مغض على قذى . لك الويلُ مِنْ يوم به الشر قشعم
سيثأر للمرّ المحطم تاجه . رجال اذا جاش الردى فهو هم
رجال يرون الذل عارا وسبة . ولا يرهبون الموت والموت مقدم
ألا ان أحلام البلادِ دفينة . تجمجم في أعماقها ما تجمجم
ولكنّ سيأتي بعد لأيٍ نشورها . وينبثق اليوم الذي يترنم
هو الحق يبقى راكدا فاذا طغى . بأعماقه السخط العصوف يدمدم
وينحط كالصخر الأصم اذا هوى . على هام أهنام العتو فيهدم

وهو في هذا الزئير الذي يدمدم فيه دمدمة الأسد لا يقف في صف أمته فحسب ، بل بل هو ينطق بلسانها وروحها ويعبر عن ضميرها ومكنون أحلامها وأنها لا بد يوما أن تثأر لكرامتها وحريتها التي ذبحها المستعمر ذبحا وولغ في دمها وما يزال الدم عالقا بفمه ، انه يوم البعث والنشور ، يوم الحق الذى يهوى فيه نجم الباطل .

واذا كان الشابي هان يوما وذل أمام الصعاب وأمام مرضه الذى يعيش في قلبه ، فانه لم يهن ولم يذل أبدا أمام المستعمر بل ظل قويا متحفزا ، يريد أن ينشب أظفاره فيه ، بل أظافر شعبه ، ومن أروع ما يصور ذلك أنشوده " ارادة الحياة " والتي يقول فيها :

اذا الشعب يوما أراد الحياة . فلا بدّ أن يستجيب القدر
ولا بدّ لليل أن ينجلي . ولا بدّ للقيد أن ينكسر
ومن لم يعانقه شوق الحياة . تبخّر في جوها واندثر
كذالك قالت لي الكائنات . وحدّثني روحها المستتر
ودمدمت الريح بين الفجاج . وفوق الجبال وتحت الشجر
اذا ما طمحت الى غاية . لبست المنى وخلعت الحذر
ولم أتخوف وعور الشعاب . ولا كبة اللهب المستعر
ومن لا يحب صعود الجبال . يعش أبد الدهر بين الحفر
وأطرقت أصغي لمزف الرياح . وقصف الرعود ووقع المطر
وقالت لي الأرض لما تسائل . تيا أم هل تكرهين البشر ؟!

أبارك في الناس أهل الطموح . ومن يستلذ ركوب الخطر
وألعن من لا يعاشي الزمان . ويقنع بالعيش عيش الحجر
هو الكون حي يحب الحياة . ويحتقر الميت الجامد
فلا الأفق يحضن ميت الطيور . ولا النحل يلثم ميت الزهر
فويل لمن لم تشقه الحياة . من لعنة العدم المنتصر

وهذا الشعر كله قوة ، وكأن الشابي يريد أن يبعث أمته ، فلم نفسه ونفخ في الصور ، لعلها تحيا من جديد ويحيا معها ميت الأمل ، انه يريد أن ينقذ الضحية من يد جزارها ، وهو يدفعها لعلها تثور ثورة فيها جرأة وفيها قوة وفيها مخاطرة ، حتى تفتدى نفسها ، بل حتى تثأر لكرامتها وعزتها الطريحة .

ويستمر الشابي في بقية الأنشودة مقبلا على دنياه فهو طموح ، قد خلع عنه رداء التشاؤم ، وكأنما أحس الحياة وتألقت فيها إرادتها ، وأراد أن يعكسها على أمته لتهب من رقادها ، وتنفض غبار الذل والاستكانة عن بصرها وبصيرتها .

ويمر به الليل فلا يؤذيه ، بل ينتشي فيه ويسكر من ضياء نجومه وينا غيه ، ويشعر بظمأ ه للتنهل من نهر الحياة ، ويقبل عليه يريد أن يَعُبَّ منه ، كما يقبل على النور يريد أن تكتحل به عيناه .

ورابع أسباب ألمه : موقف أعدائه منه وخاصة هؤلاء الذين لا يقدرون أدبه وشعره ، ولم يكن يثور الشابي لشعبه من دونه ، بل كان يثور أيضا لنفسه ثورات شخصية ، فقد أصيب بخصوم لا يقدرون له أدبه وشعره ، وكان هذا يحزّ في نفسه ويؤلم صدره ، وكان اذا عاد له شئ من نقاهته حوّل بصره اليهم فأنشد أناشيد مدوية تأخذ بأسماعهم وأبصارهم من مثل نشيد "الجبار" الذى يصور تمسكه بارادة الحياة وهو يستهله بقوله :

سأعيش رغم الداء والأعداء . . كالنسر فوق القمة الشماء
أرنو الى الشمس المضيئة هازئا
بالسحب والأمطار والأنواء
لا ألمح الظل الكئيب ولا أرى . . ما في قرار الهوّة السوداء
وأسير في دنيا المشاعر حالما . . غردا وتلك طبيعة الشعراء
وأقول للقدر الذى لا ينثني . . عن حرب آمالي بكل بلاء
لا يطفئ اللهب المؤجج في دمي . . موج الأسى وعواصف الأرزاء
فاهدم فؤادى ما استطعت فانه . . سيكون مثل الصخرة الصمّاء
لا يعرف الشكوى الذليلة والبكا . . وضراعة الأطفال والضعفاء
ويعيش كالجبار يرنو دائما . . للفجر، للفجر الجميل النائي

ويمضي في هذا الصوت القوى معلنا أنه لن يهتم بالقدر وما يضعه في طريقه من مخاوف الليل وزوابع الشكوك وصواعق البؤس ، فسيسير بروح عالم متوهج بالنور، ولن يلقي بالاً ولا اهتماما لما ينشره حوله من ظلام حالك .

وحتى ان هو وافاه القدر المحتوم فسيكون سعيدا لتحوله عن عالم البغضاء والاثام وهذه الوجوه المقبّرة من حوله التي تود لسوتداعى بناؤه، بل انهم ليشعلون النار يريدون أن يشووا عليها أشلاءه، ويتوجه اليهم بخطابه :

ان المعاول لا تهد مناكبي . . والنار لا تأتي على أعضائي
فارموا الى النار الحشائش والحبوا
يا معشر الأطفال تحت سمائي

وكان يألم على ما يظهر أشد الألم لما يزدرى هؤلاء الخصوم من شعره وفنه، وكأنه لم يعرف أن هذه عادة النفوس الصغيرة ، فأصحابها كالنباتات الطفيلية ترى الشجرة الباسقة وقد علت رأسها وتمادت في السماء ، فتلفّ بها تريد أن تصعد اليها

وتود لو تجهز عليها فتستريح منها ومن علوها ، { وما بأيديها ولا بأيدى أعداء الشابي وأمثاله أن يمنعوا صعود الجبال والأشجار إلى عنان السماء ، وما كان لهم أن يطفئوا نور العبقرية أيّة عبقرية من العبقريات أراد الله لها أن تضيئ وتتألأ لا رغم أنوفهم .

وعلى هذا النحو لم يكن الشابي يلق خصومه بشيء من التسامح ، فقد كان حاد الحس والشعور فتحوّل يقذفهم بهذه الحجارة يريد أن يدمي رؤوسهم ، ووسع الدائرة التي يقذف بها حجارته فلم يقف بها عند طائفة معينة من شعبه ، بل ربما عمّ بها الشعب كله في ساعة من ساعات غضبه ، فاذا هو يصب عليها طوفانا من الأحجار حتى ليقول :

أيها الشعب ليتني كنت حطا ... با فأهوى على الجذوع بفأسي
ليت لي قوة الأعاصير يا شعبـ ... ـي فألقي اليك ثورة نفسي
ليت لي قوة الأعاصير لكن ... أنت حيّ يقضي الحياة برمس
أنت روح غبية تكره النو ... ور وتقضي الدهور في ليل ملس
في صباح الحياة ضحت أكوا ... بي وأترعتها بخمرة نفسي
ثم قدمتها اليك فأهرقـ ... ـت رحيقي ودست يا شعب كأسي
ثم نضدت من أزاهير قلبي ... باقة لم يمسها أيّ انسي
ثم قدمتها اليك فمزقـ ... ـت ورود وودستها أيّ دوس
ثم ألبستني من الحزن ثوبا ... وبشوك الصخور توجت رأسي
ها أنا ذاهب الى الفلك يا شعـ
ـبي لأقضي الحياة وحدي بيأس

ولا يمكن أن تفسر هذه الثورة على شعبه الا بأنه كان يستقبل شعره استقبالا فاترا فصب جام غضبه عليه ، حين راح لا يعرف مواهبه ، ولا يستقبل أناشيده بالحرارة التي يجب أن يستقبل بها ، وربما كانت ثورة خاصة فمهما فهو يثور على خصومه ممن ينكرون عبقريته الشعرية ويتسع نطاق ثورته الى الشعب جميعه . على كل حال هي ثورة عابرة في أشعاره ومثلها مثل الدواسة تظهر على الماء ثم تتمحى ، وكانت حياة الشابي كدرة كدّرها المرض والآمه ، (١) .

وغامس هذه الأسباب التي تدعوه الى الألم هو وفاة حبيبته ، ولقد مات حبيبته في صباها وتركت له سيلا من الألم والذكريات الحزينة ففي قصيدته "جدول الحب" يقول :

يا جدول الحب كانت حياتي كالسماء الباسمه
واليوم قد أمست كأعماق الكهوف الواجمه
هو جدول الحب الذي قد فجرت ينبوعه في مهجتي
أجفان فاتنة أرتنيها الحياة لشقوتي

---

(١) : دراسات في الشعر العربي المعاصر للدكتور شوقي ضيف ص١٤٣ — ١٥٧ .

أجفانِ فاتنةٍ تراءت لي على فجر الشباب .

كعروسة من غانيات الشعر في شفق السحاب

ثم اختفت خلف السماء وراء ماتيك الغيوم

حيث العذارى الخالدات، يمسّسنَ ما بين النجوم

قد كان ذا بالأمس ، بالأمس البعيد

والأمس قد جرفته متهورا ، يد الموت المتيد

بل لقد كان لها أيضا في نثره أثر . ففي مقاله "صفحات دامية من حياة الفنان" نراه يبكي هذا الحب الطفولي الطاهر، فيبكي فيها حياة مشرقة وألحانا رواقص من حبها السعيد ثم نراه يندب في نهايته ذلك الأمس السعيد الذى كان فيه ينعمان بالحب والسعادة دون رقيب أو نذير، ولا نظن هذه الصفحات الا أن كانت عن حبه هو وحياته ، هو قال :

" . . . تلك كانت حياتي بالأمس، حينما كنت بخورا يتضوع في معبد الحب، ورحيقا يهرق تحت أقدام الجمال ، وأنشودة تلهيه تتغنى في هيكل الوجود " .

ويقول :

" . تلك كانت حياتي بالأمس، أما اليوم فقد انكسرت بين ثلوج الموت تلك الزهرة السماوية الطاهرة التي كانت تحببُ لي البقاء في هذا العالم وبقيت وحدى بين الصخور أشبب بالموت، وأتغزل بأهواء القبور " .

وسواء كنا نعرف قصة حب الشابي في صباه أو لم نعرفها تامة الفصول فاننا نستطيع أن نقول : أن الشابي في صباه قد أحب حبا عذبا جميلا ، وكان موت حبيبته صدمة عظيمة على قلب الشاعر حتى أن صديقه زين العابدين السنوسي ليعلق أن صدمة الشابي في حبه كانت من أسباب مرضه . (١) .

ويؤيد السنوسي فيما ذهب اليه من أن موت حبيبته كان صدمة عنيفة عليه ولكنه لم يشأ أن يعزو اليه حزن الشاعر وألمه وحجته أن الشباب أو الشعراء الذين عانوا مثل تجربته في مثل عمره كثيرون ، ولم تستطع أشعارهم بهذه الصبغة القاتمة ، وراح يبحث عن تفسير آخر لكآبته غير تفسير الحب فيقول :

" . . . أما أحواله الخاصة فقد كان في درجة محمودة من العيش، ولم يعرف عنه التهالك على حب الملذات والحياة ، وأما مرضه فقد صادفه شاعرا كامل الأداة فليس في أحواله الخاصة كذلك ما يعلل أحزان هذا الشاعر . فاذا نظرنا الى أحوال تونس الأخلاقية والاجتماعية والسياسية أيضا فاننا نجدها تورث الحزن لا محالة . ولكن كم هم الشعراء الذين زاملوا أبا القاسم الشابي ، ولم تستبد تلك الأحزان بأشعارهم ؟" .

كل هذا في نظر الكاتب "روافد متممات" . . انما ينبغي عنده أن يطلب

---

(١) : الشابي شاعر الخضراء ـ حمدى عبد الوهاب ص ١٨ـ١٩ .

تعليل الآم الشابي داخل نفسه ، ويبحث عن التعريف لكآبته المجهولة في نظرته للأشياء لاغير ، لأن البحث عن غيرها غير مجد ، وتعليق هذه الآلام بأمور أخرى خارجة عن ذاته لاغير تركن اليه النفس" .

والكاتب يعني بداخل نفسه : " يقظة شعور الشابي التي ركلت ما حولها" ويقدر الكاتب أن الشاعر لو عاش: " بهذه الشعور لم يرافقه حنين الى حياة أخرى ، لكان من الواضح أن يشتمل شعره على اشراق وبهجة ، تنسينا أحيانا تلك الغيوم من السأمة والضجر" .
أى أن حلم الشابي الشاعر بحياة اخرى يعزز يقظة الشعور في تلوين شعر الشابي بصيغته القاتمة ، وهو كما يبدو من صياغة الكاتب ليس من الروافد المتممات فحسب ولكنه يقاسم الأهمية مع السبب الذى التمسه الكاتب تفسيرا لحزن الشابي ويقظة شعوره .

وأما الدكتوره ـ نعمات أحمد فؤاد ـ فهي ترى أن جميع العوامل السابقة من مرض ، وفقد أحبة ، وتعاسة وطنه في أيامه ، ويقظة شعوره ، كلها عوامل لا يكاد يرجح أحدها على الآخر في تعليل ألمه بل انها تتساوى تقريبا في الوصول الى هذا التعليل . (١)

كفاح الشابي :

لم يكن الشابي شاعرا تشاؤميا حزينا منطويا على ذات نفسه ، فيبتعد عن الحياة وعن المجتمع ، وانما كان انسانا حساسا مرهف الحس يكاد احساسه بالأحداث والانفعالات يصل درجة الكمال ، وهكذا مضى الشابي ينفعل بأحداث مجتمعه ومساويه ، والشابي لايمكن أن يساير حياة الاستكانة والضعف ، حياة يسيطر عليها الجمود والموت ، حياة ترفرف عليها أسراب الرجعيين الاستعماريين بأجنحتها السوداء ، فتظلم عليه الجو ولا يرى من نور الشمس الا قدرا قليلا ضئيلا ، كان عليه اذن أن يكافح ليبني المجتمع الذى يريده ويتمثله ويهدم الحواجز التي تعوقه ، ولم يكن الشابي قائدا عسكريا حتى يشنها انقلابا يطيح بالمتجبرين عن عروشهم ، ولا زعيما سياسيا حتى يدعو الى الاضراب ، والمظاهرات حتى يفرض على الشعب رأيه وان كان فعلا قد فعل شيئا من هذا في أثناء دراسته في الجامعة الزيتونية ، وانما كان شاعرا فنانا لا يملك سوى روحه وشعره وقلبه ، فذوب شعره قربانا البلده وشعبه ،

---

(١) : شعب وشاعر ـ الدكتوره نعمات أحمد فؤاد ص٤٨ .

وراح يشدوا على قيثارة الشعر أروع أغانى الكفاح ، وراح يبث الثورة فى نفوس الجامدين الخامدين المستذلين ، وراح يندد بالظلم ويدعو الى الحرية والبناء ، وكانت قصائده للشعب ترانيم سماوية خالدة ومبعث نور وقوة خارقة فى الأدب وطرق الانبعاث القومى والانسانى الحر .

واذا كنا نرى فى تونس اليوم نهضة سياسة و أدبية واجتماعية فنحن مضطرون الى أن نعود الى كفاح هؤلاء الأوائل الذين وضعوا حجر الزاوية فى بناء صرح النهضة بتونس الحديثة : أمثال أبو القاسم الشابى ـ والطاهر حداد محرر المرأة ـ وخير الدين باشا المصلح العظيم وغيرهم من رجال الاصلاح والبناء والتعمير ، ويمكن تلخيص كفاح الشابى فى عنصرين هامين هما :

١ ـ رسالة الشابى التحررية .

٢ ـ كفاحة فى سبيل هذه الرسالة .

أولا : رسالة الشابى

هذه الرسالة التى نتحدث عنها اليوم لم يختلقها الشابى اختلاقا ، ولم يفرضها على مجتمعه ، وانما فرضتها عليه ظروف مجتمعه الجامدة الرجعية الظالمة ، فمن أول يوم من أيام دراسته بالزيتونه نجده ثائرا على أنظمة تدريس الكتب القديمة المصّفره المتعفّنه ، ومن أول قصيدة فى شعره نلمس منها ثورة على أنظمة الشعر العربى التقليدى المطبوع بكل ما فيها من أدران وتفاهات ، فلقد كان مؤمناً بالشعر كقضية ومبدأ ورسالة وليس كنظم يراد به أغراض تافهة من مدح وهجاء وعرضيات .

ولقد أوضح الشابى رسالة التجديد كلها فى مقال واحد هو (يقظة الاحساس) ويقظة الاحساس هى تلك الفلسفة الشاملة التى عرضها الشابى فى سائر اليادين فى المجتمع وليس أقدر على شرح فكرة الشاعر الا ايراد مقتطفات من مقاله :

قال الشابى معبرا عن هذا الأمل الذى يراوده فى كتابه الخيال الشعرى عند العرب .

يقظة الاحساس و أثرها فى الفرد والجماعة :

" تسمع لهذا الشاعر فاذا أنت أمام روح الهى نبيل يسمو بنفسك الى آفاق الحق والفن والجمال ، ويجعل منك كتلة من شعور قدسى مشبوب ، وتسمع لآخر فترى أنك تسمع لحديث ساذج بسيط لا يميزه من أحاديث الناس العادية الا رنة النغم ، وتواتر القوافى وجمال التعبير ، وتسمع لغيره فتخال أنك تجلد بالسياط أو تساق الى الموت !! " .

" وهذا شعب من شعوب الأرض يجد ويكدح وينتج ويخصب أينع الثمار و أحلاها فاذا له حياته الأدبية الناضجة ، وحياته العلمية الراقية ، وحياته العادية المهذبة ، وشاعره الطامحة الى ما هو أجل من ذلك و أسمى ، الى المثل الأعلى المحجب فى الظلام ،

وهذا شعب آخر منصرف الى التبطل والفراغ ، مخلد الى الكسل الخمول ، لا يعلم ولا يعمل ولا ينتج ولا يجود على الانسانية بخير ، ليس له فن ولا علم ولا أدب ولا طموح بل ولا حياء أيضا الا كما تحيا ماشيته فى الحقل وآبدة الجبل ، فما السر فى هذا التفاوت الواضح بين هؤلاء ؟ " .

ستقول الحرية ، فكلما كان الفنان حراً فى فنه اكتشف آفاق جديدة من السحر والجمال وبذلك يسمو على غيره ممن لا يعطى فنه حرية الحياة ، وهذا حسن لولا أنه ان صح صرفه الى الفنان فانه لا يصح صرفه الى الشعوب ، لأنك كثيرا ما تجد الشعب حيا منتجا تزخر فى عروقه دماء الحياة وعزمها ، ومع ذلك لا يملك من الحرية ما يتكافأ مع حيويته وانتاجه وهو فوق ذلك تعليل للشئ بغير علته .

وعندى أن السبب الحقيقى لذلك هو " يقظة الاحساس " لأن حرية الفنان فى فنه انما هى أثر من آثار هاته اليقظة الروحية وثمرة من ثمارها ، فاذا ما تيقظ الاحساس فى قلب الشاعر والفنان — بتعبير أشمل — كان له — بالرغم منه — استقلاله الذاتى الذى يشعره بأنه قوة حية منتجة ، من المستحيل أن تندمج فى سواها ، وألا تشق لنفسها سبيلا بكرا للمجد والحياة ، وكانت له كرامة تترفع عن أن تذوب فى غيرها ، أو ان تنحط الى درك التقليد ، وبذلك تصبح نفسه شعلة نامية حية تتوهج فى قلب الحياة ، وطائرا سماويا يتغنى بأفكار البشر وأحلامهم .

واذا تيقظ الاحساس فى نفس الشعب ، وروح الأمة ، تحركت فى صدره — برغم كل شئ — تلك الأشواق الطامحة ، والرغبات الجامحة ، التى كانت مكبلة نائمة فى ليل الدهور واذ ذلك يشعر بنفسه — واذا قلنا يشعر بنفسه فقد قلنا كل شئ — ويعلم أنه عضو فى هاته الجامعة البشرية ، عليه واجب السعى والعمل فى سبيل كفاح الانسانية المنشودة .

وان شعبا يكون مستيقظ المشاعر ، متسع جوانب الحياة ، لجدير بأن يستخرج من الحياة خير ما فيها من فن وصحة ، وان فناً يكون مصدره ذلك العطش الروحى الذى يلهب النفوس ، وتلك العواطف الثائرة التى تعصف فى قلب الشعب ، وبعبارة أخرى ان فناً يكون مصدره تلك اليقظة الروحية العميقة التى سميناها " يقظة الاحساس " لهو الفن الحى فى صميمه ، الفن الذى لا ينصرف الى القشور ولا يقنع بما دون اللباب "

" ومن هنا تفهم معنى أن يقظة الاحساس هى روح الحياة المنتجة الولود ، التى تصقل العبقرية وتؤجج نيران النبوغ " .

هكذا اذن عبر الشابى عن فكرته ، وآمن بها وطبقها على سائر مجالات الحياة بل لقد دعا اليها أيضا فى شعره :

لا ينهض الشعب الا حين يدفعه .. روح الحياة اذا ما استيقظت فيه

هكذا اذن كانت للشابي رسالته التي فرضتها ظروف مجتمعه ، هي رسالة التجديد والتطور والبناء والاصلاح ، ولقد كان رواد التجديد ممثلين في جمعية قدماء الصادقية ، فانضم الشابي اليها وعلى منبرها دعا دعوته التجديدية الأولى ممثلة في محاضرته الخيال الشعري عند العرب.

كانت رسالة الشابي أن يبعث الروح في الشعب الساكت الجامد ، وأن يبعث الثورة في النفوس ، وأن يدلّهم على نواحي الجمال والحب والرحمة والحنان والتطلع الى مناحي الجمال والافتتان بها والايمان بالحياة ، والايمان بالحرية كحق مقدس لكل انسان ، هذه كانت رسالة الشابي في السياسة والمجتمع والأدب وسنتعرض لها بالتفصيل .

الشابي ومأساة وطنه :

كان من أهم نواحي رسالة الشابي الوطنية الدعوة الى الثورة والتجديد فلقد كان شاعر الثورة والقوة ، ولم تكن ثورة الشابي ثورة مدمّرة مهدّمة ، بل كانت ثورة حية ترمي الى الاصلاح والبناء ، كانت ثورة على الظلم والظالمين ودعوة الى الايمان بارادة الحياة الحرة ، تلك الحياة التي تكره الجمود والخمول والخمود ، فذلك نوع من الموت.

كانت رسالته أن يعيش الشعب حرا غير مقيد أو مأسور ، وكانت رسالته هي أن يعرّف الشعب بالنور وان يدعوه اليه ، الى الحرية والبناء والثورة على الظلم والظالمين والطغيان والاستعمار رمز العبودية .

الى النور فالنور عذب جميل . الى النور فالنور ظل الاله

ولقد كان الشابي مؤمنا ببلاده ومستقبلها ، محبا لها مؤيدا لحريتها داعيا الى تقدمها ، ولقد عبّر الشاعر عن هذا كله في قصيدته الرائعة تونس الجميلة حيث قال :

ضيّع الدهر مجد شعبي ولكن

ستري الحياة يوما وشاحه

لقد آمن الشابي بوطنه وكان دائما يؤكد أن في أعماق هذا الشعب التونسي ثروة روحية ضخمة وفنا قويا ، ولكنها ثروة مهملة وفن غير مصقول وان في طبيعة هاته البلاد سحرا يلهم الصخر أسمى معاني الجمال وأروع الأفكار لو كان للصخر مشاعر حية ، واعية ، وان الداء كل الداء في الألسنة المعبرة ، لا في روح الشعب وطبيعة البلاد .

ولقد كان من رسالة الشابي أن يندد بالظلم والظالمين ، وأن

وأن يفضح مؤامرات الاستعمار وأكاذيبه ، ولقد كان ناقما على استعباد الانسان للانسان ثائرا على الظلم أينما كان ، فطالما كان هنالك ظلم وظالمون ، وطالما هنالك سيد ومسود هنالك موت وجمود وخمود ورجعية ، ولقد كان الشابي في نقمته على الظلم والظالمين يحفز الشعوب على الكفاح والثورة اذ يقول :

سيثأر للعز المحطم تاجه . رجال اذا جاش الورى فهم هم
رجال يرون الذل عارا وسبة . ولا يرهبون الموت والموت مقدم

ولطالما حذر الشابي الظالمين ثورة المظلومين مؤمنا بأن الحق لا بد أن ينتصر وأن ينشر لواءه :

حذار فتحت الرماد اللهيب . ومن يبذر الشوك يجن الجراح

ولقد كان الشابي يهاجم الظلم والظالمين ليفسح الطريق أمام الشعب ليعيش ويتحرر ويبني ويصلح ، وكان يحارب الأوهام والخدع الاستعمارية والسياسات الماكرة ، التي تدعو الى الاندماج .

ولقد دعا الشابي الشعب الى أن يجدد حياته ويطور مجتمعه وأن يعيش حياة مستقلة تنمو فيها شخصيته وذاتيته وروحه ، فهو في ايمانه بشعبه ومستقبله نراه يسائل شعبه قائلا :

أين يا شعب قلبك النابض الحساس ؟ أين الطموح والأحلام ؟

xxxxxxxxx

خلقت طليقا كطيف النسيم . وحرا كنور الضحى في سماه
فمالك ترضى بذل القيود . وتحني لمن كبلوك الجباه ؟
ألا انهض وسر في سبيل الحياة
فمن نام لم تنتظره الحياة

ولقد أعلنها حربا شعواء على المفكرين المنعزلين عن المجتمع وجمودهم القابعين في أبراجهم العاجية ، وكانت رسالته أن يدعو الشعب الى الحياة المتطورة المتجددة ، وكانت رسالته أن يصعد بروح الشعب الى آفاق النور وسماوات الايمان بالحياة ، والثقة بنفسه وبغده ومستقبله والاحترام لماضيه والايمان بالمدخرات الهائلة في أعماقه .

ولقد عاش الشابي مأساة الشعب كله بقلبه وروحه الحساس ، وحاول أن يبعث فيه الروح والثورة على الموت والايمان الصادق بانتصار الحياة ، الحياة الحرة الكريمة المتجددة المطردة ، فهو أول من عاش مأساته الخاصة في مأساة شعبه كله . وبدأت رسالته الى الوعي الاجتماعي المقدس الذي يؤمن بالحق والحب والخير ايمانه بالله — والذي يحرف مواطن الجمال ويبتغيه في الروح الانسانية ، وفي الجمال الطبيعي الفتان .

الشـــابي ومـــأســـاة مجتمعـــــه

كـان المجتمـع التـونسي فـي مبـادئ القـرن الحـالـي مجتمعـا مفكـكـا ، ضـائعـا يتغشـى فيـه الجهـل والظـلام ،وتلتـف حـولـه قيـود الآراء الاجتمـاعية الرجعيـة الكثيفـة تلـك الـتي كـانت تسيـطر عليـهً مـن كـل نـاحيـة : مـن الناحية المـاليـة والاداريـة والأدبيـة.

وعلـى الرغـم مـن تلـك الاشـاعـات الثـوريـة الـتي كـانت قـد تسربـت خلال تلـك الظلمـات الـى هـذا المجتمـع، فـان هـذه الثورات والأفكـار لـم تكـن لتنتشر علـى نطـاق واسـع،اذ هـي فقط قـد انتـشرت فـي جمـاعـة مـن الشبـاب يعدون قلـة وهم المثقفـون ،أمـا البـاقـون وهـم الأكـثريـة والسـواد الأعـظم مـن الشعـب فقـد كـانـوا مستسلمين لتـلك الأوضـاع الفـاسـدة :

" استسلام العنـاصر غـير العاقلـة لمشيئـة الأيـام والليـالـي " كما يقول جبران

فـالمجتمـع العـربي فـي هـذا الحين كـانـت تسيطر عليـه الرجعيـة بأفكارهـا العقيمـة الـتي تـدعـي أن كـل مجـدد ثـائر عـاق للـدين عـاص للـه! وكان يكفي الفئـة الحـاكمـة مـن شيـوخ الـدين بتونـس أو غـيرهـا أن يـدعـو للشعـب فـي المنـابر أن تقـاليـده مسخت وأن قـدسيـاتـه امتهنـت،وأصنـامـه المعبودة حطمـت كـان هـذا يكفـي حـتى يثـور الشعب الجـاهـل الضليـل علـى الثـائرين المجـددين وأن تحـاربهـم الجمـوع الغفـيرة أينمـا حلّـوا،ممـا يؤدي بـلا شـك الـى ضيـاع جهـودهم وثـوراتهـم التجـديديـة هبـاء.

وكـان ثمـة عامل آخـر غير هذه الرجعيـة المتحلـة ،انهـا القوى الفرنسية الاستعمارية فلقد كان من مصلحـة الاستعمار أن يظل الشعـب فـي غفوتـه نـائما مسترسلا في نومه لا يحـرك سـاكنا للانتفاضـة على المستعمرين ،وهم يمتصـون ثروتـه ويستغلون بـلاده ، وامكـانيـاتـه ،وكـان الاستعمار الفـرنـسي يعمـل علـى نشر الفقر والجـهل والضـلال والمـرض وسـائرا لأوصـاب الـتي تعمـل علـى قتل روح الحيـاة فـي المجتمع،وأين لانسان فقـير مـريض جـاهـل ،لايجد مـا يسد رمقـه أن يثـور وأن يدافـع عـن حقوقـه وأن يعرف الحق من الباطل ؟.

هكذا اذن نرى المجتمع التونسي في هذا الحين مجتمعة عليه كل وسائل الهدم،وقد تضافرت عليه كل قوى العدوان والشر: من رجعية متآمرة جاهلة في ذاتها ،الى قوى استعمارية متعسفة غاشمة ،الى مفكرين دينيين ليسوا من الفكر في شيء ،وانما هم أموات يتنفسون ويتحركون ،موتى بعقولهم وتفكيرهم ومعلوماتهم ،أحياء بأجسامهم. وما أذل حياة فيها موت للعقل والقلب والروح وحياة للجسد انها لحياة حيوانية ليس فيها من الانسانية شيء.

هـكذا اذن كـان المجتمـع الـذى عـاش في ربوعـه الشـابي ،مجتمع محطم

متهالك مستعمر تسيطر على أفكاره الرجعية الخائنة المتحجرة ، مجتمع ليس فيه من مفاهيم البشرية أو مبادىء العدل الانساني سوى صورة مشوهة وكلمات رنانة ، فهل كان على الشابي الشاعر المجدد المؤمن بالحياة وتطورها هل كان يستطيع أن يساير مجتمعا مثل هذا ؟

لقد كان من المستحيل أن يعيش الشابي بثورته وايمانه وقوته وحيويته مع هذه الأنظمة وهذه الصورة من المبادىء الزائفة ، وكان من المستحيل على شاعر وقّاد الفكر مشبوب العاطفة ، رقيق الاحساس أن يرضى عن هذا المجتمع ، وأن يساير هذا النوع الحيواني غير الانساني من الحياة فماذا تراه يفعل ؟.

لم يكن الشابي يملك سوى قلبه وروحه وفنه ، فما هو بقائد عسكري ولا سياسي ولا هو بشيء من هذا القبيل بحيث يستطيع أن يشنها ثورة دامية على هؤلاء المتجبرين ، وضد هؤلاء المستعمرين الغاصبين الفاسدين وانما كان شاعرا والشاعر لايملك سوى روحه وفنه ، كان شاعرا مرهف الحس مشبوب العاطفة والشعور ، قوى العزيمة راسخ الايمان ، فما كان منه الاّ أن ثار على القيود ، وصدحت أشعاره بدعوة صارخة الى التجديد والبناء والاصلاح .

حارب الشابي الأوهام والخدع والمؤامرات الاستعمارية ، وراح يدعو الى هذا التفكير القدرى المبني على الاستسلام ، الذى فرضته القوى الرجعية باسم الدين وما هو من الدين بشيء ، وأخذ يدعو الى حياة جديدة ووعيّ جديد وفهم جديد لمشكلات المجتمع ، أعلن هذه الرسالة في كتابه الأول "الخيال الشعرى عند العرب" بجرأة وحماسة نادرتين قال :

". . لقد أصبحنا نتطلب حياة قوية مشرقة ، ملؤها العزم والشباب ومن يتطلب الحياة ، فليعبد غده الذى في قلب الحياة ، أما من يعبد أمسه وينسى غده ، فهو من أبناء الموت وأنظار القبور الساخرة ، بل لقد عبر عنها في شعره أيضا فقال :

والناس شخصان ذا يسعى به قدم
من القنوت وذا يسعى به أمل
هذا الى الموت والأجداث ساخرة
وذا الى المجد والآمال تتصل

وقد بين صورة هذا المجتمع المثالي الذى يريده ومثله في مجتمعه الطبيعي ـ الطبيعة الخالدة ، أو الغاب ، فهنالك يرى الشابي أن المجد والأخوة والصداقة والمحبة والحب والاخلاص والخير ـ كل هذه تجدها

في الطبيعة ، وهذه ولا شك صور انسانية يريدها الشابي أن تتمثل في مجتمعه التونسي ، ولكن أنّى له ذلك فالشوط طويل والحرب سجال بين القوى التقدمية الانسانية المتجددة وبين التقاليد المتعفنة والرجعية المتآمرة ، وتلك الهيئة الخائفة الذليلة التي تأبى أن تترك تفكيرها الرجعي القدري وأن تساير ركب التقدم والتطور :

كلما قام في البلاد خطيب . سوقظ شعبه يريد صلاحه
أخمدوا صوته الالهي بالعسـ .ف أماتوا صداحه ونواحه
ألبسوا روحه قميص اضطهاد .. .فاتك شائك ،يرد جماحه
هكذا المصلحون في كل صوب
رشقات الردي اليهم متاحة
غير أنّا تنا وبتنا الرزايا . .وأستبيح الحمى وأنّى استباحه

ولقد دعا الشابي الى القضاء على أوصاب المجتمع تلك ورزاياه ، وذلك بأن يؤمن كل انسان بنفسه وروحه وبلاده ، وأن يعمل على خلاصها من كل اثم وشر ،وأن دعوته الى الاستقلال الذاتي ونموّ الشخصية الفردية من أهم مراحل دعوته الشعب كله الى الايمان بالنفس والروح وبالوطن وبالتقدم والتطور ،وهي طبيعة الحياة ،فاذا تيقّظ الاحساس في الشاعر أو الفنان كان له بالرغم منه استقلاله الذاتي الذي يشعره أنه قوة حيّة منتجة وأنه من المستحيل أن يندمج في سواها والاتشق لنفسها طريقا وسبيلا بكرا للمجد والحياة .

وكانت له كرامة تترفع عن أن تذوب في غيرها أو أن تنحط الى درك التقليد ،فالشابي يؤمن اذا بأن ارادة الفرد هي التي تصوغ وجوده وتحدد شخصيته وطريقه في الحياة ،بل هو يدعو الى ذلك ويؤكد دعوته لأنه يرى في ذلك سبيلا الى التطور والتقدم نحو الحرية والالهام والبناء ،والى الاستقلال الذاتي المنبعث عن الروح ،واذا تيقظ الاحساس في الروح روح الشعب تحركت في صدره تلك الأشواق الطامحة والرغبات الجامحة التي كانت مكبّلة نائمة في ليل الدهور ،واذ ذاك يشعر بنفسه ويعلم أنه عضو في هاته الجامعة البشرية ،عليه واجب السعي والعمل في سبيل كمال الانسانية المنشود وفي سبيل مثل الحياة العليا ، وفي سبيل الحق والقوة والجمال .

تلك هي آراء الشابي عن الشخصية الذاتية للفرد والشعب كما صاغها في مقاله عن " يقظة الحس" . فهو يؤمن بالذاتية وبالحرية الفردية وبالشخصية الذاتية للفرد والجماعة والشعب ،وهو يحب أن

أن تتطور هذه الذاتية حتى تصل الى الحياة الانسانية العميقة فتعيشها بأدق معانيها وصورها .

وليس معنى ذلك أن تندمج فيها وأن تترك روحها الذاتية والقومية وانما معنى ذلك أن نشارك في بناء المجتمع المثالي الفاضل للانسانية كلها ولذا يدعو طائر الشعر ـ طائر شعره هو ـ أن يبث الشعور في القلوب الدامية الجامدة ،وأن ينشر الايمان بيقظة الاحساس التي هي عماد الحياة الانسانية السليمة :

يا طائر الشعر روّح على الحياة الكئيبة
واسقِ بريشك دمع القلوب فهي غريبة
وعزّها عن أساها فقد دهتها المصيبة
وأنت روح جميل بين الهضاب الحديبة
فانفخ بها من لهيب السماء روحا خصيبة
وابعث بسحرك في قلبها ضرام الشبيبة

موقف الشابي من السفور والحجاب:

ودعوة الشابي الى الحب الروحي والى النظر الى المرأة ككائن حي يحس ويتحرك ،وكروح تطيف ،وعقل يفكر ،وليس كجسد ومفاتن شكلية ليست ضربا من الروحانية فحسب،ولا نوعا من الايمان بالروح والجوهر فقط ،بل هي أيضا نوع من العلاج الاجتماعي لمشكلة تحجيب المرأة وحبسها بين الجدران في البيت.

فالمرأة سواء في الأدب العربي القديم أو في المجتمع العربي أينما كان ـ كانت عبارة عن جسد وأشكال ،وكان كل الشعر العربي الذى في المرأة ـ على الرغم من أن كثيرا منه في المرأة ـ تقريبا منصبّا على تلك النفحة الجسدية والجمال الشكلي ؛ أما هذا الجمال الروحي الذى يعد المرأة روحا انسانية لها حقوق وعليها واجبات ،أما هذه الفكرة الروحية ـ فكانت معدومة تماما ،ولقد كان من نتائج هذا النوع من الاسفاف أن صارت المرأة نوعا من الأحجار المصونة والجواهر المكنونة تقفل عليها البيوت والحجب ،ولم يكن لها أى نوع من الرأى الحيّ أو الحقوق أو الواجبات ،بل قل كان عليها واجبات : من اطاعة الزوج اطاعة عمياء ،وارضاء أقاربه ،والاستخفاء وراء الحجاب حيث كانت هذه الواجبات هي كل حياتها ومجالات نشاطها ولم يكن

لـهـا أيّ نـوع مـن الـسـواع النشـاط الـذاتـي .

وفـي مـبـادئ هـذا الـقرن الحـالـي عنـدمـا شار كـل شيء فـي الـعـالم الـعربـي كـان لتحـريـر الـمرأة دوّي عظـيم وبخـاصـة فـي كتـابـات قـاسـم أمـين فـي مـصر ،ثـم صـداه فـي تـونـس والمغـرب الـعـربـي علـى يـد الطـاهـر حـدادا لـذي ألـف كتـابـه " امـرأتـنا فـي الـشريعـة والمجتمـع" قـال فيـه :

".. اذا كنـا نحتقـر الـمرأة ولا نعبـأ بمـا هـي فيـه مـن هـوان وسقـوط فـانـنا ذلك صـورة لاحتقـارنـا لأنفسنـا ورضـائنـا لمـا نحـن فيـه مـن هـوان وسقـوط بواذا كنـا نحتـرمـهـا ونحبهـا ونسعـى لتكمـل ذاتـهـا فليـس ذلك الا صـورة مـن حبنـا واحـتـرامنـا لأنفسنـا وسعينـا فـي سبيل تكميـل ذاتنـا".

ولقـد لقيـت هـذه الـدعـوة الحـارة التـأييـد الكـامـل مـن الشـابـي ، فـهـو فـي ثـورتـه الاجتـمـاعيـة كـان يـؤمـن أنـه علـى جميـع أفـراد المجتمع أن يشـاركـوا فـي بنـائـه وانشـائـه ،لـذا نـراه فـي معـرض دراستـه لمفاهيم الشعـر القـديـم يقـول :

".. فـالـشاعر القـديـم لـم يكـن يفـهـم الـمرأة الا أنـهـا جسـد يشتهى ومتعـة مـن متـع العيـش الـدنيء ،أمـا تلك النـظـرة الـسـامية الـتي يمتزج فيهـا الحـب بالاجـلال والشغـف بـالتـوقـير ،أمـا تلك النـظـرة الـروحيـة العميقـة الـتي نجـدهـا عنـد الشعـراء الأوروبيين فـانـهـا معـدومـة أو كـالمعـدومـة فـي الأدب الـعـربـي كلـه الا اذا أستثني منـه الأنـدر الأقـل .

لـم يعـرف العـرب ولا الشـاعـر الـعـربـي تـلك النـظـرة الفنيـة الـتي تعد الـمرأة كقطعـةفنيـة مـن فنـون السمـاء يلتمـس لـديـهـا الـوحـي والالـهـام ولـم يحـاول الشـاعـر الـعـربـي أن يحـس بمـا وراء الجـسد مـن روح جميلـة سـاحـرة تمثـل فـي جنبيهـا سعـادة الحـب ومعـنى الأمـومـة ،وهمـا أقـدس مـا فـي الـوجـود ".

ولقـد حـاول الشـابـي ـ ولـقـد نجح فيـمـا حـاول ـ أن يـطـوع شـعره لتلك النـظـرة الـروحيـة الـى الـمرأة فـي المجتمـع والـى ثـورتـه علـى أوضاعهـا وأن يستجيـب لـظمـأه الـروحـي الـى مثـال رفيـع للـمرأة يـملأ قلبـه ومشاعره .

ولقـد جـاء شـعره مثـالا صـادقـا علـى فهـم الـمرأة كانسـان حـتى يعيـش ويتحـرك ويفكـر بـروح انسـانيـة جميلـة سـاحـرة ،تطيـف فـي عـوالـم الجمـال والغمـوض ،لـذا نجـد أيضـا فـي شعـره مـا يحمـل معـنى القداسة للـمرأة والـربـط بينـهـا وبـين أقـدس مـا فـي الطبيعـه مـن مظـاهر وقـيم .

والشابي أيضا يرمي في شعره الى تقديس الحب كوسيلة وغاية لجميع الوجود كله ،وهو في ذلك يحاول أن يبعث في الناس حب الحياة والأخوة ،وحب الوطن ،وحب الجمال ،ولقد كان الشابي شاعر الحب بحق ،فنؤمنا بما للحب من قيم مثالية في عالم الواقع ولذا نراه يعبر في هذا عن شعره فيقول :

أيها الحب أنت سر وجودى . وحياتي وعزّتي وبقائي
وشعاعي ما بين ديجور دهرى
وأليفي وقرّتي ورجائي

والشابي في ثورته على المجتمع انما يدعو الشعب الى أن يؤمن بالحياة ،وبالحياة المتجددة المتطورة فهو يقدسها ،ويدعو لها في شعره ،ولقد كان شعره صورة صادقة للحياة بمأتم معانيها ،وصورة صادقة للحب حب الحياة بأسمى غاياتها :

فأنا اذن طفل الحياة المنتشي
شوقا الى الأضواء والألحان
واذا التشاؤم بالحياة ورفضها
ضرب من البهتان والهذيان

ولكن الحياة عند الشابي لاتعني التنفس والتحرك من سائر صفات الجسد ،وانما الحياة عنده التجدد والتطور والبناء والاصلاح ،وهي أخيرا الايمان بالحياة المتجددة المتطورة ،وهو بهذه لفكرة وبهذه الدراسة الجديدة في شعرمغذاء روحيا للشعب التونسي ابّان محنته في أثناء الاحتلال الفاشيوسياسة الادّماج والرجعية المتآمرة وسياسة الخمود والجمود والسكوت والموت وهو يدعو الى هذه الحياة، حياة الكفاح في شعره ونثره ،أنظر اليه في قصيدته " ارادة الحياة" يقول :

وقالت لي الأرض لما سألتها .. حياة أم هل تكرهين البشر؟
أبارك في الناس أهل الطموح
ومن يستلذ ركوب الخطر
وألعن من لايماشي الزمان .. ويقنع بالعيش عيش الحجر
هو الكون حيّ يحب الحياة . ويحتقر الميت المندثر
فويل لمن لم تشقه الحيا . ة من لمنة العدم المنتصر

والشابي يدعو في شعره الى تقديس حرية الانسان ،والدعوة الى كسر القيود بتقدير أن الحرية هي أعظم ما في الوجود :

ألا تراه في بيتيه هذين يقول :

اذا الشعب يوما أراد الحياة ... فلا بد أن يستجيب القدر

ولابدلليل أن ينجلي ... ولا بد للقيد أن ينكسر

فهو اذن يكافح التقاليد المتعفنة والرجعية ،والبيئة الخانعة ، ويحاول أن ينشر فيها روح الحياة والحرية ،والقوة والعدل والانسانية ، ويفهم روح الانسانية ،ويفهم كل تلك المبادئ التي وضعت لتسير عليها الانسانية في طريقها الى الكمال ،والحب والجمال ،تلك المبادئ التي أنتزعت من قيمنا الاجتماعية ، والتي بنيت على أساس من العقائد الدينية والسماوية العليا ،فهو يقول :

هل الحروب سوى وحشية نهضت

في أنفس الناس فانقادت لها الدول

فأيقظت في قلوب الناس عاصفة

فاسّودت الشمس واربّدت لها السبل

فالدهر منتعل بالنار ملتحف

من الماتم والأيام تشتعل

والأرض دامية والكأس حامية

والشر يخفق في آفاقها ثمل

والموت يسبح في موج الضجيج فلا

يبقى ويخطف من قد خانه الأمل

رأى الشابي في الأدب والشعر العربي القديم

ولكي نتعرف على رأيّ الشابي في الشعر العربي القديم ،لا بد من عرض رأيه مثلا في رسالة بعث بها الى مجلة " أبوللو " يرد بها على أحد ناقدي كتابه " الخيال الشعري عند العرب " قال :

" .. انني اذا كنت أدعو الى التجديد الأدبي وأعمل له فان ذلك لا يدفعني الى الهزء والسخرية بآداب الأجداد - كما قد حسب - بل انني لأومن كل الايمان بما فيها من جمال فني وسحرّ قوى ، وأعتقد أنها قد أتت في عصورها الحية لأجدادنا بكل ما طمحت اليه أشواقهم من غذاء معنوي دسم ،ولكني أومن الى جانب ذلك أن في الحياة آفاقا جديدة مجهولة ساحرة ،غير ما في الأدب العربي من آفاق ،وان هذا الأدب اذا كان قد سدّ خلّة آبائنا الروحية فانه لعاجز كل العجز على أن يشبع ما في أرواحنا ،من جوع وعطش

وطموح ،وانه اذا كان لزاما علينا أن نعجب بهذا الأدب،وأن نفخر به كحلقة من سلسلة ذاتيتنا العربية ،وكجسم ذهبي نرجع اليه كلما أردنا أن نصوغ لأفكارنا حليها الساحرة الجميلة ،فان ذلك الاعجاب لاينفي أن ينقلب في نفوسنا الى تقديس فعبادة ،فجمود ،فاطباق لأبصارنا عن كل ما في السماء من أشعة ونجوم .

ليس من شك أن أحدا لايستطيع أن يكون هذا الرأى ،فهو الحق كل الحق ،عبر عنه الشابي في ايجاز وبلاغة ،ولكنه لايستطيع أن يؤمن به كشعر مناسب لعصرنا الآن ،فعصرنا بلا شك يخالف كل العصور السابقة ،واذا كان كل شيء لا يستطيع الا أن يتأثر باختلاف العصور السابقة ،وما طرأ على الناس من اختلاف وتباين في مشاربهم ومذاهبهم سواء أكان هذا الاختلاف جوهريا أم عرضيا ،فان الأدب أجدر كل هذه الأشياء بالتأثر بهذه المظاهر ،لأن الأدب ليس الا تعبيرا عن روح العصر وأمانيه وما يجول في أذهان الناس فيه ،فيجب اذن أن يتطور وأن يسهم في بناء هذه المجتمعات الانسانية الجديدة ،مجتمع الخير والحب والجمال والكمال .

الشعر والشاعر في رأى الشابي

==========

كان الشابي أول من اتخذ من الشعر قضية انسانية مكتملة المعالم، تمس الروح البشرية في الصميم، وكانت رسالته هي أن يدفع بالشعر والشاعر أعلى درجات التقديس والاحترام ،بوصف أن الشعر روح الانسانية، وأن الشاعر رسول نور وقائد أمة ،يرتفع بها الى المثل الأعلى ،لترتفع أن وتسمو بحياتها وواقعها ،وكانت وسيلته الى ذلك أن يصل الفنان بواقعه، وأن يصل الشعر بالحياة ،بحيث يكون معبرا عن أحوال المجتمع وظروفه، وأن يكون مصورا للمعاني السامية الخالدة في الانسان والمجتمع.

والشعر عند الشابي هو الحياة بنفسها ،في حسنها ودمامتها ،في صمتها وضجتها ،في هدوئها وثورتها ،وفي نومها ويقظتها ،وفي كل صورة من صورها ولون من ألوانها .

والشعر هو ما تسمعه وتبصره في ضجة الريح وهدير البحر ،وبسمة الوردة الحائرة ،يدمدم فوقها النحل ويرفرف حولها الفراش،وفي النغمة المعبرة المفردة ،يرسلها الطائر في الفضاء الفسيح وفي وسوسة الجدول الحالم المترنم بين الحقول ، وفي دمدمة النهر الهادر المتدفق نحو البحار ،وفي مطلع الشمس وخفوق النجوم ،وفي كل ما تراه وتسمعه

وتحبه وتكرهه وتخشاه .

نعم هذا هو الشعر المعبر ،هذا هو الشعر الوجداني الروحي الذي تفرضه نفس الفنان على الفن ،وهو الشعور الذي يرى في الحياة حقيقة من حقائق الوجود المقدسة ،ويرى في الموت صورة من عدم التطور والتقدم ،فالشعر عنده "تصوير وتعبير".

تصوير لهذه الحياة التي تمر حواليك مغنية ضاحكة لاهية أو مقطبة واجمة باكية أو وادعة حالمة راضية ،أو محترمة ثائرة ساخطة ،تصوير لآثار هذه الحياة التي تحس بها في أعماق قلبك وتقلبات أفكارك ،وخلجات نفسك وزفرة أحلامك وعواطفك .

وهو تعبير عن تلك الصور أو هاته الآثار بأسلوب فني جميل ، ساوه القوة والحياة ،يقرؤه الناس فيعلمون أنه قطعة انسانية من لحم ودم وقلب وشعور ،لأنهم يحسون أنه قطعة من روح الشاعر ،وعبق من عواطفه ،أو فلذة من فؤاد الحياة .

والشعر هو هذا الأسلوب الذي يكاد يكون كالعاصفة حينما يمثل سخط الحياة أو ثورة العاطفة ،ويكون وادعا كضوء القمر حينما يمثل أحلام الحياة وطمأنينتها وسكون النفس،ويكون رقيقا شجيا كأنات ناى بعيد ،حينما يمثل نجوى القلوب المتحابة وشجوها ويكون كئيبا مظلما كقلب الظلام حينما يمثل بؤس الحياة وأحزان البشر .

ورسالة الشعر عند الشابي هي التي توسع أفق الحياة من نفسك وتجعلها تحس بتيارات الوجود أكثر مما ألفت أن تدرك ،وتنسيك وجودك الانساني لحظة ،لتستغرق في عالم الجمال المطلق الذي يخلقه الشاعر حواليك ويصبغ عليه من نفسه ،انها تعميق لمفاهيم الانسان نحو الحياة ، وتأكيد لمبادئ الخير في الانسان ،وتوسيع لفكر الانسان ونظرته نحو أحداث حياته ،فيا لها من رسالة شاقة .

واذا كانت تلك هي صور الشعر في رأي الشابي - وهذه هي رسالته فلا شك أن قيمة الشاعر ورسالته قيمة عظيمة وصورة أوسع ورسالته أعمق .

فالشاعر في رأي الشابي عين تمتلأ من الدنيا ،وسمع يعيها وقلب يتدبرها ،ولسان يعبر عنها .

والشاعر هو الرسول والقائد الذي يقود الأمة ليرتفع بها الى مثله العليا لترتفع في حياتها وتطور الى ما هو أجل وأعظم ،ولذا

فلقد كان من رأي الشابي بل والفن عامة ،والشاعر الفنان كل ذلك أعلى من أن يقدره الشعب وأن يتحكم فيه الرأي العام.

ورسالة الشاعر في رأي الشابي هي رسالة القائد الذي يقود الأمة الى المثل الأعلى،وهو الرجل العظيم الذي ينير للانسانية جميعا الطريق الى المجتمع السامي ،والى معاني الحب وينابيع الجمال ،وسائر المفاهيم الانسانية الخالدة العميقة ،وتلك الرسالة التي وصفها الشابي للشاعر كانت هي التي وصفها لنفسه ، ولذلك حينما نذكر رسالة الشاعر انما نذكر رسالة الشابي نفسه.

اتجـــــــاهـــــات الثـــــورة فـــي شعـــر الشـــابـي

أولا : الثورة الأدبية ،وتشمل الثوره على ما يلي :

(١) : الثورة على القديم والجمود المطبق في شعر الشابي :

في مبدأ حياة الشابي ،أي حوالي سنة ١٩٢٥م ،وشاعرنا يناهز السادسة عشرة ،نظم الشابي قصيدة كانت من أوائل قصائده عبر فيها عن فكرته عن الشاعر والفن قال :

لا أنظم الشعر أرجو . به رضاء الأمير
بمدحة أو رثاء . تهدى لرب السرير
حسبي اذا قلت شعرا . أن يرتضيه ضميري

ولقد كانت ثورة الشابي على المعاني القديمة وايمانه بأن الشعر خاصة والفن عامة أقدس من أن يتعرض لمثل هذه السطحيات ـ مدعاة للاهتمام بهذا الشاعر العبقري الذي أدرك أدق أسرار الشعر والفن وهو دون العشرين ،ولقد ظل الشابي على ولائه لهذه المبادئ الخالدة ،فنحن لانرى في ديوانه "أغاني الحياة" أي نوع من أنواع الهجاء أو المدح أو التهنئة ،أو غير ذلك مما كان يعج به شعر أضراب الشابي في الشرق والغرب ،حتى أولئك الرومانسيين الذين عبّروا عن روح العصر وفكره وتطوره أمثال ابراهيم ناجي ،وعلي طه ،والزهاوي ، والرصافي ،وغيرهم .

ولقد كافح الشابي ضد جمود الفكر وعزلته وخمود المفكرين ودعوته لاتصال الفن بالحياة ،وتعبيره عن مجتمعها المثالي ـ كان هذا شار اهتمام آخر لشاعر الخضراء .

(٢) : الثورة على مضمون الشعر ـ المعاني والأفكار:

دعا الشابي الى ارتباط الأدب بالحياة والتعبير عنها ،وعن أهدافها ،وعن أهم المفاهيم المثالية السامية التي تبني المستقبل ،مستقبل

مستقبل الانسان ،ومؤسس المجتمع الانساني المثالي .

ولقد كان الشابي يؤمن بأن رسالة الشعر والشاعر،هي تحرير النفس من كل أسر ، والثورة على العبودية ،والتمرد على كل قيد والثورة على الأوضاع البالية والأوضاع والتقاليد السخيفة ،والنفاق المنمّق ،ولقد ثار على الفن كارتزاق وتزييف ،وأنكر الشعر كشعور سطحي بمفاهيم الحياة ،ولكن آمن به كرسالة وقيادة والهام وشعور بكل ما في الحياة .

والشابي كان يريد الأدب المتصل بالحياة أن يقوم على التجربة الصادقة وألا يقوم على التزييف والتهويل ،حتى لاتفسد الصور أو تحجب الحقائق ،فالحقائق هي وسيلة العصر الحديث لفهم ذاته ومكونات نفسه وادراك مشكلاته .

وهذه النظرة الواقعية للأدب ليست رد فعل للأدب الخيالي الرومانسي في أدب الشاعر،لأن الشابي نفسه انسان خيالي ،وفنان رومانسي مشبوب العاطفة ،ولكن هذه النظرة الواقعية للأدب هي رد فعل "الأدب الكتب" ان صحّ التعبير ،فقد طغى استخراج الأدب من القواميس والكتب الصفراء القديمة الكالحة على العصر الحديث،طول أربعة قرون أو تزيد ،وكان نتيجة لذلك أن انفصل الأديب والفنان عن شخصيته وذاتيته وأصبح مجرد آلة للطبع والتقليد ، وكان هدف الأديب هو أن ينهع من بطون الكتب يملأ كتبا جديدة ،وأما التجارب الخاصة والشخصية والفنية والذاتية في نفس الشاعر،فلا تلمح لها شيئا في انتاجه وفنه .

أضف الى ذلك أن تلك الأفكار التي يضطرب بها المجتمع والعالم الخارجي المحيط بالفنان أو الأديب،وما يعجّ في صدور الناس في هذا العصر من أفكار وما يعوقهم من مشكلات ، كل ذلك لا تجد له مجالا في فن الشاعر وأدبه .

وأدب الحياة عند الشابي ليس مجرد تسجيل سريع للمناظر التي تشهدها العين انما هو فهم عميق لمكونات هذه المظاهر وبواعثها وتكوين متين للملكات الأدبية ، فأدب الحياة لن يكون عميقا الا اذا كان الأديب نفسه عميقا في فكره وتأملاته ، شأنه شأن تشيكوف ، وجوركي ، وتولستوي في روسيا ، وبرنارد شو في انجلترا ، وفولتير ،وجان جاك روسو في فرنسا ، فالشعر أداة تعبير في يد التجربة الحية الصادقة .

ولقد عبر الشابي نفسه عن ذلك فقال في كتابه " الخيال الشعري عند العرب " :

" لقد أصبحنا نتطلب حياة قوية مشرقة ملؤها العزم والشباب ، ومن يتطلب الحياة فليعبد غده الذي في قلب الحياة ، أما من يعبد أمسه وينسى غده فهو من أبناء الموت وأنظار القبور الساخرة " .

(٣) : الثـــورة على الأســـلوب :

وتشمل ثورته على الأسلوب مايلى :

ا ـ الثورة على الأوزان والقوافى :

الأوزان والقوافى العربية أضيق من أن تنفسح للشاعر الفنان الذى تفتحت روحه ونفسه ورأى ضروبا من الشعر الغربى ، ورأى كذلك كيف استطاع الغربيون أن يودعوا أشعارهم وأوزانهم أقاصيص ومسرحيات مطولة ، وكيف ترحب هذه الأوزان والقوافى للأغراض والمقاصد المختلفة ، وكيف تلين لهم القوالب الشعرية ، فيودعوها ما لا قدرة لشاعر عربى على وضعه فى غير النثر ، وكيف استطاع العامة أن ينظموا القصص المسهبة والملاحم الصعبة فى قوافيهم المرسلة .

ولقد كان الشعر العربى وما زال محتاج الى تعديل فى الأوزان والقوافى ، حتى ترحب وتتسع وتنفسح لشتى الأغراض الفنية والمقاصد الشعرية ، فنرى من شعرائنا شعراء الرواية وشعراء الوصف ، وشعراء المسرح ، وغير ذلك من هذه الأنواع المختلفة ، التى عجز شعرنا العربى عن أن يحتويها .

ولقد كان الشابى من أوائل من جددوا فى الأوزان : فنحن نرى عنده كثيرا من الأوزان الجديدة التى اتبع فيها نمطا جديدا فى الأدب العربى غير ذلك الذى وصفه الخليل بن أحمد الفراهيدى ، كذلك أحيّا الشابى نظم التواشيح الأندلسية فى شعره ونحن نرى عنده بعض أمثلة من القوافى المرسلة والمزدوجة والمتقابلة ، وغير ذلك من أنواع التجديدات فى الشعر وأوزانه ، حتى يرحب ويتسع لكل تلك التجارب الشعرية والفنية المختلفة .

ب ـ الثورة على الألفاظ والتراكيب :

دعا الشابى الى الألفاظ الشعبية الحية ـ وهى فى نظره ـ ليست تلك التى تستخرج من الكتب القديمة الصفراء التى عفا عليها الدهر ، وانما تلك التى تعبر بلغة الطبيعة الحية عن منابع الجمال والكمال .

وتراكيب الشابى وألفاظه نستطيع أن نقول أنها رومانسية أصيلة ، ونعطيك مثالا لذلك :

فوق الندى ، ووصل الحبيب ،ووله الحبيبة ، كلها تعد من التراكيب الكلاسيكية العتيقة ، على أننا لو استعرضنا تراكيب الشابى لوجدنا فيها أمثال : " عزم الحياة " و " صميم الحياة " و " ملكات النفس " و " يقظة الحس " ، وكل هذه ألفاظ وتراكيب رومانسية .

جـ ـ التزام الموضوعية ووحدة الموضوع والثورة على المهالفة :

والشابى يتوخى فى قصائده الشعرية الموضوعية ، وأن يكون شعرا انسانيا يثير أرقى الملكات الشعرية والنفسية الانسانية ، ويثير المشاعر الانسانية السامية .

والشعر تصادق بين الفكر والعاطفة والموسيقى ، ولكن العاطفة النبيلة العميقة هى المطلوب ليس الاّ ، أما تلك العواطف الشريرة الممقوتة فهى ليست من أهداف الأدب فى

شـــيء .

وتوخى الشابى الموضوعية فى شعره ، وأخذه بوحدة الموضوع من أهم هذه الصفات التى تميز شعره ، فالشاعر العربى القديم حينما كان يمدح شخصا أو يهجوه كان يضفى عليه من الصفات ما يريد هو أن تكون فيه ، وقليلون أولئك الذين أخذوا بالموضوعية والتجرد فى الشعر أمثال : زهير بن أبى سلمى فى العصر الجاهلى ، واسماعيل صبرى فى العصر الحديث

ولقد دعا الشابى الى التجرد فى الأدب والموضوعية فى الدراسة والفن ، ولكنه لم يعن أن يكون الشاعر كالآلة بل كآلة التصوير يطبع الصورة كما هى ، وانما يعنى ألا يضيف اليها شيئا من الخارج ، وأن يتوخى الصدق فى التعبير والتصوير ، ولا يضير بعد ذلك اذا هو قد خلع عليها من نفسه ألوانا وصورا وألحانا من روحه ونفسه ، فتفيض الصورة بالحيوية والاشراق ولكن دون أن يبعد عن الصدق فى التعبير والتصوير .

ثانيـا : الثـورة السـياسية والاجتماعيـــــة :

كان الشابى أول من عاش مأساة شعبه الكبرى فى مأساته الخاصة ، وما كان لفنان مرهف الحس مشبوب العاطفة أن ينعزل عن تيار الثورة الذى تعج به الصدور خلال عصره ،ولقد كان الشابى عاملا فعّالا فى الكفاح ، ذوّب نفسه وروحه فى سبيل فنه ،وذوّب فنه وشعره فى سبيل وطنه وشعبه .

ولم يكن كفاح الشابى مقصورا على فنه وأدبه ، وانما كان أيضا كفاحا فعليا ،فقد شارك الشابى فى معظم الحركات التحررية الصادقة خلال هذه المدة سواء أكانت حركة تجديدية تعليمية كما حدث فى رحاب جامع الزيتونة ، أم كانت حركات سياسية فى جميع أركان البلاد .

على أن الشابى لم يكن فى أكثر حياته الا فنانا شاعرا ، وكان سلاحه الدائم البتّار خلال معركته تلك ضد البغى والعدوان هو الشعر ، ولقد كانت وطنية الشابى وكفاحه القومى وطنية قومية انسانية وكفاحا قوميا انسانيا ، فالانسانية بكل مبادئها ومعانيها ومفاهيمها كانت تسيطر على تفكير الشابى وشعره أيّما سيطرة ، فكان شعره لمسة انسانية لجوانب الحياة ، وكانت قصائده الى الشعب ترانيم سماوية خالدة ، وبعث قوة خارقة فى الأمة ، وكانت نورا يهدى الشعب الى طرق الانبعاث القومى والانسانى الحيّ .

لقد كان الشابى شاعر الحرية وهب لها نفسه ومضى يدعو لها ، ويصدح بها ، وكان ايمانه بالذاتية الفردية ايمانا عميقا ، وكان يؤمن أن ارادة الفرد وعزيمته هى التى تصوغ وجوده ، وتكون كيانه ، وتبنى شخصيته ، وكان شعره دعوة حارة الى الحرية والنور فهو يقول :

الى النور فالنور عذب ضياه . . الى النور فالنور ظل الاله

((وسـائل الثـورة فى شعر الشابى))

لقد اتخذ الشابى فى ثورته السياسية والاجتماعية وسائل متعددة من الضرورى أن نشير اليهـا وهـى :

أولا : الترهيب والتقريـع والحفـز واللـوم والعـزم والطمـوح :

يقولون : ان شعر الشابى يضطرب ما بين التفاؤل والتشاؤم وهو هكذا حقا ،وانما عندى أن اضطرابه هذا ما بين هذين المتناقضين ، انما هو اضطراب الأمة التونسية ما بين اليقظة والغفلة ، والعمل والتواكل ، والاصابة والخطأ ، فلقد كان شعره اذاً صدى للأمة فى حركاتها وتطورها ، وكان هو المدرس الحكيم ، والزعيم المجهول الذى يضع للأمة خطتها فى طريقها نحو الحياة الحرة .

والشعر الوطنى عامة انما يدور حول التفاؤل والتشاؤم والتأميل وعدمه ، والترغيب والترهيب والمدح والتشجيع ، والذم والتقريع ، ولقد أجاد الشابى كلتا الناحيتين ، ولكن شعره فى الترهيب والتقريع كان أكثر شعره الوطنى ، وذلك يرجع الى سببين هما :

١ ــ الضرب الأول هو الأنسب الى نفسه الحزينة المريضة المرهفة ،وهو ما نستطيع أن نسميه بمأساته الخاصة .

٢ ــ ان الأمة التونسية فى هذا الحين كانت تغط فى نوم عميق وأنا لا أتكلم عن الظاهر ، فقد كان هناك فعلا بعض الحركات الوطنية الظاهرية ، ولكن هذا لا يعنى أن الشعب كله كان مستيقظا ثائرا ، وانما كانت هذه الحركات من عمل الفئة المثقفة الثائرة ، وهى قليلة العدد ، ومن طليعتها شاعرنا الشابي ، لذا كان من اللازم أن يكون شعر الشابى فائضا بالترهيب والتقريع واللوم والثورة وهكذا وجدنا أن شعر الشابى كان نغمة حزينة على حال الشعب وكان صرخة ثائرة على حال الشعب أيضا .

على أن ثورة الشابى ونقمته فى " النبى المجهول " كانت ثورة على الجمود والخمود ، فان من حق صاحب الرسالة أن ينقم ويسخط على الذين أراد أن يبلغهم الحياة وطبيعتها فى رسالته ، فلم يستجيبوا لها ، وقديما قال نوح عليه السلام " رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديّارا " .

ثانيا : الايمان بالوطن والتحسر على حاله والاستعداد للفداء فى سبيله :

آمن الشابى بوطنه وأهله ، آمن بماضيه العظيم ومستقبله الباهر وعبر عن ذلك كله فى قصيدته " تونس الجميلة " :

ضَيَّع الدهر مجد شعبى ولكن
سترد الحياة يوما وشاحه .

وهو فى ايمانه بالحياة وبالشعب مستعد للتضحية فى سبيل تخليصه من جميع الشرور

والآلام التي تعلق به من استعمار ورجعية :

أنا يا تونس الجميلة ،في لج
م الهوى قد سبحت أنّى سباحه
لا أبالي وان أريقت دمائي
فدماء العشاق دوما مباحه

لقد آمن الشابي أيضاأن في أعماق هذا الشعب التونسي ثروة روحية وفنا ثوريا ، ولكنها ثروة مهملة وفن غير مصقول ،وان في طبيعة هذه البلاد سحرا يلهم الصخر أسمى معانيه وأرفعها لوكان للصخر مشاعر حيّة ، وأن الداءكل الداء في الألسنة المعبرة ،لا في روح الشعب ولا طبيعة البلاد .

على أن الاستاذ عمر فروخ يرى أن الشابي كان أولا أتى في بادئ حياته مؤمنا ببلاده ،ولكنه بعد ذلك كان ناقما ،نافضا كلتا يديه من امكان الاصلاح ،ويرى أن قصيدته : النبيّ المجهول "مثلا لاتحمل سوى نقمة وثورة على الشعب والأمة .

ولكن حمدى عبد الوهاب يرى أن قصيدته النبي المجهول "خير شعر وطني ظهر في العهد الأخير ، فغنيّ عن الذكر أن محبة الشعب ليست في الألفاظ الممسولة وذكر الأمجاد السابقة والتغني بها ،انما محبة الشعب والعمل في سبيله انما هما في أمثال تلك الصيحات الثورية الخالدة التي كان يتفجر بها شعر الشابي ،ان محبة الشابي للشعب تتمثل وتتبين في تلك الصيحات الثورية الموقظة الصاخبة التي تبعث في الشعب روح الثورة والتي تبين لهم باخلاص نوع هذه الحياة التي يحيونها وما فيها من مساوئ ولها من أوصاب وأمراض وعلل ، وأنظر اليه يقول :

أيها الشعب ليتني كنت حطا
با فأهوى على الجذوع بفأسي
ليتني كنت كالسيول : اذا سا
لت تهد القبور رمسا برمسي
ليتني كنت كالرياح فأطوى
كل ما يخنق الزهور بنحسي
ليتني كنت كالشتاء فأغشى
كلما أذبل الخريف بفرسي
ليت لي قوة العواصف يا شعبي
م فألقي اليك جمرة نفسي

ألا ترى معي هنا اخلاص الشاعر لوطنه وايمانه به ، انه يريد أن يكون كل شيء مهدّما مدمّرا جبّارا من سيول ورياح ،الى شتاء قاس وعواصف ثائرة ،كيّ يدمر أعداء الشعب،وكيّ يبعث في شعبه من روحه نار الثورة المأجّجة في قلبه،فيثيره على أعدائه المستعمرين .

ثم أنظر اليه وقد تصوّر أنه ذاهب الى الغاب ،فقد بعد عن تلك المساوىء والمظالم،التي يضع فيها شعبه دون أن يحرك ساكنا للانقضاض على أعدائه :

ثم أنساك ما استطعت فما أن

ت بأهل لخمرتي ولكأسي

ألا ترى معي وطنية الشاعر واخلاصه وحُبّه لشعبه في "ما استطعت" حتى ليخيل الينا أنه لايستطيع أن ينسى شعبه،وبرغم ذلك فان الشابي كان الى آخر لحظة من حياته مؤمنا بالمستقبل ، واذا كانت ثمة روح حزينة تسود شعره عامة ،والوطنيّ منه خاصة ،فان ذلك ليس سوى انعكاس لحاضر بلاده ومأساتها أولا ،ثم لمأساته الخاصة من مرضه وغربته وعذابه الشخصي آخرا .

ثالثا : اثارة الشعب ضد الظلم والطغيان والذل والجمود :

هكذا رأينا كيف كان الشابي مؤمنا بمستقبل وطنه ،وكيف كانت ثورته في قصيدته " النبي" وغيرها ،ثورة على الظلم وصيحة من صيحات الثورة والبناء ،ولم تكن صورة لنقمته على شعبه ونفضه كلتا يديه من الاصلاح .

والشابي في ايمانه بالشعب وفي دفعه اياه للكفاح والثوره كان يهاجم الظلم والظالمين لكي يفسح الطريق للشعب وأحراره وقواده كيّ يسير على الدرب حتى يصل الى الكرامة ،الى الحرية والاستقلال .

على أننا أيضا نلمس في شعر الشابي كرها شديدا للظلم والذل والقيود ،وصفها العوائق الأولى التي تعوق تقدم الانسانية المنشود وهو لهذا يدعو الى الحرية والاستقلال قائلا :

الى النور والنور عذب جميل . الى النور فالنور ظل الاله .

ولقد كانت قصيدته "النهي المجهول" دعوة حارة الى الشعب لكيّ يتحرر ويثور ويبني وهو في بثه الثورة في ربوع البلاد ونفوس الشعب يسائل شعبه أين طبيعته الثورية الاصلاحية البناءة +

أين يا شعب قلبك الخافق الحسّا

س أين الخيال والأحلام!

ولقد دعا الشابي الى الحياة ،الى النور ،الى الحرية الى الثورة والى البناء ،وكان في دعوته الى الحرية ،يحمل في قلبه سخرية مرة لهؤلاء الناس الراضين بالذل ،الذين يأبو الثورة ويمقتونها فهو يقول :

غلقتَ طليقا كطيف النسيم . وحُراً كنور الضُحى في سَماهْ
تُغَرِّدُ كالطير أنّى اندفعتَ
وتشدو بما شاءَ وهيَّ الالهْ
كذا صاغك اللهُ يابنَ الوجود .وألقتكَ في الكونِ هذه الحياهْ
فمالك ترضى بذُلِّ القُيود . وتحني لمن كبلوكَ الجباهْ
ألا انهضْ وسرْ في سَبيلِ الحياةِ
فمَنْ نامَ لم تنتظره الحياهْ

رابعا : تهديد الظالمين والطغاة بثورة الشعب وسيله الجارف:

توحي قصائد الشابي الوطنية بايمان عميق بقيمة الحرية وانتصارها وايمان عميق بانتصار الخير وزوال الشر ،ولقد كان شعر الشابي نذيرا للظالمين ودويّا دوّى في مسامعهم ،فجعلهم يرهبون ثورة الشعب فهو يقول :

ألا أيها الظالمُ المستبدُ . عبيبُ الفناءِ عدوُ الحياهْ
رويدك لايخدعنك الربيعُ . وصحوُ الفضاءِ وضوءُ الصباح
ففي الأفق الرحب هولُ الظلام
وقصفُ الرعودِ وعصفُ الرياحْ

×××××××××××××××××××××××××××

تأمّل هنالك أنّى صحوت . رؤوسَ الورى وزهورَ الأملّ
وأرويتَ بالدم قلبَ الترابِ . وأشرّبتَه الدمعَ حتى ثَمِل
سيجرُفكَ السيلُ ،سيلُ الدما
ويأكلك العاصفُ المُشتَعِلّ

ولا شك لدينا أن الشابي في وصفه ثورة الشعب بالسيل والعواصف المشتعلة انما يضع صورة حية لهذه الثورة التي يجب أن تكون ثوريّة كليّة جذريّة تمحو كل عناصر الظلم والاستعمار والرجعية ،وهو هنا أيضا يحذر ويهدد وينذر الظالمين بقوة الشعب وثورته :

سيشأرُ للعزِّ المُحطَّمِ تاجُه . رجالُ اذا جاشَ الورى فهمو هُمُ
رجال يرون الذُّلَّ عاراً وسُبّةً . ولا يَرهبونَ الموتَ والموتُ مُقدم

وهنا أيضا يظهر بوضوح ايمان الشابي بمستقبل الشعب التونسي

في تأكيده بأنهم سوف يثأرون ،ولاشك أن هذين البيتين يحملان دعوة صارخة للثورة وعدم الاستكانة للذل والعار،ثم ها هو ذا يُنذر ويحذر وينقم :

حذار فتحتَ الرمادِ اللهيبُ . . ومن يبذر الشوكَ يجنِ الجراح

ثم أنظر الى قصيدته "لعلمة الحق" لترى الى أيّ حدّ آمن الشابي بانتصار الحق وانتصار الشعب ،ثم أنظر الى دعوته للشعب للالتفاف حوله .

ولعلمةُ الحقِ الغضوب لها صدىً
ودمدمةُ الحربِ الضروسِ لها فَمُ

على أن الشابي أيضا قد استطاع بوعيه وبفكره الثاقب كشف تلك الخدع التي حاول المستعمر أن يطمسها وأن يخفيها تحت هذه الكلمات فها هو ذا يقول في قصيدته فلسفة الاستعمار المقدس أقصد "الثعبان المقدس".

لاعدلَ الا أن تعادلتِ القُوى . . وتصادمَ الارهابُ بالارهابِ
لا رأيَ للحقِ الضعيفِ ولاصدىً . . الرأيُ رأيُ القاهرِ الغلابِ

آمن الشابي اذا بالحرية ،ودعا الى ارادة الفرد ،ودعا الى أن تكون ارادة الفرد هي العامل الأكبر في صوغ شخصيته ووجوده ،ولقد كان الشابي بايمانه بالحرية وكفاحه في سبيلها يكافح القدرية والأوهام والخدع ويعلنها أن الثقة بالحياةَ هي كل شيء.

وكان الشابي مؤمنا بانتصار الحق غير أنه في تصويره لطبيعة الحياة الاجتماعية في قصيدته " في فجاج الألم "كان ذا روح حزينة، فهو في تصويره للانسان المتعب الحائر والفتاة الحزينة على أبيها والأم الثكلى وما الى ذلك من هذه الأشكال للمجتمع التونسي المضطرب انما كان يعبر عن روح حزينة قاتمة .

ولقد كان الشابي يكافح كفاحا قاسيا ،كان يقابل فيه أعداء رجعيين جامدين حتى لقد رماه رجال الرجعية الدينية بالالحاد والعصيان من فوق المنابر،فهل كان الشابي ملحدا ؟

ان شعر الشابي كله في نظرنا انما كان نغمة من نغمات الايمان ولم يكن فيه الحاد مطلقا حتى في تلك القصائد التي يزعم بعض النقاد فيها أن الشابي كان ملحدا مثل :" صلوات في هيكل الحب" ،وفي " ظل وادي الموت" :

ففي هيكل الحب ينادى الشابي :

أنتِ أنشودةُ الأناشيدِ غنّا . . ك إلهُ الغناءِ ربُّ القصيدِ
أنتِ قُدْسي ومَعْبَدي وصَبَاحي
ورَبيعي ونَشْوتي ،وخُلودي
يا ابنةَ النورِ انني أنا وحدي
من رأى فيكِ روعةَ المعبودِ

وقال بعض النقاد عنه أنه وثني يؤمن باله للغناء ،واله للنور، والحب وغير ذلك من صور الاشراك الوثني ،والحقيقة أن الشابي لم يكن في شعره وثنيا ،وانما كان مؤمنا بأن الله تجسيد لكل شيء طاهر، وهو لهذا يصف الاله بكل هذه الأوصاف.

أضف الى ذلك أنه كان يؤمن أنّ على الشاعر أن يتكلم بما يمليه وحي الشعر وألاّ يتقيد بقيود الألفاظ،ولا معنى اذن أن نَصِم الشاعر بأنه وثني ملحد لأنه أتى بألفاظ وثنية ،أليس هو القائل :

صانكُنَ الالهُ من ظلمة الرو
حِ ومن ضِلة الضمير العنيد
فظلامُ النفوس شَرٌّ ظلام . . سرمديٌّ الأسى شنيعُ الخلودِ
غير باق في الكون الا جماً . . ل الروح غضا على الزمان الأبيد

والحقيقة أن الشابي لم يكن وثنيا ،ولكنها الرجعية ،والعجب أن هذا هو الذى لايزال يحدث حتى الآن : فقصيدة " لاتكذبي " مثلا لكامل الشناوى قد مُنِعَتْ من الغناء والنشر في تونس- ذلك لأن كامل الشناوى يقول فيها :

كُنتِ لي قيدا حَرِصْتُ العُمرَ ألاّ أكسره . . . فكَسَرْتِه
كُنتِ لي ذَنبا حَرِصْتُ العُمرَ ألاّ أغْفِرَه . . . فَغَفَرْتِه

وهكذا كان كامل الشناوى ملحدا في نظر الرجعية الدينية في تونس،فهل كان كامل الشناوى ملحدا ؟.

يقول حمدى عبد الوهاب : معاذ الله كلا ،وانما معنى ذلك أن الشاعر يجب أن يتكلم ،وأن يعبر بالألفاظ كيفما شاء،فليس معنى ذلك أنه ملحد وأنه ضد الدين ،وانما الدين الجوهر وليس الألفاظ والمظاهر.

وأخيرا وليس آخرا ،لقد عمل أبو القاسم الشابي الشاعر المجيد لواء الاصلاح الأدبي ،وتحرير الأدب العربي من قيوده ،وشارك في جميع الاصلاحات السياسية والاجتماعية والاقتصادية ،وكان له شرف بناء الوعي

الجديد في العالم العربي عامة ،وفي تونس خاصة .

ولقد بدأت رسالة الشابي كما آمن بها تظهر في عالم الحقيقة والواقع بعد أن كانت منذ ربع قرن تقابل بالسخرية والهزء ،لقد أصبح الشابي اليوم في تونس خاصة والعالم العربي عامة صورة من صور الثورة السياسية والاجتماعية والعقلية ،وأصبح مظهرا قويا من مظاهر الثورة الفنية ، وها هي ذا ثورة الشابي قد انتصرت في كل مكان ،وهذا هو شعر الشابي قد أصبح رمزا من رموز الثورة والانطلاق فلقد انتصر الشابي وهو ميت ، لأن شعره خالد لا يموت (١) :

اذا الشعبُ يوماً أراد الحياةَ
فلا بُدَّ أن يستجيبَ القدرْ
ولا بُدَّ للّيلِ أن ينجلي
ولا بُدَّ للقيدِ أن ينكسرْ

==========
==========
==========
== ==========
========
====

---

(١) : الشابي شاعر الخضراء ــ حمدى عبد الوهاب

روائع الشابي في ميدان الثورة

بعد الاطلاع على ديوان الشابي ،وجدت له مجموعة من القصائد الشعرية الرائعة في ميدان الثورة ودرستها دراسة مستأنية ووجدت من الملائم أن أثبتها في هذه الدراسة ،واثرت أن أدونها حسب تأريخ نظمها اذ وجدت الشابي ذيّل كل قصيدة شعرية بتاريخ ووجدت بعضها دون تاريخ ،لذا سأبدأ بالقصائد المؤرخة حسب سبقها وسأضع القصائد غير المؤرخة تالية لها. وأول هذه القصائد وأقدمها تاريخا قصيدته التالية :

١- خلّه للموت ((١/محرم/١٣٤٣هـ)) - ٢/آب/١٩٢٤م.

كلّ قلبٍ حمل الخسف،وما . . . ذلّ من ذلّ الحياةِ الأرذلِ
كلّ شعبٍ قد طغت فيه الدما . . دون أن يثأر للحقّ الجلي
خلّه للموت يطويه فما . . حظّه غير الفناءِ الأنكلي (١)

٢- الصيحة ((٢١/ ذو القعدة / ١٣٤٣هـ - ١٣/حزيران/١٩٢٥م))

ياقوم! غيّني شامت . . للجهل في الجوّ نارا
تتلوسحابا ركاما . . يتلو قتاما مُثارا
يُثير في الأرض ريحا . . يُهيج فيها غُبارا
تُلقي الشديدَ صريعا! . . تُبقي الأديبَ حمارا!
منها الفضاءُ ظلام!!... . والناسُ منها سُكارى!
قد أورثتهم دُوارا . . وأعقبتهم خُمارا!
لايعرفُ المرءُ منها . . ليلاً رأى أم نهارا!
يَخالُ كلّ خيالٍ . . سرى تسربَلَ فارا!

×××××××××××××××××××××××

يا قومُ سرتم حثيثا . . خُطىً ، وراءً ،كبارا
نبذتُمُ العلمَ نبذَ النوى . . قِلىً وصَغارا
لبستُمُ الجهلَ ثوبا . . تخِذتموه شعارا
يا قومُ مالي أراكم . . قطنتُمُ الجهلَ دارا؟
أضعتم مجدَ قومي . . شادوا الحياةَ فخارا
أبقَوا سماءَ المعالي.. بما أضاءوا منارا
حاكوا لكم ثوبَ عزٍّ . . خلعتموه احتقارا
ثم ارتديتم . . . . لبوسَ خِزيٍ ،وعارا (٢)

×××××××××××××××××××××××

(١)- الديوان ص٥٥. (٢)- الديوان ص٦٤.

يـاليـت قـومـي أصـاخـوا . لِمَـا أقـولُ جهـارا
يـا شعـرا أسْمَعْـتَ لكـنّ . قـومـي أراهـم سكارى
فـلا تُبَـالِ اذا مـا . أعطـوا يـداك ازْورارَا
واصْـبِرْ علـى مـا تُلاقـي . واصْـدَعْ وقيـتَ العِثارا.

٣ـ الـى الطـاغيـة

بتـاريخ (١٥/ شعبـان /١٣٤٥هـ، شبـاط/١٩٢٧م.
يقولون : "صـوت المستذلّـين خـافتٌ . وسمع طغـاة الأرض أطـرشُ أصخـمُ"
وفـي صَيْحـة الشعب المسخّر زعـزعٌ . تَخِرُّ لها شمُّ العروش، وتهْـدَمُ
ولَمْلَمَـةُ الحقّ الغَضـوب لها صـدى . ودمدمةُ الحرب الضروس لهـا فـمُ
اذا التفّ حول الحـقّ قـومٌ فـانّهُ . يصرّمُ أحـداثَ الـزمـانِ ويُـبْـرَمُ

××××××××××

لك الويلُ يـا صَـرْحَ المظالم من غـدٍ . اذا نهض المستضعفون وصمّـمـوا !
اذا حطـمَّ المستعبدونَ قيودَهُـمْ . وصبّوا حميم السخـط أيّـان تعلم . !
أغرّكَ أن الشعبَ مغضٍ على قـذى . وأنّ الفضـاءَ الرَّحْبَ وسنانُ، مظلـم ؟
ألا أنّ أحـلامَ البلاد دفينـةٌ . تجمجم فـي أعماقها مـا تجمجم
ولكن سيأتي بعد لأيّ نشورهـا . وينبثق اليوم الذى يتـرنّـم
هو الحقُ يُفضي ثمّ ينهض ساخطا . فيهدِمُ مـا شاد الظّلام(١) ويحطـمُ
غدا الرّوْعُ إن هبّ الضعيفُ بأسـه . ستعلم مَنْ مِنّا سيجرفـه الـدّمُ
الى حيث تجنى كفّه بذرَ أمسِـهِ . وتزدَرِعُ الأوجـاع لا بُـدّ ينـدمُ
ستجرع أوصـابَ الحياةِ، وتنتشـي . فتُصغي الى الحـقِ الـذي يتكلـمُ
اذا مـا سقاكَ الدهرُ من كأسـهِ التي
قرارَتُها صـابٌ مَريـرٌ وعَلْقَـمُ
اذا صعق الجبّـار تحت قيوده . يصيخُ لأوجـاعِ الحياةِ ويَفهـمُ !! (٢)

٤ـ قـالـت الأيـام

بتاريخ (١٥/ رجب /١٣٤٦هـ ٨/ كانون أول /١٩٢٨م).
يـا أيهـا السـادر فـي غيّـهِ . يـا واقفـا فـوق حطـام الجباهْ
مهلاً ! ففي أنّـاتِ مـن دستهـم . صـوتٌ رهيبٌ سـوف يدوى صـداه

×××××××

لاتـأمنَنْ الدهر، امّـا غفـا . في كهفه الـداجـي ،وطـالت رُؤاه

---

(١) : الظِلام بكسر القاف الظلاء : الظلم
(٢) : الديوان ص ١١٨.

فان قضى اليومُ وما قبلـــه . . ففى الغد الحيّ صباحُ الحياةْ

×·×·×·×·×·×·×·×

يا أيها الجبـــارا لا تـــزدرى . . فالحقُّ جبارٌ طـــويل الأنـــاةْ
يغفى ، وفى أجفانه يقظـــةٌ . . ترنـو الى الفجر الذى لا تـــراهْ (١)

٥ ــ بـــاابن أمـــــى

بتارخ ١٠ من رمضان سنة ١٣٤٧ هـ ، ٢٠ فيفرى (شباط) ١٩٢٩ م .

خُلقتَ طليقا كطيف النّســـيم . . وحُـــرّاً كنور الضحى فى ســـماهْ
تغرّدُ كالطير أينَ اندفـــعتْ . . وتشدو بما شاء وحـــىُ الالـــه
وتسرحُ بين ورود الصبـــــاح . . وتنعم بالنـور ، أنّى تـــراه
وتمشى كما شئتَ بين المـــروج . . وتقطف ورد الرُّبـــى فى رُبـــاه

×·×·×·×·×·×·×·×·×·×·×·×·×

كذا صاغكَ اللهُ يا ابن الوجـــودْ . . وألقتك فى الكون هذى الحيـــاه
فمالك ترضى بـذّل القيـــــودْ . . وتحنى لمن كبّلوك الجبـــــاه ؟
وتُسكتُ فى النفس صوت الحيـــــاة . . القوىّ اذا ما تغنّى صَـــداهْ ؟
وتطبق أجفانك النّـــــــيراتِ . . عن الفجـر ، والفجرُ عذبٌ ضِيـــاهْ ؟
وتقنع بالعيش بين الكهـــــوف . . فأين النشيد ؟ و أين الابـــاه ؟
أتخشى نشيد السـماء الجميـــل ؟ . . أترهب نور الفضا فى ضحـــاه ؟
ألا انهضْ وسر فى سبيل الحيـــاة . . فمن نام لم تنتظرْه الحيـــاة !
ولا تخشينَّ مما وراء التـــــلاع . . فما ثَمَّ الاّ الضحى فى صبـــاه
والاّ ربيعُ الوجـود الفَـــريـــرُ . . يطـــرّزُ بالوردِ ضـــافى رداه
والاّ أريجُ الزهـور الصِّبـــــاحِ . . ورقصُ الأشعّةِ بين الميـــاه
والاّ حمـامُ المروج الأنيـــــقُ . . يُغرّدُ منطلقاً فى غنـــــاه
الى النّـــورِ ، فالنورُ عذبٌ جَميـــلٌ . . الى النورِ ، فالنورُ ظلُّ الالـــه (٢)

×·×·×·×·×·×·×·×·×·×·×·×·×·×·×

٦ ــ النـــبى المجهـــول (٣)

بتارخ ٢٠ من شعبان سنة ١٣٤٨ هـ ــ ٢١ جانفى (كانون أول) سنة ١٩٣٠ م .

أيها الشعب ! ليتنى كنت حطّـــا . . با فأهْوى على الجذوع بفأســـى !
ليتنى كنت كالسيول ، اذا ســـا . . لت تَهدُّ القبورَ رمساً برمـــس !

---

(١) : الديوان ص ١٦٤ .
(٢) : الديوان ص ٢٢٠ .
(٣) : الديوان ص ٢٤٦ .

ليتني كنت كالرياح فأطوى ... كلّ ما يخنق الزهور بنحسي !
ليتني كنت كالشتاء ، أغشّى ... كلّ ما أذبل الخريفُ بقرسي !
ليت لي قوّةَ العواصف باشمـ ... ـي فألقي إليك ثورةَ نفسي !
ليت لي قوّةَ الأعاصير ، ان ضجّـ ... ـتْ فأدعوك للحياة بنفسي !
ليت لي قوّةَ الأعاصير ، لكن ... أنت حيٌّ ، يقضي الحياة برمس !
أنت روحٌ غبيّةٌ ، تكره النو ... رَ ، وتقضي الدهورَ في ليل ملس
أنت لا تدرك الحقائق ان طا ... فتْ حواليك دون مسٍّ وجس
في صباح الحياة ضمّخْتُ أكوا ... بي وأترعتُها بخمرة نفسي
ثمّ قدّمتُها اليكَ ، فأهرقـ ... ـتَ رحيقي ، ودُسْتَ يا شعبُ كأسي !
فتألّمْتُ ثم اسكتُّ الا ... مي ، وكفكفتُ من شعوري وحسّي
ثم نَضَدْتُ من أزاهير قلبي ... باقةً لم يمسّها أيُّ انسِ
ثم قدّمتُها اليك ، فمزّقـ ... ـتَ وروحي ، ودُستَها أيَّ دوسِ
ثم ألمستَني من الحزن ثوبا ... وشوك الجبال توّجتَ رأسي
انني ذاهبٌ الى الغاب يا شعـ ... ـبُ لأقضي الحياة ، وحدي ، ببأس
انني ذاهب الى الغاب ، علّي ... في صميم الغابات أدفن بؤسي
فهي تدري معنى الحياة ، وتدري ... أنّ مَجْدَ النفوس يقظةُ حسّ
ثمّ أقضي هناك ، في ظلمة اللي ... ـل ، وألقي الى الوجود بيأسي
ثمّ تحتَ الصنوبرِ الناضر الحلـ ... ـو تَخُطُّ السيولُ حفرةَ رمسي
وتظلّ الطيورُ تلغو على قبـ ... ـري ويشدو النسيمُ فوقي بهمس
وتظلّ الفصولُ تمشي حوالـ ... ـيّ كما كنّ في غضارة أمسي
أيها الشعب ! أنتَ طفلٌ صغيرٌ ... لا عبٌ بالتراب والليلُ مُمسِ !
أنت في الكون قوّةٌ ، لم تسسْها ... فكرةٌ عبقريّةٌ ، ذات بأس
أنت في الكون قوّةٌ كبّلتْها ... ظلماتُ العصور ، من أمس أمس
والشقيُّ الشقيُّ من كان مثلي ... في حساسيّتي ، ورقّةِ نفسي

×·×·×·×·×·×·×·×·×·×·×·×·×

هكذا قال شاعرٌ ، ناولَ النا ... سَ رحيقَ الحياةِ في خير كأس
فأشاحوا عنها ، ومرّوا غضابا ... واستخفّوا به ، وقالوا بيأس :
« قد أضاع الرشاد في ملعب الجـ ... ـن فيا بؤسه ، أصيب بمسّ »
« طالما خاطبَ الخواطِفَ في الليـ ... ـل وناجى الأمواتَ في غير رمس »
« طالما رافقَ الظلامَ الى الفا ... ب ونادى الأرواحَ من كلّ جنس »
« طالما حدّثَ الشياطين في الوا ... دي ، وغنّى مع الرياح بجرس »
« انّه ساحرٌ ، تملّكُه السحـ ... ـرُ الشياطينُ ، كلّ مطلعِ شمس »

" فأبعدوا الكافرَ الخبيثَ عن الهيـ . . كل إنَّ الخبيثَ منبعُ رجس "
" اطردوه ، ولا تُصيخوا اليـه . . فهو روحٌ شرّيرةٌ ، ذات نحس "

xoxoxoxoxoxoxoxoxoxoxoxoxoxoxo

هكذا قال شاعرٌ فيلسوف . . عاشَ في شعبه الغبيّ بتعس
جَهلَ الناسُ روحَه ، وأغا . . نيها فساموا شُعورَه سوْمَ بخس
فهو في مذهب الحياة نبيٌّ . . وهو في شعبه مصابٌ بمسّ
هكذا قال ، ثمّ سار الى الفا . . بليها حياةَ شعرٍ وقُدسِ
وبعيداً ، هناك في معبدِ الفا . . بالذى لا يُظلّه أىّ بؤس
في ظلالِ الصّنوبر الحلو ، والزيتون . . يقضي الحياة : حَرْسا بحرس
في الصباحِ الجميل ، يشدو مع الطي . . رويمشي في نشوة المتحسّي
نافخاً نايَه حواليْه ، تهتزّ . . ورودُ الربيع من كلّ فقس
شَعْرُهُ مُرْسَلٌ تداعبه الريـ . . ـحُ على منكبيْه مثل الدمقس
والطيورُ الطِّرابُ تشدو حواليه . . وتلفوا فى الدوح ، من كلّ جنس
ويراه عند الاصيل ، لدى الجد . . ول يرنو للطائر المتحسّي
او يغنّي بين الصّنوبر ، أو يسـ . . ـرى الى سُدْفةِ الظلام الممسّي
فاذا أقبل الظلامُ ، وأمستْ . . ظلماتُ الوجود في الأرض تُغْسي
كان في كوخه الجميل مقيما . . يسأل الكون في خشوع وهمس
عن مصبِّ الحياة ، أين مداه ؟ . . وصميم الوجود أيّانَ ، يُرسي ؟
وأريج الورود في كلّ وادٍ . . ونشيد الطيور ، حين تُمسّي
وهزيمِ الرياح ، في كل فجّ . . ورسوم الحياة من أمسِ أمس
وأغاني الرُعاةِ أين يُسوارى . . ـها سكونُ الفضا ، وأيّانَ تمسي ؟؟

xoxoxoxoxoxoxoxoxoxoxoxo

هكذا يصرف الحياةَ ، ويُفني . . حَلَقاتِ السنين ؛ حَرْسا بحرس
يالها من معيشةٍ في صميم الفا . . بتُضحي بين الطيور وتمسي !
يا لها من معيشة ، لم تُدنّسْ . . ها نفوس الورى بخبث ورجس
يا لها من معيشة ، هيَ في الكو . . ن حياة غريبة ، ذات قدس .

+++++xoxoxoxo+++++++

٧ـ ارادة الحياة (١)

بتاريخ ـ ٢٦ من جمادى الأولى سنة ١٣٥٢هـ، ١٦/ سبتمبر/ ١٩٣٣م.

اذا الشعبُ يوما أراد الحياة .·. فلا بُدّ أن يستجيبَ القدرْ
ولا بدّ لليـــل أن ينجلي .·. ولا بدّ للقيد أن ينكسرّ
ومَنْ لم يعانقْه شوقُ الحياةِ .·. تبخّرَ في جوّها واندثر
فويل لمن لم تَشُقْهُ الحياة .·. من صفْعة العدَم المنتصر

×·×·×·×·×·×

ودمدمت الرّيحُ بين الفجاج .·. وفوق الجبال وتحت الشجْر
٣اذا ما طمحتُ الى غايةٍ .·. ركبتُ المنُى ،ونسيتُ الحذرْ
" ولم أتجنّب وعورَ الشّعاب .·. ولا كُبّةَ اللّهَب المستعر
"ومَنْ لا يحبُّ صعودَ الجبال .·. يعش أبدَ الدهر بين الحُفَر
فمجّت بقلبي دماءُ الشباب .·. وضجّت بصدري رياحٌ أُخَر
وأطرقتُ،أصغي لقصف الرعود .·. وعزف الرياح ،ووقع المطر

×·×·×·×·×·×·×

وقالت لـيَ الأرضُ لمّا سألـت :. "أيا أمُّ هل تكرهين البشرْ؟"
"أُباركُ في الناس أهلَ الطموح .·. ومَن يستلذّ ركوبَ الخطرْ"
" وألعنُ مَنْ لايُماشي الزمانَ .·. ويَقنعُ بالعيْش عيشَ الحُجَرْ"
" هو الكون حيٌّ ،يحبُّ الحياة .·. ويحتقرُ الميْتَ،مهما كَبُرْ"
"فلا الأفْق يحضُن سيْتَ الطيور .·. ،ولا النحلُ يلثمُ ميتَ الزهرْ"
" ولولا أمومةُ قلبي الرؤوم .·. لما ضمّت الميْتَ تلك الحُفَرْ"
" فويلٌ لمَنْ لم تَشُقْهُ الحياةُ .·. مِنْ لعنةِ العدمِ المنتصرْ!"
وفي ليلةٍ من ليالي الخريف .·. سفيْتُ المقبّلةِ بالأسى والضجرْ
سَكِرتُ بها من ضياء النجوم .·. وغنّيْتُ للحُزْن حتى سَكِرْ
سألتُ الدجى : هل تُميدُ الحيا .·. ةُ لما أذبلته ربيعَ العمرْ؟
فلم تتكلّمْ شفاهُ الظلام .·. ولم تترنّمْ عذارى السّحَرْ
وقال ليَ الغابُ في رقّةٍ .·. مُحبّبةٍ مثل خفْق الوَتَر:
"يجيء الشتاءُ،شتاءُ الضباب .·. بِشتاءُ الثلوجِ ،شتاءُ المطرْ"
"فينطفئُ السّحرُ،سحرُ الغصو .·. نِ،وسحرُ الزهور،وسحرُ الثمرْ"
"وسحرُ السماءالشجيّ الو ديـ .·. ـعُ،وسحرُ المروجِ الشهيُ ،العَطِرْ"

---

(١) :الديوان ص ٤٠٦.

" وتهوى الغصونُ، وأوراقُها . . وأزهارُ عهدٍ حبيبٍ نضرْ "
" وتلهو بها الريح في كل وادٍ . . ويدفنها السيلُ أنّى عَبَرْ "
" ويفنى الجميعُ كحُلْمٍ بديعٍ، . . تألّقَ في مهجةٍ واندثرْ "
" وتبقى البذورُ، التي حُمِّلَتْ . . ذخيرةَ عُمْرٍ جميلٍ، غَبَرْ "
" وذكرى فصولٍ، ورؤيا حياةٍ . . وأشباحَ دنيا، تلاشتْ زُمَرْ "
" لطَيْفِ الحياةِ الذي لا يُمَلّْ . . وقلبِ الربيعِ الشذيِّ الخضرْ "
" وهالمةَ بأغاني الطيورِ، . . وعطرِ الزهورِ، وطعمِ الثمرْ "

×·×·×·×·×·×·×·×·×·×·×

" ويمشي الزمان، فتنمو صروف . . وتذوى صروف، وتحيا أُخَرْ "
" وتُصْبِحُ أحلامها يقظةً . . مُوَشّحةً بغموضِ السَّحَرْ "
" تسائل: أين ضباب الصباح؟ . . وسِحْرُ المساء؟ وضوءُ القمرْ؟ "
" وأسرابُ ذاك الفراشِ الأنيـ . . ـقِ ونحلٌ يغني؟ وغيمٌ يمرّ؟ "
" وأين الأشعّةُ والكائناتُ؟ . . وأين الحياة التي أنتظرْ؟ "
" ظمئتُ الى النور، فوق الغصو . . نِ ظمئتُ الى الظلّ تحت الشجرْ "
" ظمئتُ الى النهرِ بين المرو . . جِ، يغنّي ويرقص فوق الزهَرْ! "
" ظمئتُ الى نَغَمات الطيو . . رِ، وهَمْسِ النسيمِ، ولحنِ المطرْ "
" ظمئت الى الكون! أين الوجودُ؟ . . وأنّى أرى العالَمَ المنتظرْ؟ "
" هو الكونُ، خلفَ سبات الجمودِ، . . وفي أفقِ اليقظاتِ الكُبَرْ "

×·×·×·×·×·×·×·×·×·×·×

" وما هو الاّ كخفقِ الجناحِ . . حتى نالَ شوقُها وانتصرْ "
" فصَدّعت الأرضَ من فوقها . . وأبْصرت الكونَ عذبَ الصُّوَرْ "
" وجاء الربيعُ بأنغامِه، . . وأحلامه، وصباه المَطِرْ "
" وقبّلها قُبَلاً في الشفاه، . . تميد الشباب الذي قد غَبَرْ "
" وقال لها: قد مُنِحْتِ الحياةَ؟ . . وخُلِّدْتِ في نسلك المُدّخَرْ "
" وباركَكِ النّورُ، فاستقبلي . . شبابَ الحياة وخِصْبَ العُمُرْ "
" ومَنْ تَعْبُدُ النورَ أحلامُه، . . يُباركُهُ النّورُ أنّى ظهرْ "
" اليكِ الفضاءُ، اليكِ الضياءُ، . . اليكِ الثرى الحالِمَ المزدهرْ "
" فميدي كما شئتِ، فوق الحقو . . لِ، بحلّو الثمار وغضّ الزّهَرْ "
" وناجي النسيمَ، وناجي الغيومَ، . . وناجي النجومَ، وناجي القمرْ "
" وناجي الحياةَ وأشواقَها . . وفتنةَ هذا الوجودِ الأغرْ "
" عفّ الدجى عن جمالٍ عميقٍ . . يُشيبُ الخيالَ، ويُذكي الفِكَرْ "

" ومُدّ على الكون سحرٌ غريبٌ . . . يُصرّفهُ ساحرٌ مقتدرْ "
" وضاءت شموعُ النجومِ الوضاءْ . . وضاعَ البخورْ ، بخورُ الزّهرْ "
" ورفرف روحٌ ، غريبُ الجمالْ . . بأجنحةٍ من ضياءِ القمرْ "
" وأعْلِنَ في الكون : أنّ الطموحَ لهيبُ الحياةِ ، وروحُ الظفرْ "
" اذا طمحتْ للحياة النفوسْ . . فلا بدّ أنْ يستجيبَ القدرْ "

==========

==========

==========

=====

==

=

٨ـ الى الشعب

٢٥ / من جمادى الثانية /سنة ١٣٥٢هـ، ١٥/ أكتوبر /سنة ١٩٣٣م. (١)

أين يا شعبُ قلبُك الخافقُ الحسّا ... سُ؟ أين الطموحُ، والأحلامُ؟
أين يا شعبُ روحك الشاعرُ الفنـ ... ـانُ؟ أين الخيال والالهامُ؟
أين يا شعبُ، فنك الساحرُ الخلّا ... قُ؟ أين الرسومُ والأنغامُ؟
ان يمّ الحياة يَدْوى حواليـ ... ـكَ فأين المغامرُ المِقدامُ؟
أين عزمُ الحياةِ؟ لا شيءَ الاّ ... الموتُ، والصمتُ، والأسى، والظلامُ
عمرٌ ميّتٌ، وقلبٌ خوائٌ ... ودمٌ لا تثيرهُ الآلامُ
وحياةٌ تنامُ في ظلمة الوا ... دى وتنمو من فوقها الأوهامُ
أيّ عيشٍ هذا، وأيّ حياةٍ ... "رُبَّ عيشٍ أخفُّ منه الحِمامُ" (٢)
قد مشتْ حولكَ الفصولُ وغنّتـ ... ـكَ فلم تبتهج، ولم تترنّمْ
ودَوَتْ فوقك المواصفُ والأنـ ... ـواءُ حتّى أوشكْتَ أن تتحطّم
وأطافتْ بك الوحوشُ وناشتـ ... ـكَ فلم تضطرب، ولم تتألم
يا الهي! أما تحسُّ؟ أما تشـ ... ـدو؟؟ أما تشتكي؟ أما تتكلّمْ؟
مُلّ نهرُ الزمان أيامك المسـ ... ـتى وأنقاضَ عُمْرك المتهدّم
أنتَ لا ميّتٌ فيبلَى، ولا حيـ ... ـيٌّ فيمشي، بل كائنٌ ليس يُفْهَمْ
أبدا يرمق الفراغَ بطرفٍ ... جامدٍ، لا يرى العوالمَ، مُظْلِمْ
أيّ سِحرٍ دهاكَ، هل أنتَ مسّـ ... ـحورٌ شقيٌّ؟ أو ماردٌ يتهكّمْ؟

×××××××××××××××××

آهِ! بل أنت في الشعوب عجو ... زٌ، فيلسوفٌ مُحَطَّمٌ في اهابهْ
ماتَ شوقُ الشباب في قلبه الذا ... وي، وعزمُ الحياةِ في أعصابهْ
فمضى ينشد السلام .... بعيدا ... في "قبور الزمان" خلفَ هضابهْ
وهناكَ، اصطفى البقاءَ مع الأمـ ... ـوات، في "قبر أمسه" غيرَ آبه
وارتضى القبرَ مسكناً، تتلاشى ... فيه أيامُ عمرِهِ المتشابهْ
وتناسى الحياةَ، والزمنَ الغدّا ... ويَ، وما كان مِنْ قديم رغابهْ
فالْزَمِ القبرَ... فهو بيتٌ شبيهٌ ... بكَ في صمت قلبه، وخرابه
واعبدِ الأمسَ واذكرْ صُوَرَ الما ... ضي فدُنْيا العجوز ذكرى شبابهْ

+++++++++++++++++

واذا مرّت الحياةُ حواليـ ... ـكَ جميلاً، كالزهر غضّاً صباها
تتغنّى الحياة بالشوق والعيـ ... ـشِ فيُحْيي قلبَ الجماد غناها
والربيعُ الجميلُ، يرقص فو ... قَ الوردِ، والعشبِ، مُنْشِداً، تيّاها

---

(١) :الديوان ص ٤٢٦. (٢) :عجز هذا البيت للمتنبي، صدره: ذلّ من يغبط الذليل بعيشٍ.

ومشى الناس خلفهـا ، يتملّـــــون . . جمال الوجود في مـــراهـــا
فاحذر السّحـر! أيها الناسك العـقـد . . يّس ان الحياة يفـوى بهاهـــا
والربيع الفنّان شاعرهـــــا المفنّـــ . . ـتون يفوى بحبهـا وهواهـــا
وتملّ الجمال في رمم المـــوتـــى ! . . بعيدا عن سحرهـا وصداهـــا
وتغزّل بسحر أيّـامك الأولـــــى . . وخـلّ الحيـاة تخطـو خطاهـــا

****

واذا هبّت الطيور مـــع الفجـــر ، . . تغني بين المروج الجميلـــه
وتحيّي الحياة ،والعـالـــم الحـــيّ . . بصوت المحبّة المعـــسولـة
والفراش الجميل رفرف في الـــروّ . . ض،يناجي زهـوره المطـــوله
وأفاق الوجود للعمل المـــجـّ . . ـدى وللسعّي ،والمعاني الجليـه
ومشى الناس في الشعـاب وفـي الغـا . . ـغاب وفوق المسالك المجهـولـه
ينشدون الجمال ،والنور ،والأفـّـــ . . ـراح والمجد ،والحياة النبيّلـه
فاغضض الطرف في الظلام! وحـــاذر . . فتنة النور . . ! فهي رؤيا مهولـه
وصباح الحياة لايوقظ المـــســو . . تى ولا يرحم الجفون الكليلـــه

****

كلّ شيء يعاطف العالـم الحـــيّ . . ويذكـي حياتـه ،ويفيـــده
والذى لايجاوب الكون بـالاحـــ . . ـساس،عبء على الوجود وجـــوده
كل شيء يساير الزمن المـاشـي . . بعزم ،حـتى التراب ، ودوده
كل شيء ـ الاك ـ حـيّ ،عطـوف . . يؤنس الكون شوقـه ونشيـده
فلماذا تعيش في الكون يـا صاح! . . وما فيك من جِـنّيّ يستفيـده
لست يا شيخ للحيـاة بـأهـل . . أنت داء يبيدهـا وتبيـده
أنت قفر جهنـّميّ لعـين ، . . مظلم ،قاحـل ،مريـع جمـوده
لا ترف الحياة فـلا طيـ . . ـر يغنّي ،ولا سحـاب يجوده
أنت يا كـاهـن الظلام حيـاة . . تعبد الموت!! أنت روح شقـيّ
كافر بالحياة والنـور ، لا . . يصغي الى الكون قلبـه الحجريّ
أنت قلب ،لا شـوق فيـه ولا عزّ . . م وهذا داء الحياة الـدّويّ
أنت دنيا ، يظلّهـا أفـق المـا . . ضي وليل الكآبـة الأبـديّ
مات فيها الزمان ،والكون الآ . . أمسهـا الغابر ، القديم ،القصيّ
والشقيّ الشقيّ ،في الأرض قلـب . . يومه ميّت ،وماضيه حـيّ
أنت لاشيء في الوجـود ،فنـا . . دره الى الموت فهـو عنـك غنيّ

××××××××××××××××××××

××××××××××××××

×××××××

٩ – الى طغاة العالم

==========

بتاريخ / ٢٣ / من ذو الحجة /سنة ١٣٥٢هـ ، ٨ أفريل "نيسان / سنة ١٩٣٤م. "

ألا أيها الظالمُ المُستَبِدُ . . حبيبَ الظلام ،عدوّ الحياه
سخرتَ بأنّات شعب ضعيف . . وكفّك مخضوبةٌ من دماه
وسرت تشوّهُ سِحْرَ الوجودِ . . وتبذر شوك الأسى في رُباه

****

رُوَيْدَكَ إلا يخدعنك الربيعُ . . وصحوُ الغضاء ،ووضوء الصباحْ
ففي الأفُق الرحب عولُ الظلام . . وقصفُ الرعود ،وعصف الرياح
حذار فتحت الرماد اللهيبُ. . ومن يبذرِ الشوك يجنِ الجراح

****

تأمّلْ ! هُنالك إنّي حصدْتُ . . رؤوسَ الورى وزهورَ الأملْ
وروّيْت بالدمِ قلبَ التراب . . وأشربتُه الدمعَ حتى ثمِل
سيجرفكَ السيلُ ،سيلُ الدماء .. . ويأكلُك العاصفُ المشتعِل (١)

××××××××××××××××××××

××××××××××××××××××

××××××××××××××

××××××××××

×××××

××

×

---

(١) : الديوان ص ٤٥٧.

٩ـ الدنيا الميتة (١)

بتاريخ / ٢٨ من ربيع الثاني / ١٣٥٣هـ ، ١٠ / اوت "آب" / سنة ١٩٣٤م .

اني أرى ... ،فأرى جموعاً جمّةً . . لكنّها تحيا بلا ألباب
يدوى حواليها الزمانُ ، كأنما . . يدوى حوالَيّ جندلٍ وترابِ
واذا استجابوا للزمان تناكروا . . وتراشقوا بالشوق والأحصاب
وقضوا على روح الأخوّة بينهم . . جهلاً وعاشوا عيشة الأغراب
فرحت بهم غولُ التعاسة والفنا . . ومطامعُ الشلاّب والفلاّب
لُعَبٌ، تحركها المطامعُ ، واللهى . . وصغائرُ الأحقادِ والآرابِ
وأرى نفوساً من دُخانٍ جامدٍ . . ميتٍ ،كأشباحٍ ،وراءَ ضبابِ
موتى ،نسوا شوقَ الحياةِ وعزمها . . وتحرّكوا كتحرّكِ الأنصابِ
وخبا بهم لهبُ الوجودِ،فما بقوا . . الاّ كمُحترقٍ من الأخشابِ
لاقلبَ يقتحمُ الحياةَ ، ولا حجىً . . يسمو سُموَّ الطائرِ الجوّابِ
بلْ في التُرابِ الميتِ ،في حزنِ الثرى . . تنموُ مشاعرهم مع الأعشابِ
وتموتُ خاملةً ،كزهرٍ بائسٍ . . ينمو ويذبلُ في ظلامِ الغابِ
أبداً تُحدقُ في التراب،ولا ترى . . نورَ السماء فروحها كترابِ
الشاعرُ الموهوبُ يُهرقُ فنّهُ . . هدراً على الأقدامِ والأعتابِ
ويعيشُ في كونٍ عقيمٍ ،ميّتٍ . . قد شيّدتْهُ غباوةُ الأحقابِ
والعالمِ النحريرُ ينفقُ عمرَه . . في فهمِ ألفاظٍ ،ودرسِ كتابِ
يحيا علي رممِ القديمِ المجتوى . . كالدودِ في حممِ الرمادِ الخابي
والشعبُ بينهما قطيعٌ ضائعٌ . . دنياه دنيا مأكلٍ وشرابِ
الويلُ للحسّاسِ في دنياهُمُ . . ماذا يُلاقي من أسىً وعذابِ!

×××××××××××××××××××××××

××××××××××××××××

××××××××××××

×××××××××

××××××

×××

×

---

(١) : الديوان ص ٤٨٠ .

١٠ــ فلسفة الثعبان المقدس (١)

بتاريخ / ٩ من جمادى الأولى / سنة ١٣٥٣هـ ، ٢٠ / أوت "١ آب" / سنة ١٩٣٤م

كان الربيعُ الحيُّ روحاً ،حالماً . . غضَّ الشباب ،معطّرَ الجلبابِ
يمشي على الدُّنيا بفكرةِ شاعرٍ . . ويطوفُها في موكبٍ خلّابِ
والأفقُ يملأُهُ الحنانُ ،كأنّهُ . . قلبُ الوجودِ المُنتجِ الوهّابِ
والكونُ من طُهرِ الحياةِ كأنّما . . هو مَعبدٌ ،والغابُ كالمحرابِ
والشاعرُ الشحرورُ يرقصُ مُنشِداً . . للشمسِ ،فوقَ الورْدِ والأعشابِ
شِعرَ السعادةِ والسلامِ ،ونفسُهُ . . سَكرى بسحرِ العالمِ الخلّابِ
وراءَ ثعبانِ الجبالِ ،ففمّهُ . . ما فيه من مَرحٍ ،وفيضِ شبابِ
وانقضَّ مُصطفِناً عليهِ كأنّهُ . . سَوطُ القضاءِ ،ولَعنةُ الأربابِ
هِبتَ الشقيَّ ،فصاحَ في هَولِ القضا . . مُتلفّتاً للصائلِ المُنتابِ
وتدفّقَ المسكينُ يصرخُ شائراً : ــ "ماذا جَنيتُ أنا فحقَّ عِقابي!"
" لاشيءَ إلّا أنّني مُتفرّدٌ . . بالكائناتِ ،مُفرّدٌ في غابي"
" وسعادةُ الضعفاءِ جُرمٌ ،سالهُ . . عِندَ القويِّ سوى أشدِّ عقابِ"
" ألقى من الدُّنيا حَناناً طاهراً . . وأبثُّها نجوى المُحبِّ الصابي"
" أيُعَدُّ هذا في الوُجودِ جريمةً ؟! . . أينَ العَدالةُ يا رفاقَ شبابي ؟"
" لا (أينَ ؟) فالشرعُ المُقدّسُ ههنا . . رأيُ القويِّ وفكرةُ الفلّابِ!"
" وسعادةُ الضعفاءِ جُرمٌ ... بالهُ . . عِندَ القويِّ سوى أشدِّ عقابِ!"
" ولتشهدِ الدنيا التي غنيتُها . . حُلمَ الشبابِ ،ورَوعةَ الإعجابِ"
" أنّ السلامَ حقيقةٌ مكذوبةٌ . . والعدلُ فلسفةُ اللهيبِ الخابي"
" لاعدلَ ،إلّا إنْ تعادلتِ القوى . . وتصادمَ الإرهابُ بالإرهابِ"
" فتبسّمَ الثعبانُ بسمةَ هازئٍ ، وأجابَ في سَمتٍ وفرطِ كذابِ
" يا أيها الغرُّ المُغرّرُ إنّني . . أرثي لثورةِ جهلِكَ التلّابِ"
" والغرُّ يعذرُهُ الحكيمُ إذا طغى . . جَهلُ الصِّبا في قلبِهِ الوثّابِ"
" فاكبحْ عواطفَكَ الجوامحَ ،إنّها . . شَردتْ بلُبِّكَ ،واستمعْ لخطابي"
" إنّي الإلهُ طالما عبدَ الورى . . ظلّي وخافوا لعنتي وعقابي"
" وتقدّموا لي بالضحايا منهمُ . . فرحينَ شأنَ العابدِ الأوّابِ"
" وسعادةُ النفسِ التقيّةِ أنها . . يوماً تكونُ ضحيةَ الأربابِ"

---

(١) : الديوان ص ٤٨٤ .

" فتصير في روح الألوهة بضعة . . قدسية خلصت من الأوشاب "
" أفلا يسرك أن تكون ضحيتي . . فتحل في لحمي وفي أعصابي "
" وتكون عزماً في دمي وتوهجاً . . في ناظري وحدة في نابي "
" وتدوب في روحي التي لا تنتهي . . وتصير بعض ألوهتي وشبابي . . ؟ "
" انبي أردت لك الخلود مؤلهاً . . في روحي الباقي على الأحقاب "
" فكبر ، لتدرك ما أريد وإنه . . أسمى من العيش القصير النابي "
" فأجابه البحتري في غصص الردى . . والموت يخنقه : " إليك جوابي : "
" لا رأي للحق الضعيف ، ولا صدى ، . والرأي رأي القاهر الغلاب "
" فافعل مشيئتك التي قد شئتها . . وارحم جلالك من سماع خطابي "

****

وكذاك تتخذ المظالم منطقاً . . عذباً لتخفي سوءة الارب .

==========

==========

==========

=======

==

=

١١ـ يا حماة الدين (١)

بتاريخ / ١٩ من جمادى الأولى/سنة ١٣٣٤هـ .

لقد نامَ أهلُ العلمِ نوماً مفنّطسا . . فلم يسمعوا ما ردّدتهُ الموالمُ
ولكنّ صوتاً صارخاً ،متصاعداً .. . من الروح يدرى كنهه المتصاممُ
سيوقظُ منهُمْ كلّ من هو نائمٌ . . ويُنطِقُ منهُمْ كلّ من هو واجمُ

****

سكتمُ حُماةَ الدين ! سكْتةَ واجمٍ . . ونمتمُ بملءِ الجفنِ ،والسيلُ داهمُ
سكتمُ ،وقد شمتمُ ظلاماً ،غُصونُه . . علائمُ كُفرٍ ثائرٍ ومعالمُ
مواكبُ الحادِ وراءَ سُكوتكمُ . . تضجّ وهاإنّ الفضاءُ ماتمُ
أفيقوا فليلُ النومِ ولّى شبابُه . . ولا حتلالأءِ الصباحِ علائمُ
فدونَ ضجيجِ الفاسقينَ سكينةٌ . . هي الموتُ ،مما أورثتهُ التمائمُ
عوائدُ تُحْيي في البلادِ نوائباً . . تُقدّدُ قوامَ الدينِ ،والدينُ قائمُ
أفيقوا وهُبّوا هبّةً ضيغميّةً . . ولا تُحْجموا ،فالموتُ في الجُبْنِ جاثمُ
فدونَ نِقابِ الصمتِ تنمو ملامحٌ . . تبرقعتْ الشرّ الذي لا يُقاومُ
فقد فتّ في زندِ الديانةِ معشرٌ . . أثاروا على الإسلامِ مَنْ قد يهاجمُ
فوا الحقِ ما هذى الزوايا وأهلُها . . سوى مصنعٍ فيه تُصاغُ السخائمُ
لحى اللهِ منها لم تستثرهُ حميّةٌ . . على دينه ،إنّ داهمتهُ المظالمُ
لحى اللهُ قوماً ،لم يُبالوا بمأسّهم . . يُصوبُها نحوَ الديانةِ ظالمُ

****

****

١٢ ـ زئير العاصفة (٢)

تسائلني :مالي سكتُّ ولم أهبْ . . بقومي ،ودَيْجورُ المصائب مُظلمُ
" وسَيْلُ الرزايا جارفٌ ،متدفّقٌ . . غضوبٌ ،ووجهُ الدهرِ أربدُ أقتمُ "

****

سكتُّ ،وقد كانتْ قناتي غضّةً . . تصيحُ الى همسِ النسيمِ وتحلمُ
وقلّتُ ،وقد أصغتْ الى الريحِ مرّةً . . فجاشَ بها إعصارُهُ المتهزّمُ
وقلّتُ وقد جاشَ القريضُ بخاطري . . كما جاشَ صخّابُ الأواذيّ ،الأسحمُ

****

---

(١) : الديوان ص ١٧٥ .

(٢) : الديوان ص ٤٩٤ . ـ وهي مدونة بدون تاريخ .

" أرى المَجْدَ مصوبَ الجبينَ مُجدّلاً . . على حَسَكِ الآلامِ ،يَغمرُهُ الدَمُ "
" وقد كان وضاحَ الأسارير باسماً . . يهشُّ الى الجُلّى ،ولا يَتبرّمُ "
" فيا أيها الظلمُ المصعّرُ خدّهُ . . رويدك إنّ الدهرَ يبني ويهدمُ "
" سيثأرُ للمزّ المحطّم ثائرٌ . . رجالٌ اذا جاشَ الرّدى فهم هُمُ "
" رجالٌ يرونَ الذّلَ عاراً وسبّةً . . ولا يرهبونَ الموتَ،والموتُ مقدمُ "
" وهل تَمتلي الآ نفوسٌ أبيّةٌ . . تُصدّعُ أغلالَ الهوانِ ، وتحطِمُ "

****

١٣ــ ليت شعرى (١)

==========

مَزّقتْ ثوبَ سكونِ الليلِ أنّاتٌ كليمْ
بين طيّاتِ سجافِ الغاسقِ، الدّاجي البهيمْ
حرّكتْ مِنّي شعوراً كانَ مِنْ قبلُ رحيمْ
فتحسّستُ مكانَ الصوتِ ،في ذاك الأديمْ
فاذا بالأرضِ مُلقىً هيكلٌ نضْوٌ كليمْ
عفّرتْهُ التُّرْبُ والعَيْنُ على الخَدِّ سجومْ
فتأمّلتُ مليّاً وجههُ تحتَ الغيومْ
فاذا المُلقىً بوادي وطني جِسْمُ الملومْ !
يا بني الأوطانِ هُبّوا فلقد طالَ الوُجُومْ
وانهضوا نهضةَ جبّارٍ بعزمٍ مستقيمْ
لستُ أبغي نهضةَ العاجزِ يتلوها الحُسومْ
ليتَ شعرى ! هل سحابُ الجهلِ تذروهُ المقيمْ ؟
فترى الأعينُ بَذْرَ العلمِ قد شقّ الغيومْ ؟
ليتَ شعرى ! يا بلادى هل تصافيكِ الملومْ ؟

==========

==========

=========

=== ==

==

---

(١) : الديوان / ص ٥١٢ . — وقد وجدت بغير تاريخ .

الباب الخامس

الحب وصوره في شعر الشابي

ليس في الوجود انسان رقيق المشاعر ،مرهف الاحساس ،لا يخفق قلبه للحب العذرى الطاهر ،ولا يفتتن بالجمال وبمنظر الجمال الساحر الجذاب ،ويعلق بالحس في جميع مظاهره المادية والمعنوية .

وما زالت النفس البشرية تشعر بهذه العاطفة الجامحة القوية ،فانها تجد بالشعر خير معبر ناطق عما يلابسها من متباين الحس ومختلف الشعور، وأصدق محدث ينطق بما توحي به بيئة كل شاعر،ومحيطه الذى نشأ فيه، وبما يؤثر عليه في حياته من متنوع الحوادث والخطوب .

لقد خفق قلب الشابي بالحب ،وهو وحده كان له أكبر عزاء وأعظم عوض لكل ما فقده في حياته المليئة بالآلام والسقم ،وكان يرى في الحب مشتهى نفسه، وأمنية فؤاده ،ولولا هذا الحب العذرى لما خفق قلبه بالحياة التي كرهها وسئمها ،فكل ما فيها قاتم مظلم الجوانب ، مسوّد الصفحات ،ولا يثيره سوى ضوء الحب الذى يسطع،ويفجر حنايا نفسه الحالكة ،فينعشها ويحبب اليها الحياة .

ولم يكن الشابي رحمه الله تعالى ـ ميالا للمجد أو للجاه الذي ينشده غيره من محبي الظهور والرياء ،ولم يكن راغبا في الثراء العريض والعيش الهنيء ،لأنه كان يقنع بما قسمه الاله للناس من حظوظ وأرزاق ،بل كان يصبو ويتوق الى مجد يختلف عن مجد الناس،يجده ويحس به في هذا الحب الذى كان يملأ قلبه بهاء ونقاء ورواء ، وكان يتمثل له هذا الحب الصافي في ضوء الفجر ،وفي شدو الطير ،وفي رفيف الزهر ،فيملأ نفسه سرورا لا يعدله سرور . (١)

صور الحب في شعر الشابي

ولعلنا من قراءة شعره قراءة مستأنية ،أن نجد ألوانا مختلفة من الحب وصورا رائعة ،اذ لم يقتصر في حبه على المرأة والتغني بما فيها من جمال ومفاتن ،وانما ذهب في حبه مذاهب أخرى ،خالف بها أقرانه

---

(١) : الشاعران المتشابهان ـ أبو القاسم البدرى ص ٥٧ .

من الشعراء ،وأهم هذه الصور التي تتضح من شعره هي :

١ – حب الأرض والوطن والدعوة الى تحريره .

٢ – حب المرأة .

٣ – حب والده .

٤ – حب الحياة .

٥– حب الطبيعة .

وسنتحدث عن كل صورة من هذه الصور على حده :

أولا : حب الأرض والوطن

==========

نشأ الشابي في تونس ونفسه الرقيقة يتملكها حُبّان عنيفان ،أهمهما وأولهما حبه لتونس الخضراء الجميلة ،وحبه الثاني للعلم والمعرفة وعاش سنواته القليلة المترعة بالأحزان ، يوزع القلب بين حبه لتونس، وحب العلم والمعرفة والتحصيل ،فانكب على الاطلاع يغرف منه بنهم، غير مكترث بأعصاب تتعرض للارهاق ،وبفؤاد تثخنه جراح الصدمات العنيفة ، وعرف أن حبه لتونس ان لم يكن مبنيا على العلم والمعرفة، وهادفا الى رفع مستوى شعبها ،هو حب غير مجد ،ولذا فقد كان شعاره في حبه لبلاده الجهاد المتواصل ،لكن الشعب مكبّلٌ بأغلال الاستعمار ،وبأغلال غيرها هي أشد خطورة وألم لنفس الشاعر المفكر لأنها أغلال معنوية بعيدة الأثر في حياة الأمم ،ألا وهي أغلال الجهل والفقر والتقاليد البالية ،والمعتقدات الرجعية .

وأقدم الشاعر متجندا للجهاد ،وسلاحه فكر نيرّ ونفس متفتحة وشاعرية خلّاقة مبدعة ،وثقافة عالية ترسبت فيها ثقافات عديدة .

لم يكن الشابي يتقن لغة أجنبية ،لكنه كان يقرأ كل ما يترجم عن أدب الغرب ،ويتأثر به الى أبعد حد ،ولم يكن الشابي يعرف الراحة بنفسه ، ولذا كان يرهقها بالسهر والعمل المستمر ،سعيا وراء المعرفة ،وتغذية لنفس ثائرة القابلية ، الى المزيد من الغذاء الروحي.

ولشد ما كان الشابي يتحسر ويتألم حين كان يرى الشعب التونسي مفكك الأوصال ،يتنكر للجديد في الأدب ،ويثور ثورة رجعية تقليدية رجعية الأسس في كل جهاد يزكيه الشباب الخلّاق في عزائمه وطموحه .

ويتطلع بعد ذلك ليرى المجاهدين من اخوانه ،يصار بهم الى الموت أو الى الظلام ،أو الى ظلمات السجون ،كلما قام منهم مطالب بحق أو ثائر في وجه ظلم ! فيبكي شاعرنا ذو القلب النابض ،والنفس الكريمة ،

لا بكاء تقليديا عرفه الشعراء منذ القدم ، ساعة كانوا يقفون على الأطلال ،بل بكاء الكرام الذين جدت في طلبهم المحن ! وهو اذ يخاطب تونس الجميلة يقول :

لست أبكي لمسف ليل طويل . . أو لربع غدا العفاء مراحه
انما عبرتي لخطب ثقيل . . قد عرانا ولم نجد من أزاحه
كلما قام في البلاد خطيب . . يوقظ شعبه يريد صلاحه
أخمدوا صوته الالهي بالمسف . . أماتوا صداحه ونواحه
ألبسوا روحه فميم اضطهاد . . فاتك ،شائك ،يرد جماحه

وشديد على النفس العزيزة أن تتحمل الضيم ،وألا يكون لديها من وسائل المقاومة ما تملك به الدفاع عن نفسها .

كان الشاعر ما يزال غضّ الاهاب عندما كان يرسل نفثاته الملتهبة ناطقة بالشكوى زاخرة بالحسرات،علّه يحرك في النفوس تيار الثورة ، ليعود فيقول :

أنا يا تونس الجميلة في لجّ . . الهوى قد سبحت أيّ سباحه
شرعتي حبك العميق وانيّ . . قد تذوقت مرّه وقراحه
لا أبالي وان أريقت دمائي . . فدماء العشاق دوما مباحه

لقد أحب الشاعر بلاده حبّا أراد به لو يستطيع أن يجعلها تحيا أبية ،وأحبّها ليمزّق بحبّه ستائر الأوهام ،التي كانت تحجب عنه أنوار الحقيقة ،وأراد لها حياة سعيدة عزيزة ،فاصطدم بالعقبات وكان في جهاده المستمر يتعرض للصدمات العنيفة ،فيستسلم للقنوط والخيبة ،وتتراءى له عرائس الشعر متشحة بالسواد ،فتثمر نفسه الفتية موجة من الحزن العميق فيسترسل قائلا :

ليت شعري
أيّ طير
يسمع الأحزان تبكي . . بين أحشاء الكئيب
ثمّ لا يتلو على الفجر . أغاريد النحيب
بخشوع واكتئاب (١)

ولقد أحب الشابي بلاده حبا لم يحبه أحد قبله ،وقد اتضح ذلك في روائع قصائده التي تحث التونسيين على الثورة والتمرد ،وقد مرّ ذكرها في الفصل الماضي .

---

(١) :ـ آثار الشابي وصداه ـ أبو القاسم محمد كرّو ـ من مقال لسعاد أبو شقرا ـ ص ١٩٣ .

ثانيا :

حب المرأة

يقول الأستاذ عمر فروخ :

" على الرغم من أن الشابي قد أقنع نفسه بضرورة الزواج ارضاء لأبيه ،وعلى الرغم أنه رزق من زواجه هذا ولدين ،وعلى الرغم من قول زين العابدين السنوسي ـ فان سلوك الشابي العاطفي كما نرى ذلك من ديوانه ـ لا يدل على أن الشابي كان وادعا سعيدا في حياته الزوجية.

هذه الحياة الزوجية لم تستطع أن تهب الشابي الاطمئنان الذى ينعم به الانسان عادة بالزواج ،فاندفع ـ ولمّا يمض عام واحد على زواجه الى تطلب سعادة موهومة في حب فتاة ظنّ فيها تحقيقا لأحلامه.

تلك كانت أولى السيئات التي ظهرت في حياة الشابي من أثر جبران ، ولكن هذه الفتاة التي أحبها الشابي في ابّان طفولته على الأصح ماتت وشيكا ،فأذكى موتها في نفسه الأسى على حاله ،والنقمة على حوادث الدهر"

وظل الشابي يذكر حبه هذا مدة ،ثم جعل ينساه أو يحمل نفسه على نسيانه ،وسرعان ما أطاعته نفسه فنسي حبه الأول ،وانتقل الى حب جديد ثم الى حب آخر فآخر ،ويجهر لنا الشابي في ديوانه بمواقف من الحب شوهي بأنه قد اندفع بعاطفته وراء المرأة ولا يلوى على شيء ولا ريب في أن هذا الاندفاع كان من الأسباب التي قربت منيّته اليه مع أنه كان يستطيع أن يحيا مع دائه كما عاش غيره مع أدوائهم، ولكن القضاء النافذ ،والقضاء نفسه في التهلكة بيده كان عليه كتابا موقوتا.

وهذا الحب يستحق شيئا من المناقشة ،هذا مكانها :

يرى زين العابدين السنوسي أن الشابي أحب حبين :

حبا عذريا.

وحبا صريحا.

أما الحب العذرى فكان حبا باكرا ،نما في قلبه من ألفة فتاة عرفها ونشأ معها " حتى بلغ الحادية عشرة من عمره" قبل أن يأتي الى تونس العاصمة، ولكن هذه الفتاة توفيت بعد التحاقه بالزيتونة بوقت قصير فخلّفت له حزنا ومرضا ،وانطقته شعرا عذبا كثيرا ،ثمّ ظلت ملء قلبه ونصب خياله زمنا طويلا حتى أنه أشار اليها في

مذكراته سنة ١٩٣٠م. (١)

أما محمد الحليوى فيجعل هذا الحبالباكر نفسه أحدث عهدا اذ يقول:

" ان الشابي كان في عام ١٩٢٤م شابا في الخامسة عشرة من عمره، وكان قد مضى عليه أربع سنوات في التعلم بالزيتونة، وكان والده اذ ذاك قاضيا شرعيا في رأس الجبل. ومن المرجح أن يكون الشابي قد عرف أثناء اقامته مع والده فتاة كان يلقاها ويتفسّح معها في بعض المتنزهات وأن هاته الفتاة هي التي تحدّث عنها في أوائل شعره حديثا ساذجا ونظم فيها أولى قصائده، واتفق أن ماتت في تلك المدة، وانتقلت أسرة الشابي الى زغوان سنة ١٩٢٧م ومن المؤكد عندى أن الشابي لم تكن له حياة قلبية غير تلك الفتاة التي أحبها وهو في سن الخامسة عشرة" (٢)

ولكن محمد الحليوى يصل هذا الحديث بحديث قصيدة للشابي عنوانها " صلوات في هيكل الحب" وينفي أن تكون هذه القصيدة قد قيلت في فتاة رأس الجبل، ثم يقول:

" والحقيقة أن الشابي استوحى هذه القصيدة حسبما ذكر لي (هو) شفويا من فتاة انجليزية مصورة كانت قد أقامت مدة في توزر لتصوير بعض مناظر المدينة وواحاتها على نحو ما يفعل الفنانون الأجانب في بلادنا فراها الشابي تغدو وتروح تقبل وتدبر، فاستولى جمالها وشبابها على مشاعره الى درجة الذهول الصوفي فبرفع لها تلك الصلوات".

والى جانب هذا الحب العذرى حب آخر استبد بقلب الشاعر أبي القاسم الشابي، يقول زين العابدين السنوسي:

" وفوق ذلك فان لوعة الحب العذرى على هولها - لم تطفئ كفاءة الجسد طول الأبد، ولنكن صريحين مع الواقع، فان الشابي الشاعر - برغم الصدمة التى لقيها في حبه العذرى، اذ ماتت حبيبته الصغيرة - قد أحسّ دماء الشباب ونغمات الحب تغريه".

ويمضي السنوسي فيقول:

" وانما نريد أن نثبت طواعية شاعرنا لنواميس الحب وخضوعه لسر الوجود في ذلك الملاك المجنّح الذى يصمي القلوب بنباله، ولو كان منها ذياك القلب الكبير، فهو يحدثنا بكل صراحة وصدق وجد ((ليلته عن ليلة لـه" ما فيها من حب وذكريات ثم يشتشهد السنوسي بابيات

---

(١): راجع السنوسي - ص ٢٢، ثم ٢٣ وما بعدها ثم ٢٥.

(٢): - الفكر - عدد مايو "مای" - سنة ١٩٦٠م - ص ٢٠.

للشابي من قصيدته الساحرة (١) فيها حوار صريح بين الشاعر وبين امرأة يبدو أنها من المتزينات للرجال، يقول الشابي في هذه القصيدة :

خَلِّ عَنْكَ الحياةَ عَنْكَ ،وهَيّا . . بِمُحَيّا كالصُّبْحِ طَلْقٍ أديمُهْ
وامْشِ في رَوْضَةِ الشَّبابِ طروبا . . فحوالَيْكَ وَرْدُهُ وكرومُهْ
واحتضِنّي فانني لكَ حتى . . يتَوارى هذا الدُجى ونجومُهْ
واقطف الوردَ من خُدودي وجيدي . . ونهودي وافعل بِهِ ما تروُمُهْ
وانس فيّ الحياة ،فالعُمْرُ قَفْرٌ . . مرعبٌ ان ذَوَى وجفّ نعيمُهْ
تلك يا فيلسوف،فلسفة الكونِ . . ووَحْيُ الوجودِ هذا قديمُهْ.

ويستجيب الشاعر لهذه الغانية الساحرة فيقول في نفس القصيدة :

فرماها بنظرةٍ غَشِيَتْها . . سَكْرَةُ الحُبِّ والأسى وغُيومُهْ
وتلاها ببسمةٍ رشفتها . . منه سكرانةُ الشباب رؤومُهْ
والتقتْ عندها الشفاهُ،وغنّتْ . . قُبَلٌ أجفلتْ لديها همُومُهْ
ما تريد الهمُوم من عالمٍ ضا . . ءتْ مسرّاتُهُ وغنّتْ نجومُهْ؟
ليله أسبلَ الغرامُ عليها . . سِحرَهُ الناعمَ الطريرَ نعيمُهْ
أغرق الفيلسوفُ فلسفةَ الأحـ . . ـزان في بَحْرِها ،فمن يَلومُهْ؟
انّ في المرأةِ الجميلةِ سحراً . . عبقرياً يُذْكي الأسى ويُنيمُهْ!

ويعلق على ذلك السنوسي بقوله : (ص ٣١ – السطر الأخير) :

" فالحب كان جحيمه والحب كان نعيمه ،ففنى به على كل ريح"

ولا يستغرب غديره (ص ٢٧) أن يكون الشابي قد أحب في بلدة رأس الجبل، وأحب في زغوان ،ثم أحب ثالثة في تونس،وقد يكون قد أحب فتاة بعينها ،وقد يكون أحب من بعيد مكتفيا بنظرة أو سماع .

ويقول فروخ :

وكتب اليّ الأديب الشاذلي ذو كار (٢) أن الشابي أحب فتاة ايطالية في بلدة زغوان التي كان والده قاضيا فيها ،ولم تكن هذه الفتاة تبادله الحب ولا تتبسم عليه بصداقة ،ولعلها لم تعرف بحبه لها ،ولكنه كان يجتهد في رؤيتها بل أن يكثر من رؤيتها ،ثم يترجم عن شعوره نحوها بقصائد من الغزل الرائع."

أما محمد الحليوى فيخالف هؤلاء كلهم في ذلك ويقول : (٣)

" المرأة عند الشابي هي الجميل الذى يحمل في قلبه رحيق الحياة

---

(١) : الديوان / ص٣٥٥ – ٣٦٥ .
(٢) : جده / بتاريخ ٨/٣ / ١٩٦٠م ص٢ .
(٣) : مع الشابي – محمد الحليوى / ص ٧١ – ٧٢ .

وسلسبيل الجنة ،وهي الطيف السماوي الذي هبط الى الأرض ليؤجج نيران الشباب،ويعلم البشرية طهارة النفس وجمال الحنان وهو " الشابي " لا يذكر امرأة مخصوصة ولا واقعة بعينها ،وانما يذكر المرأة والحب،فكأنه يصف فكرة لا امرأة ، ويصور مثلا أعلى لا امرأة من لحم ودم. . . ،وربما كانت حرارة شعره الغزلي ولهفته الصادقة متأتيتين من حرمانه من الاتصال بالمرأة التي توحي الي الشاعر وتوجه عاطفته وجهتها الغنية ".

لقد أراد الحليوي أن يقطع الصلة بين الشابي وبين العاطفة البشرية ليحيطه بهالة من القداسة ، ولعل القارئ ما زال يذكر قصة المصورة الانجليزية التي رآها الشاعر الشابي في تَوْزَرَ تُقْبِلُ وَتُدْبِر فاستولى جمالها وشبابها على مشاعره . (١)

وأما الأستاذ رجاء النقاش فيرى أن الحب عند الشابي حب رومانسي صادق ،وأول مظاهر الرومانسية فيه هي المثالية الكاملة ،فالمرأة التي أحبها هي امرأة من صنع خياله السامي ، انها امرأة مثالية تتكون من الأحلام والأطياف والزهور ،وهي ليست من جسد بل من روح شفافة وليست مزيجا من الخير والشر بل من الخير المطلق فهي خير مطلق وصفاء مطلق ،وحبها ليس حبا حسيا ،بل لايختلط أبدا بأي معنى من معاني الحس،انه حب روحي شفاف يسمو فوق نداء الغريزة ،ويختلف عن ذلك الحب العادي الذي يعرفه الناس .

ولعل مثالية الحب عند الشابي لم تتفتح مثلما تفتحت في قصيدته المشهورة " صلوات في هيكل الحب "ففي هذه القصيدة صورة شفافة رقيقة للمرأة ،وكأنها امرأة تجيء من عالم ملائكي سحري لم يعرفه البشر ،ويقول الشابي في هذه القصيدة :

عَذْبَةٌ أنْتِ كالطُفولَةِ كالاحْـ . . ـلام كاللَّحْنِ ،كالصَّباحِ الجَديدِ
كالسماءِ الضَحُوكِ كاللَيْلةِ القَمراءِ . . كالوَرْدِ ،كابْتِسامِ الوَليـــدِ
يالَها مِنْ وَداعَةٍ وجَمـــال . . وشَباب مُنَعَّمٍ أمْلـــودِ
يالَها من طَهارةٍ تبعثُ التقْديـ . . ـسَ في مُهْجَةِ الشقي العَنيدِ
يا لَها رِقَّةٌ يكادُ يَرِفُ النـور . . دُ مِنها في الصَخْرةِ الجُلمودِ
أنْتِ ما أنْتِ ؟ أنْتِ رَسْمٌ جَميلٌ . . عَبْقَرِيٌّ من فَنِّ هذا الوُجودِ
فِيكِ ما فِيه من غُموضٍ وسِحرٍ . . وجَمالٍ مُقَدسٍ مَعْبـــودِ

---

(١) : عمر فروخ في كتابه — الشابي شاعر الحب والحياة / ص ٦٨ — ٧٢ .

ويستمر الشابي في القصيدة على هذه الطريقة ،في الاحساس والتصوير الفني ،وكل صور المرأة عنده لاتختلف عن هذه الصور الملائكية الكاملة التي تجمع أجمل ما في العالم ،وتمثل كل المعاني الانسانية الراقية الشفافة .

واذا كان الحب عند الشابي عاطفة مقدسة تتجه الى كائن مقدس هو المرأة ،فان هذا الحب المثالي هو حب حزين لأنه يصطدم بعقبات ومشكلات تجعل منه حبا يائسا " فاجعا " فالحب في كثير من قصائده يقترن بالموت ،ان هناك دائما عقبة تعترض هذا الحب فتحوله الى مأساة والحب عند الشابي حب تراجيدي فاشل شأنه في ذلك شأن جميع الرومانسيين لأنه يغذي فيهم ذلك الشعور الى نفوسهم وهو شعور الحزن وهذا الحزن أيضا هو منطق طبيعي لأحلام خيالية تصطدم بقوانين الواقع ،ولو عدنا الى الانتاج الأدبي الرومانسي المعروف،لوجدناه دائما مُستَمَدا من عذاب الحب الفاشل ، ففي " غادة الكميليا " لألكسندر دوماس ،يفشل الحب بسبب معارضة أسرة البطل لزواجه من حبيبته لأنها ذات سمعة سيئة ، وفي " هيلويز الجديدة " لجان جاك روسّو يموت الحب بين الحبيبين لأختلاف الطبقة الاجتماعية بينهما ، وهكذا يصطدم الحب دائما بعقبة من العقبات فيصبح حبا باكيا حزينا فاشلا .

وفي شعر الشابي نجد هذه الظاهرة بوضوح في كثير من قصائده . . .

ففي قصيدة " الذكرى " يقول :

كُنّا كزَوجَيّ طائِرٍ . . في تَرَوّحَةِ الحبِ الأمينْ
نَتْلو أناشيدَ المُنَى . . بَيْنَ الخَمائِلِ والغُصونْ
مُتَفَرِدِينَ مَعَ الهلا . . ، في السُهولِ وفي الحُزُونْ
مَلأ الهوى كأسَ الحيا . . ةِ لَنا ،وشَعْشَعَها الفُتونْ
حتى اذا كِدْنا نُرشِّفُ . . خَمْرَها ،غَضِبَ المَنُونْ
فأراقَ خَمْرَ الحُبِ في . . وادي الكآبَةِ والأنينْ
وأهابَ بالحُبِ الوَديعِ، . . فَوَدّعَ العُشَّ الأمينْ
وشَدا بِلَحْنِ المَوتِ في . . الأفُقِ الحَزينِ المُستَكينْ
ثم اختفى خَلْفَ الغُيومِ، . . كأنَهُ الطَيفُ الحَزينْ

وفي قصيدة أخرى عنوانها " جدول الحب " يقترن الموت بالحب أيضا :

قَدْ كانَ لِي ما بَيْنَ أحْلامِي الجميلةِ جَدْوَلٌ
يَجْرِي بِهِ ماءُ المَحبَّةِ طاهِراً ،يَتَسَلْسَلُ
تَسْمُو بِهِ الأمْواجُ باسِمَةً كأحْلامِ الصِّبا ،
بَيْضاءَ ناصِعَةً ضَحوكاً مِثْلَ أزهارِ الرُّبى
مَيّاسَةً كَعرائِسِ الفِردَوسِ بَيْنَ حُقولِهِ
تَتلو أناشِيدَ المُنى في سَدْهِ وقفولِهِ

+**********

قَدْ كان ذلك كُلُّهُ بالأمْسِ ! بالأمسِ البعيدْ
والأمْسُ قَدْ جَرَفَتْهُ مَقْهوراً يَدُ الموتِ العَتيدْ

وكثير من قصائد الشابي عن الحب تعبر عن نفس المأساة : مأساة اقتران الحب بالموت ، وذبول الزهور على يد الخريف القاسي الذى يحمل اليها رياح العدم الصفراء فتقضي على كل ما فيها من علامات الحياة .

ولكنه على رغم ذلك كله كان يشعر أن معنى الحياة الرئيسي هو الحب بل ان الموت لايصبح موتا الا لأنه يقضي على الحب ،كأن الحب عند الشاعر قد أصبح هو المعنى الوحيد للحياة ، أو كأنه مرادف لتكملة الحياة ، بل لكلمة الحياة ، وفي قصيدته الجميلة " أنا أبكيك للحب" يقول الشاعر أبو القاسم الشابي :

لستُ يا أمسي أبكيكَ لمجدٍ أو لِجاهْ
سَلَبتْهُ مِنّيَ الدُنيا وبَزّتني رِداهْ
فأنا أحْتَقِرُ المَجْدَ وأوهامَ الحياهْ
أو لعُمرٍ ،بَلَفَتْ مِنهُ الليالي مُنْتهاهْ
وتَلاشَتْ في خِضَمِ الزَمَنِ الطاغي قُواهْ
فأنا ما زِلْتُ في فَجْرِ شَبابي أو ضُحاهْ
انما أبكيكَ للحُبِ الذى كان بَهاهْ
يَمْلأُ الدنيا فانى سِرْتُ في الدُنيا أراهْ

ففقدان الحب هو المأساة التى يعانى منها الشابى ، والتى تحمل الى قلبه وحياته ريح العدم وهى التى تجعله يبكى على الأمس والحياه .

وعند الشابى قصيدة تحمل معنى صورة جديدة للمرأة هى : المرأة الأم ، وهذه القصيدة تعتبر من أجمل شعره بما فيها من صور حية ، وعاطفة حارة صادقة ،تلك

القصيدة هى " قلب الأم " ، وفيها يصور وفاء الأمومة وثبات عواطفها ، وعاطفة الأمومة هنا أيضا عاطفة حزينة مصدومة حزينة فقد مات الطفل ونسيه الصحاب الصغار ونسيته الطبيعة ،ولكن قلب الأم مازال يذكره ، ومازال باقيا على حبه وحزنه والشاعر فى هذه القصيدة يقول :

كُلٌّ نَسوكَ ولم يعودوا يَذْكُرونَكَ فى الحياةْ
والدّهرُ يَدْفِنُ فى ظلامِ الموتِ حتى الذِكْرَياتْ
الا فؤاداً ظلَّ يَخْفِقُ فى الوجودِ الى لقاكْ
ويودُّ لو بذلَ الحياةَ الى المَنيّةِ وافتداكْ
فاذا رأى طِفلاً بكاكَ ، وان رأى شبهاً دعاكْ
يُصْغي لِصَوتِكَ فى الوجودِ ولا يرى الا بَهاكْ
يُصغي لتَغْمَتِكَ الجميلةِ فى خَريرِ الساقيهْ
فى رَنّةِ المِزْمارِ ، وفى لَغْوِ الطيورِ الشاديهْ
فى ضَجّةِ البحرِ المُجَلْجِلِ فى هَديرِ العاصِفَهْ
فى ثَمْمَةِ النَسَمِ الوَديعِ وفى أناشيدِ الرُعاهْ
بَيْنَ المُروجِ الخُضْرِ والسُفحِ المُجَلَّلِ بالنَباتْ

ويستمر الشابى فى الربط بين قلب الأم الحزينة وبين صور الطبيعة ومعانيها المختلفة حتى تصبح أحزان الأم متصلة بكل مافى الوجود ، ذائبة فيه ، وبهذه الطريقة يرتفع قلب الأم فى القصيدة حتى يصبح قلبا مقدسا ، شديد الرحابة والشمول ، عميق الانسانية بصورة لا يعرفها أى قلب بشرى آخر .

هذه هى المرأة عند الشابى فى رأى " رجاء النقاش " وهذا هو الحب ،ان المرأة هى الملاك الحنون الذى يهبط من عالم الخيال السحرى ليشفى الجراح ، ويحمل رحيق الوجود المقدس الى القلوب التى تبحث عن مأوى وتحلم بالدفء وهذا هو الحب : زهرة الأزهار ومعنى المعانى فى هذه الحياة ، انه شئ مثالى شفاف لا يكاد يلمس الأرض بقدميه ، بل هو عال رفيع يطير فى السماء ، نقى صاف لم يتلوث بالتراب ، أو بتجارب الواقع ، وهو حب حزين على رغم ذلك لأن الموت مثل الثعبان الذى يختفى فى زوايا الحياة ليلدغ الزهور الجميلة ويقضى عليها وهى فى روعة شبابها السحرى العميق . (١)

ويرى " حمدى محمد عبدالوهاب " :

" أن الشابى أول من قدس الغرائز ، وسما بها الى الجمال والاحساس به فى جميع أدوار حياته المختلفة من طفولة وصبا وشباب بل وشيخوخة ، لأن الذى

---

(١) : أبو القاسم الشابى ـ شاعر الحب والثورة ص ٣٩ ـ ٤٤ . الطبعة الأولى تموز سنة ١٩٧١ م .

يعمى عن رؤية الجمال فى هذا العالم انسان ميت لا نصيب له من الحياه ويقول الشابى :

كلُّ شيءٍ — الا كِ — حيٌّ عطوفٌ .·. يؤنسُ الكونَ شوقُهُ ونَشيدُهْ
فلماذا تعيشُ فى الكونِ يا صا .·. حِ وما فيكَ من جنىً يستفيدُهْ
ليْتَ يا شيخُ للحياةِ بأهـ .·. ـلِ أنت داءٌ يُبيدُها وتُبيدُهْ
ألَتت قفرٌ جَهنّمىٌّ لعـ .·. ـينٍ مُظْلِمٍ قالح "مُريعٌ" جُمودُهْ

وهو على ذلك لا يهتم بجمالها الجسدى ، ولا يهتم بمفاتنها تلك الا بمقدار ما تشف عنه من طهارة وشفافية ووضاءة للقلب ، فهو لم يكن يرى فى معالم الجمال فى الطبيعة والانسان الا نواحيها الانسانية الرفيعة ، فليست المرأة عنده الا ملاكا حَنُوناً هبط من السماء ليشفى الناس من الشر ويحرر قلوبهم من قيود المادة ،ويزيل عن أرواحهم أدران الفساد .

ولعل هذه النظرية الروحية التى دعا لها الشابى لم تكن تعنى عنده مجرد فكرة ذاتية فقط ، وانما تعنى أيضا ثورة اجتماعية ، ثورة على قيود المرأة فى المجتمع العربى وسواء كان الشابى يدرى هذا أم لا يدرى ، نستطيع أن نقول :

" أنه قد أدى بدعوته الروحية هذه للمرأة التونسية خاصة والمجتمع التونسى عامة خدمة انسانية جليلة ، ولا شك أن تجريد المرأة من صورتها القديمة كجسد يشتهى فيه تحرير لها من قيود الحجاب . "

على أننا نرى للشابى نظرة أخرى بالنسبة للحب ، فهو لم يصور الحب الغزلى فقط وانما صَوَّرَ الحب فى شتى مناحيه : حب الأم لأبنائها ،وحب الانسان للطبيعة ، وغير ذلك من صور الحب المقدسه .

وهو حين يصور عاطفة الأمومة الزكية يوسع من نظرته لهذا الحب ويظل يربط بينها وبين صور الطبيعة المختلفه ، فاذا بقلب الأم يتسع ويذوب فى صور الطبيعة حتى يصبح قلب الأم هو العالم بما رحب ، عميقا فى شعوره قويا فى انفعاله الانسانى الرفيع اذ يقول :

كلُّ نسوكَ ولم يعو .·. دوا يُذكرونَكَ في الحياةْ
والدّهرُ يدْفِنُ في ظلا .·. م الموتِ حتى الذكرياتْ
الا فؤاداً ظلَّ يخْـ .·. ـفِقُ في الوجود الى لقاك
فاذا رأى طِفلاً بكا .·. ك وان رأى شبحاً دعاك
يصغي لصوتك في الوُجو .·. دِ ولا يرى الا بهاك (١)

أما خليفة محمد التليسي فهو يرى :

أن الشابي عرف المرأة ،فقد تزوج وأنجب أطفالا ولكن الغموض يحيط بالطريقة التي تم بها الزواج ،ويستبعد التليسي أن يكون زواج الشابي مفروضا

(١) : الشابي شاعر الخضراء — حمدى محمد عبد الوهاب — ص ١٤٧ — ١٤٨ .

عليه لأنه بذلك " الشابي " يكون قد تنكر لأسمى المبادئ التي عاش من أجلها .

ويستطرد قائلا :

ان الشابي على رغم زواجه ـ ظلّ يتشوّق في شعره الى المثال الذى يرضي طموحه ،ويشبع روحه . والشعر الذى قاله في المرأة ـ لانستطيع أن نعثر فيه على امرأة معينة ،لها شخصيتها وطبائعها ومزاياها التي تنفرد بها .أقول هذا وأنا على بيّنة من المذهب الذى اتبعه الشابي في شعره ،فقد أخذ على الشعراء القدامى سعيهم وراء الجسد ،واهمالهم الصفات التي تميّز امرأة عن أخرى ،ولو كانت هناك امرأة معينة تختفي وراء هذا القصيد ،لما صحّ أن تترك شعره دون أن تسميه بميسم خاص يستطيع معه القارئ التعرّف الى شخصيتها بوضوح .

وشعر الشابي صادر عن نفس محرومة ،فلا يتنفس فيه الا الشوق والحنين الى تلك التي تنقذه من جهامة أيامه ورتابتها المملة ، ولذلك أجدني مع القائلين بأنه كان يتغنى بالمرأة كمثل أعلى ،لا امرأة معينة وقصيدته الرائعة " صلوات في هيكل الحب " لاتصور امرأة بعينها قدر ما تصور نفسه ونزوعه الى الحب البريء الطاهر ،الذى يرفع المرأة عن النظرة القديمة التي يراها الشابي " دنيئة سافلة ،منحطة الى أقصى قرار من المادة ،لا تفهم من المرأة الا أنها جسد يشتهى ،ومتعة من متع العيش الدنيء " .

وكان حبه للمرأة ونظرته اليها من ذلك النوع الذى تختلط فيه العِفّة بالتصوف ،فاذا المرأة في منزلة العبادة ،ومصدر هذه النظرة عند الشابي حرمان فرضته البيئة والتقاليد التي حالت دونه ودون الانطلاق والتحرر فكان من ذلك هذا النغم الحزين ،وهذه الضراعة للحبيبة حتى ترحم الشباب الذاوى ،والقلب المتهدم ،والشاعر الذى يسلك طريق الحياة ، كالشارد الهيمان ،فكانت صلاة الشابي في هيكل الحب ،وهي أرفع صلاة تُوَجّهُ الى امرأة في أدبنا العربي القديم وحديثه ، لما تحفل به من ومضات انسانية رائعة ،وسموّ في النفس ،وارتفاع عن شوائب الجسد ،وبلا شك أن هذا التمجيد الذى نالته المرأة في شعر الشابي ، ليس سوى رد فعل على مجتمع لايرى فيها ما يراه هو ببداهة الشاعر الفنان ،من المعاني السامية ،فأراد أن يكشف لهذا المجتمع عما في قلب هذه المخلوقة الضعيفة من عواطف رقيقة ،ومعاني نبيلة ،وقوة دافعة

ملهمة .

وكان في تساميه ، مستجيبا الى النزعة الرومانسية التي كانت مشغولة بالقضايا الانسانية الكبرى ،منصرفة الى الحقائق والقيم الأخلاقية العليا ، عازفة عن التوافه العارضة الزائلة لايمانها بأنه :

غيرُ باقٍ في الكَوْنِ الاّ جَمالُ الروحِ غَضّاً على الزمان الأبيدِ .

وذلك هو الجمال المنشود الذى كان يبحث عنه الشابي ،لذا تبلغ رائعته " صلوات في هيكل الحب " حدا من الابداع تطفى معه على جميع ما قيل في تمجيد المرأة في الشعر العربي ، اذ تمتاز بهذا التسامي والتصوف ،ولا تعبأ الا بالمعاني الروحية التي توحيها المرأة ـ .

ومبعث الحرارة التي تسرى في هذه القصيدة فشل الشاعر في تحقيق مثال المرأة الذى يريده في واقع الحياة فلا مناص له من أن يعيش في خياله مع المرأة التي أقامها الهة ،يرتل في هيكلها المقدس تسابيحه وصلواته الحارة ،صلوات فيها الضراعة والبكاء والحسرة على المجتمع الكافر بالقيم الرفيعة ،العابد للرواسب البالية التي تنحر الشخصية الانسانية انه ينشد المثال الذى لم يوفره له المجتمع.

ـ لقد سجل الشابي ،بهذه القصيدة ،اتجاها جديدا في الأدب العربي ، وخرج عن مألوف الشعر الذى كان يهتم بالمحاسن الجسدية (١) .

أما أبو القاسم محمد كرّو فيرى :

أن الشابي لم يكن موفقا في حياته الزوجية ،وأنه تزوج ارضاء لوالديه أو لأحدهما فقط . ويؤكد أن الشابي لم يجد في زوجته تلك الصورة الشعرية الرائعة التي كان يرسمها للمرأة في أشعاره ويتغنى بها في قصائده . لذلك لم يلبث أن وقع في شراك حب عنيف ، قاده الى معابد الغرام ومحاريب الهوى حيث رتل " صلواته في هيكله " وأحرق قلبه وعواطفه بخورا عند أقدام الحبيب .

على أن بعض أصدقاء الفقيد ينكر هذا الحب ،ويحاول تعليل ما قاله الشابي من شعر ونثر ،فانه تمجيد لجنس المرأة وجمالها وفتنتها لا افتتان وحب لامرأة بالذات ويشير بذلك الى محمد الحليوى صديق الشابي .

ويؤكد كرّو بأن الشابي أحب فتاة معينة ،وأنه شغف بهذا الحب

---

(١) : الشابي وجبران ـ خليفه محمد التليسي ص ١١٦ ـ ١٢٢ .

الى درجة العبادة والتقديس ،ولا يستطيع أحد قرأ القصائد :
" الساحرة " و " صلوات في هيكل الحب " و " أراك " و " تحت الغصون " و " الايمان بالحياة " و " جدول الحب " أن يقول انه كان يتغنى بالمرأة كجنس أو كمثل أعلى ،فنحن حين نستمع الى الشاعر وهو يردد :

أراكِ فتحلو لديّ الحياةُ . . ويملأُ نفسي صَباحُ الأَمَلْ
وتَنسو بصَدْري وردٌ عِذابٌ . . وتَحنو على قَلْبيَ المُشْتَعِلْ
ويَفْتِنُني فيك فَيْنُ الحَياةِ . . وذاكَ الشبابُ الوديعُ الثَمِلْ
ويفتِنُني سِحْرُ تلكَ الشفاهِ . . تُرفْرِفُ مِنْ حَولِهُنّ القُبَلْ!!
فأَعْبُدُ فيكِ جَمالَ السَماءِ . . ورقةَ وردِ الربيعِ الخَضِلْ!!
وُطْهرَ الثُلوجِ وسِحْرَ الدُروجِ . . وموشحةً بِشُعاعِ الطفلْ؟

أو حين يقول :

عَذْبَةٌ أنتِ كالطُفولةِ كالأَحْلامِ . . كاللحنِ كالصباحِ الجديدِ!!
كالسماءِ الضحوك كالليلة القمراءِ . . كالورد كابتسام الوليدِ!
أنتِ يا أنتِ ؟ أنتِ رَسْمٌ جَميلُ
عَبْقَرِيٌّ مِنْ فَنِّ هذا الوُجودِ!
فيكِ ما فيهِ من غُموضٍ وعُمْقٍ . . وجمالٍ مُقدسٍ مَعْبودِ!
أنتِ روحُ الربيعِ تختالُ في الدُنيا فتهتزُّ رائعاتُ الوُرودِ
وتَهبُ الحياةُ سَكْرَى من العِطْرِ
ويَدْوي الوُجودُ بالتَغْريدِ
كُلَما أبصَرَتكِ عَيْنايَ تَشْتَدُ
بِخَطوٍ مُوَقَعٍ كالنَشيدِ
خفقَ القلبُ للحياةِ ورفَّ الزَهْرُ في حَقْلِ عُمْرِيَ المَجْرودِ
وانتشت روحي الكئيبةُ بالحُبِ
وغنيتُ كالبُلْبُلِ الفريدِ

حين نستمع الى ذلك كله لايمكننا أن نشك لحظة في أن هذا الشعر انما قيل في امرأة معينة ،وان كنا نجهل حقيقة هذه المرأة .

وان صوت هذه المرأة قد احدث في حياة الشابي وأدبه انقلابا بعيد الأثر متعدد الجوانب والصور ،ويمكننا أن ندرك هذا من مصادر مختلفة منها قصيدته " جدول الحب " وقصيدته " بين الأمس واليوم " التي يقول فيها :

بالأمسِ قد كانَتْ حَياتي كالسماءِ الباسمهْ

واليوم قد أمستْ كأعماقِ الكهوفِ الواجمَهْ

ويقول :

هو جَدْوَلٌ قد فَجَّرَتْ يَنبوعَهُ في مُهْجَتي
أجْفانُ فاتِنةٍ أرَّقَتْنيها الحياةُ ،لِشقوتي
أجفانُ فاتنةٍ ، تراءَتْ لي على فَجْرِ الشبابْ
كمروسةٍ من غانياتِ الشعرِ في شَفَقِ السَّحاب
ثم اختفتْ خَلْفَ السماءِ ،وراءَ هاتيكِ الغيومْ
حَيثُ العذارى الخالداتِ ،يَحِسْنَ ما بَيْنَ النُجومْ
ثم اختفتْ ،أوّاهِ! طائرةً بأجنحةِ المَنُونْ
نَحْوَ السماءِ ،وها أنا في الأرْضِ تِمْثالُ الشُجونْ
قد كان ذلكَ كُلُّه بالأمسِ! بالأمْسِ البَعيدْ
والأمسُ قد جَرَفَتْهُ مَقْهوراً ،يَدُ الموتِ العَنيدْ
قد كان ذلك ،تَحْتَ ظِلِّ الأمْسِ،والماضي الجَميلْ
قد كان ذلك في شُعاعِ البَدْرِ ،من قَبْلِ الأفُولْ
واليوم اذ زالت ظِلالُ الأمسِ عن زهرِ البديعْ
وتَجَلْبَبَ الزَهْرُ الجميلُ بظُلْمَةِ اللّيلِ الرَّفيعْ
ذَبُلَتْ مَراشِفُهُ ،فأصبح ذاوياً لِفَحْوَ الكَلامْ
وهوى لأن الليلَ أسمَعَهُ أناشيدَ النُجومْ

وأحسب أن هذا لايترك مجالا للشك في أن الشابي كان يحب امرأة من لحم ودم ،لامثلا شعريا في عالم الخيال ،وأنه شغف الى حد العبادة بمخلوق ناعم فاتن كفينوس ربة الجمال وأن هذه المرأة كانت حقيقة واقعة في حياة الشابي ، وأنها كانت بارعة الحسن الحسن ذات فتنة هوجاء وأكثر من ذلك ، كانت تحبه حبا قويا وتبادلله الغرام في خلوات شعرية رائعة ،ونجد لهذه الخلوات صداها القوى في شعر الشابي ووصفا معطرا يلتهب بحرارة الحب ونار الهوى ، ولعل خير ما يمثل هذه الخلوات قصيدتيه " تحت الغصون " و " الساحرة " اذ نجد فيهما وصفا مفعما بالصدق والحرارة للقاءات الشاعر مع حبيبته وتناجيهما العذب الحنون (١) .

هذا وبعد أن عرضت وجهات النظر المختلفة التي تحدثت عن

---

(١) : الشابي ـ حياته وشعره ـ أبو القاسم محمد كرّو ص ١١٢ـ ١١٩

حبه يثبت لدينا يقينا أن هذا الشاعر كان قلبه مفعما بالحنان والانسانية والتقلبات العاطفية ، ولا أستطيع أن أرجح هنا أيّ من هذه الآراء ، لأن ما كتبه وألفه الشاعر لم ينشر بعد ، ولكن يتضح لدينا أنه أحب حبا صادقا سواء لأمرأة بعينها أو لجنس النساء عامة أو أنة لفظة الأنثى مكنيا بها وطنه تونس، تلك الأرض التي أحبها حتى أخمص قدميه وأدمى قلبه حزنا على ما أصابها من نكبات وويلات وأهمها وأشدها ايلاما الاستعمار الذى انتشر فيها كالأخطبوت، لذا وجدنا أشعار الشابي الثائرة والتي سبق ذكرها في الباب الماضي تحض الشعب صراحا على الثورة والتمرد وتحثه على النضال والحرية حتى ترجع تونس للتونسيين .

ثـــالثـــا :

حـــب والـــــده

==========

لقـد أحـب الشـابي والـده حبـا عنيفـا ،ظهـرت آثـاره فـي تصـرفـاتـــه وآثـاره الشعـريـة منهـا والنثـريـة ، ولا غـرو في ذلك فـان والـد الشـابي كـان عـالمـا فـاضـلا ،رعـى ابنـه رعـايـة كبـيرة وكـان مؤيـدا لـه فـي اتجـاهـه الأد... الأدبـي وفـي كفـاحـه المشرف أثنـاء معـركـة الاصـلاح الـتي قـام بهـا طلاب الـزيتـونـة سنـة ١٩٢٨م. منـاديـن بجعـل التعلـيم التقليـدى عـصريا متطورا وكـان الشـابي رائـدا وقـائـدا لـه في هـذه المعركة، ولعـل من أفضـل الشـواهـد علـى تـأييـد والـده لـــه مـا ذكـره الأستـاذ أبـو القـاسـم محمـــد كـرّو قـال :

"... لمـا قـام الطلبـة يـطـالبـون بـالاصـلاح الـزيتـونـي كـان الشـابـي أول رئـيس للجنـة الطلبـة الـتي عقـدت جلستهـا الأولـى فـي الخـامـس مـن رجـب سنـة ١٣٤٧هـ، وهـو الـذى وضـع برنـامـج أول عمـل للمطـالبـة بالاصلاح .

ولمـا وجهـت لجنـة الطلبـة منـشورا الـى رجـال الفكـر والـرأى المصيـب فـي تـونـس تطلـب منهـم امـدادهـا بـرأيهـم فـي الاصـلاح ،كـان أول جواب تلقتـه مـن والـد أبـو القـاسـم الشـابي ،الـذى حـرر تـقريـرا ضـافيـا احتوى علـى نحـوعـشريـن صفحـة ،ضمنـه آراءه فـي الاصـلاح ،أردفـه بمكتـوب لطيف يعتـذر فيـه عـن التقصـير لكـثرة أشغـالـه حـيث كـان قـاضيـا علـى زغوان"(١)

مـن هنـا نـلاحـظ أن مثـل هـذا الـوالـد الـذى تـرك آثـاره واضحـة علـى شخصيـة ابنـه لابـد أن يتـرك حبـا عميقـا في شخصيـة هـذا الابـــن وفعـلا كـان الشـابي وفيـاً لـوالـده ، واذا أخـذنـا بـرأىّ أبـو القـاسـم محمـد كـرّو وملنـا الـى تصـديقـه فـي مـوضـوع زواج الشـابي ،فـاننـا نـرى أن الشـابي أتـم زواجـه بنـاء علـى رغبـة والـده علـى رغـم أن الأطبـاء نصحوه بعـدم الزواج ،ويقـول الأستـاذ عمـر فـرّوخ فـي هـذا :

" ..... ويبـدو أن الأطبـاء نصحـوه بعـدم الـزواج ، ولكـن خطـوبتـه على ابنـة عمـه كـانـت قـد تمـت فـي حيـاة أبيـه ،لـذلك لـم يستطـع أن يلفـي عـلا أراده لـه أبـوه لـشدة حبـه لـه وبـره بـه " (٢)

---

(١) : الشـابي ــ شعـره وحيـاتـه ــ أبو القـاسم محمـد كـرّو ــ ص٥٧ ــ ٥٨.

(٢) : آثـار الشابي وصداه في الشرق ــ أبو القاسم محمـد كـرّو ــ ص١٤.

وعندما مرض الوالد مرض الموت سنة ١٩٢٩م، رافقه الابن الشاعر الى مسقط رأسه وسهر عليه في أيامه الأخيرة ، وكانت ساعات الاحتضار والآم الأطفال وأحزانهم حول أبيهم من الداسية العميقة، التي عصرت قلب الشاعر وخياله ودموعه، ولم يتحدث عن شيء بألم دام وحسرة مؤثرة عميقة قاتمة كما تحدث عن لحظات أبيه الأخيرة، وعن خيال الوالد الذى ظل يتراءى له بعد الموت مع أشباح الأعزاء المفقودين الآخرين ،ولعل خير ما يمثل هذه اللوعة القاسية وذلك التفجع المثكل والأنين المر الذى يوضح ما ذهب اليه الشابي من حب عنيف لوالده ، تلك الرسالة التي بعثها الى صديقه الأستاذ محمد الحليوى نقتطف منها :

".. انني أحاول أن أخط اليك ما تمسه نفسي من مرارة الأوجاع وهموم الزمن الحائر ،فلا أستطيع الا مثل هذه الكلمات المتقطعة التي لاتكاد تبين عما أكابد من غصص العيش وبأساءه كما يساورني من الأفكار المدلهمّة كقطع الليل المظلم.

لا أذكر أنه مرت علي فيما سلف أيام من عمرى أيام أنكد من هذه الأيام أو أشد .

في الصباح أجلس الى أبي الذى أنهكه المرض وأضناه وأرضه المرض وأذواه، وطرفي الى وجهه الشاحب العليل والى جفنه الذاهل الذي أذبله الألم وأذوته الحمى والى جسده المتهدم الواهن ،وسمعي الى نفسه المتقطع وتأوهاته المتشابعة ،وعهدى به ذلك الرجل الجليد فما أراه كذلك الا وتملأ نفسي الزفرات وتملأ عيني العبرات وتنطلق من قلبي المثلوم وصدرى المكلوم ،أنّات القهر ودعوات الرجاء ،الى اله الحياة والموت وباسط النور والظلمات أن يشفي هذا الأب الواهيّ الطريح وأن يشفق على صبيته الصغار الذين ما زالوا واقفين بباب الحياة... ومن حين لآخر يوقع والدى بصره الىّ فلا يسترجمه الا مترعا بالدمع أو مخضلا بالعبرات" (١)

ولعل في السطور القليلة الماضية خير دليل على هذا الحب الذى لا يساويه ولا يعدله حب ،فلقد ذرفت عيناه الدموع ودموع الرجال عزيزة ،ولقد تفطر منه الكمد ولا يكون ذلك الا على عزيز،وهل هنا ك

---

(١) : الشابي حياته وشعره – أبو القاسم محمد كرّو ص ٦٥ – ٦٦.

أعزّ من الأب الحاني المطوف، خصوصا اذا كان كأب الشابي الذى بذل قصارى جهده في سبيل بناء ابنه وتوجيهه.

واذا كانت نفسه تفيض أحيانا بالأسى والحزن، وكأنه يريد أن ينطق معبرا عن هذا الألم، الا أن شعره أيضا لايخلو من الحزن والأسى حتى أننا لنجد قصيدة قالها الشابي في رثاء والده، على الرغم أنه لايجيد هذا الفن ولا تعاطاه، وهي قصيدة حزينة متوسطة في فنها، بل هي أقرب الى النواح والنعيب الساذج من أىّ رثاء قوىّ رصين، وقد مهد لها بقوله :

" هي صرخة من صرخات نفسي المملوءة بالأحزان والذكريات وشظية من شظايا هذا القلب المحطم على صخور الحياة، قلتها في أيام الأسى التي تلت نكبتي بوفاة الوالد رحمه الله تعالى" (١)

ولعل الشابي بهذه المقدمة أراد أن يعتذر عن مستوى القصيدة الذى لم يبلغ المستوى الذى وصلت اليه روائعه، ويقول من قصيدته :

يا موتُ قد مزّقتَ صدري . . وقصمتَ بالأرزاءِ ظهري
ورميتني من حالقٍ . . وسخرتَ مني أىَّ سخرِ

ويقول منها ايضا :

وفجعتني فيمن أحبُّ . . ومن اليه أبثُّ سرّي
وأعدّهُ فخري الجميل . . اذا ادلهم عليّ دهري
وأعدّهُ وردى، ومزماري وكاساتي وخمري
وأعدّه، غابي وحرابي، وأغنيتي، وفجري
ورزأتني في عُمدتي، ومشورتي في كل أمر
وهدمتَ صرحاً لاألوذُ بغيره، وهتكتَ ستري

ويقول منها أيضا :

وفقدتُ كفاً في الحياة . . يصدُ عني كلَّ شرّ
وفقدتُ ركني في الحياةِ، . . ورأيتي وعمادَ قصري.

ويتصور الشاعر الموت عدوا لدودا لايستطيع ابعاد شبحه عنه ولا مقاومته، لذا نراه يوجه اليه حديثا صريحا لتصفية الحساب بينه وبينه فيقول :

يا موتُ ماذا تبتغي . . مني وقد مزّقتَ صدري ؟

---

(١) : الشابي حياته وشعره ــ أبو القاسم محمد كرّو ص ٦٦.

الى أن يقول :

ان كنت لا تطلبني فهات الكأس،أشربها بصبر
أو كنت ترقبني فهاتِ السهم،أرشقه بنحري
خذني اليكَ فقد تبخترَ في فضاءِ الهمّ عمري

الى أن يقول :

خذني اليكَ! فقد ظمئتُ لكأسكَ الكدرِ،الأمرّ
خذني فقد أصبحتُ أرقب في فضاكَ الجون قبري
خذني ،فما أشقى الذى يقضي الحياةَ بمثل أسرى

الى أن يقول :

يا موتُ! نفسي ملّت الدنيا ،فهل لَمْ يأتِ دوري؟ (١)

لاشك في أن الشابي في أبياته هذه وصل الى درجة اليأس من الحياة،وذلك لعظم المصيبة التي أصابته بموت والده،والحق أن المصيبة لاتكون عظيمة الا اذا كان حب الشابي لوالده عظيما ،وبفقده يصاب بالأمر الجلل وهو ما أشارت اليه الأبيات السابقة،ولقد عبرت خير تعبير عن الشاعر لوالده،اذ انطلقت مصورة تصرفه وقد فقد السيطرة على نفسه وعقله وقلبه .

==========

==========

==========

======

==

=

---

(١) : الديوان — ص٢٣٤ ،ومؤرخة بتاريخ ٢٦/ من ربيع الثاني / سنة ١٣٤٨هـ غرة أكتوبر (تشرين أول) سنة ١٩٢٩م.

رابعـا :

حـب الحيـاة

==========

لـم يكـن الشـابي يـومـا سـوى شـاعـر الحيـاة ،عـاش شـابـا ومـات شـابـا لـم تهـرم نفسـه قط ولـو هـرم بـدنـه ،هـتى كـان بـالرغـم مـن ظلمـات الليـل ينـاغـي الحيـاة ،وكـان الشـابي أول مـن اشتهـر بـالتشـاؤم ،فهـو فـي نظـره ضـرب مـن البهتان الـزائـف وهـو يعـلـن الحـرب علـى الجمـود والخمـود ،لأنـه يـريـد الحيـاة بكـل معـانيهـا مـن تجـدد وازدهـار ـ وطمـوح وأمـل وعـزيمـة وبنـاء :

مـا كُنْـتُ أحْـسَـبُ بَعْـدَ مَـوْتِكَ يـا أبـي
ومشـاعِـرى عميـاءُ بـالأحـزانِ
انـي سـأظْمَـأُ للحيـاةِ ،وأحتسـي
مـن نَهْـرِهـا المُتوهِجِ النَشْوانِ
وأعـودُ للـدنْيـا بقلْـبٍ خـافِـقٍ
للحُـبِ والأفـراحِ والألحـانِ
واذا التشـاؤمُ بـالحيـاةِ ورفضِهـا
ضَـرْبٌ مـن البُهتـان والهـذيان
ان ابـن آدم فـي قرارة نفسـه
عبـدُ الحيـاةِ الصـادقُ الايمـان

فـالشـابي شـاعـر الحيـاة بكـل معـانيهـا ،وظـل الـى آخـر عمـره عـابـدا للحيـاة متشـوقـا لهـا ، عـدوا لـدودا للمـوت والخمـود والجمـود والجهـل والظلام سمـى ديـوانـه " أغـانـي الحيـاة " ،وجـاءت ألفـاظـه كلهـا ألفـاظ حيّـة بـل ان لفظـة الحيـاة نفسهـا جـاءت فـي أول بيـت اختـاره لـديـوانـه :

ضِـحْـكَ الـدَهْـرُ مْجـدَ شعـبي ولكـنْ
سَـتَردُ الحيـاةُ يـومـاً وِشـاحَـهْ

ولعـل مـن عـلامـات الحيـاة فـي شعـره كـل هـذه الأفكـار الـتي تمثـل فلسفـة متكـاملـة ،كلهـا عـن ارادة الـقـوى والبقـاء لـلأصلـح والكفـاح فـي سبيـل الـوصـول الـى الأهـداف (١) .

وهـو وان يـكـن رحيـق الحيـاة يشلـه ،الا أنـه لايخلـو مـن لهفـة لتعـرف كنـه تلك الحيـاة ،ففيـه حنيـن الـى المجهـول وتطلـع الـى المغلـق ،ومـن تلك

---

(١) : الشابي شـاعر الخضراء ـ حمـدى عبـد الـوهـاب ص ١٤١ ـ ١٤٢ .

الآفاق البعيدة يحس بالوحدة ،وقد تخلف عامة البشر عن التحليق في تلك الآفاق ومن هنا نأتي صيحته في قصيدته " الأشواق التائهة" اذ يقول :

يا صميمَ الحياة اني وحيدٌ . .
مُدْلِجٌ تائهٌ فأين شروقُكْ
يا صميمَ الحياةِ انّي فؤادٌ
ضائعٌ ظامئٌ فأين رحيقُكْ

ولكن الشاعر لاتطول لهفته ولا يضل سبيله ،فقد اهتدى الى صميم الحياة التي كان ينشده ،أو على الأصح أحس به أعمق الاحساس على غير وعي منه ولاتفكير ،وكان هذا الاحساس أقوى من كل وعي وأغنى من كل تفكير ،وما هو الا الحرية والانطلاق ،وقد تغنى بهذه الحرية وذلك الانطلاق حيث قال في قصيدته " أغاني الرعاة " :

أقبلَ الصُّبْحُ يُغَني للحياةِ الناعسةْ
والرُّبى تَحْلَمُ في ظِلِ الغُصُونِ المائسةْ
الصِبا تُرْقِصُ أوراقَ الزُهُورِ اليابسَهْ
وتهادى النُورُ في تلك الفِجاجِ الدامسَهْ

وكان من الطبيعي أن تسكن أشواقه التائهة وتتخلص من نار اللهفة ،ووقوده التطلع الى سر الحياة المجهول ،فيصبح مع الصباح الجديد قائلا :

اسكتي يا جِراحْ . . واسكتي يا شُجُون
ملت عهدُ النُواح .. . وزمانُ الجُنُونْ
وأطَلَّ الصَباحْ ! . . مِنْ وراءِ القُرُونْ
انَّ سِحْرَ الحَيا ةْ . . هالِدٌ لايَزولْ

ان هذه الروح العالية المتفائلة ،هي التي تجعل من الشابي أحد شعراء الحياة الذين لايعرفون اليأس ،ولا تَفُتُّ في عضدهم الأيام والليالي ،وهو لايصدر عن هذه الروح العالية في حياته الخاصة فحسب ،بل يتخذ منها نبراسا لحياة قومه ،وكما يطلب الحرية لأنفاسه وأحلامه نراه يطلبها لوطنه ،ويؤمن بأنه لابد واصل اليها وهو القائل في قصيدته " ارادة الحياة " :

اذا الشعبُ يوماً أرادَ الحياةَ
فلا بُدَّ أن يَستجيبَ القَدَرْ

ولا بُدَّ لليَّلِ أن ينجلي
ولابُدَّ للقَيدِ أن ينكَسِر

بل انه ليحرص كل الحرص على أن يؤمن الشعب برسالته ،ويثيره ألا يسارع ذلك الشعب الى الاستجابة لندائه ،وقد أنسته حرارة الايمان وحساسية الشعر أنه رائد يشق آفاقا جديدة ،ويدعو الى فجاج غير مطروقة ،فيحز في نفسه الألم ويتردد هذا الألم في قصيدته "النبي المجهول"

في صباح الحياة ،ضَمَّخْتُ أكوابي
وأترَعْتُها بخمرةِ نَفسي
ثُمَّ قَدَّمْتُها اليك ،فأهْرَقْتَ
رحيقي ودُسْتَ يا شعبُ كأسي! (١)

ومما لاشك فيه أن الخوف من شقاء الحياة أصيل في شعر الشابي فليس في وجوه الحياة غير الأغوار والكهوف،والظلام والخطوب والدموع فيقول الشابي في هذا :

صاحِ ان الحياةَ أنشودةُ الحُزْ
نِ فرتِلْ على الحَياةِ نَحيبي
ان كأسَ الحَياةِ مترعةٌ بالدَّمْ
عِ فأسْكُبْ على الصَباحِ هَبيبي ؟
ان وادي الظَلامِ يَطفَحُ بالهَو
لِ،فما أبعدَ ابتسامِ القُلوبِ!
لايَغُرَّنَّكَ ابتسامٌ بني الأر
ضِ فخلفَ الشعاعِ لَذْعُ اللَّهيبِ
قَدْ سَألتُ الحياةَ عن نغمةِ الفَجْرِ
وعَنْ وَجْمَةِ المَساءِ القَطوبِ
فَسَمِعْتُ الحياةَ في هَيْكَلِ الأحْـ
ـزانِ تَشدو بلحنها المَحبوب
ما سكوتُ السَماءِ الا وُجومٌ
ما نَشيدُ الصباحِ الا نحيبِ
ليس في الدهرِ طائرٌ يتغنى
في ضِفافِ الحَياةِ غَيْرُ كئيبِ

---

(١) يآثار الشابي وصداه في الشرق ـ أبو القاسم محمد كرّو ص ٢٠٧ ـ ٢٠٨ من مقال للدكتور محمد مندور.

ويستمر الشابي في رؤية الشقاء والكآبة في الحياة ولو تبدت الحياة له بزينتها وضحكتها فيه في كل مظهر من مظاهرها ،ان الشابي يعترف بذلك ثم يقول انه وحده بائس،بينما كل شيء حوله جميل زاه طروب عجيب اذ يقول :

ما للمياهِ نقيةً
حولي ويُنبوعي مَشوبْ!
ما للصباحِ يعودُ للـ
ـنيا وصُبْحي لا يؤوبْ ؟
مالي يَضيقُ بي الوجو
دُ،وكلُ ما حولي رَحيبْ؟
مالي شَقيتُ وكل ما
في الكونِ أخّاذٌ عجيبْ؟
ان الوجودَ الرحب والـ
ـغاباتُ والأفقُ الخصيبْ
لم تخلُبُ أشواقُ الحياةِ
بها فؤادَهَا القطوب ،
أما أنا ففقدتُها
والليلُ سرمدُ رهيبْ
مهما تضاحكت الحياةُ
فانني أبداً كئيبْ!
أصغي لأوجاعِ الكآ
بةِ،والكآبةُ لا تجيبْ
في مُهجتي تتأوهُ الـ
ـبلوى ويختلجُ النحيبْ
ويضيعُ جبارُ الأسى
وتجيشُ أمواجُ الكروب
اني أنا الريحُ الذى
سيظلُ في الدُنيا غريبْ!

ويرى الشابي قلة الجدوى من هذه الكآبة وهذا التشاؤم فيريد منا أن نفتح عيوننا على جمال الحياة،فيجرد من نفسه شخصا يخاطبه

بقصيدته "يا ابن أمي " ويقرعه على تغافله عن جمال الحياة فهو يقول :

خُلقتَ طليقاً كطيفِ النَسيمِ
وحُراً كنورِ الضُحى في سَماهْ
تُغَرِّدُ كالطيرِ أنّىَ اندفعتَ
وتشدو بما شاءَ وحيُ الإلهْ
وتمرحُ بَيْنَ ورودِ الصباحِ
وتنعمُ بالنورِ أنّى تراهْ
وتمشي كما شِئْتَ بين المروج
وتقْطِفُ وردَ الرُبا في رُباهْ
كذا صاغَكَ اللهُ يا ابنَ الوُجودِ
وألقتْكَ في الكَوْنِ هذى الحياهْ
فمالَكَ ترضى بِذُلِ القيودِ
وتحْنِي لِمَنْ كبلوكَ الجباهْ؟
وتطبقُ أجفانَك النيّراتِ
عن الفجرِ،والفجرُ عذبُ ضياه
أتخشى نشيدَ السماءِ الجميل؟
أترهبُ نورَ الفضا في ضحاه؟
ألا انهضْ وسِر في سبيلِ الحياةِ
فمن نامَ لم تَنْتظِرْهُ الحياهْ ! (١)

وقبل أن نختم هذا الفصل نعترف أن الشابي كان يحب الحياة انسانا ويتذوقها شاعرا والا لما حزن على تسللها بالمرض،ولكن حبه هذا للحياة أقرب الى أن يورثه الأسى عليها وهي تغيض ،من أن يشيع فيه " التفاؤل "،لقد كان المسكين ذكيا ،يرى ويحس الغروب يتعجله ،وما نعم بشعشعة الفجر أو ألق الضحى .

==========

==========

==========

=======

===

---

(١) : الشابي شاعر الحب والحياة ـ الأستاذ عمر فروخ ص٢١٤ ـ ٢١٥ .

خـــامســـا :

حـــب الطبيعـــــة

==========

لقـد احتلـت الطبيعـة فـي شـعر الشـابي مكـانـة مهـة بـارزة ،انهـا الأم الحـانيـة ،والملجـأ الأول والأخـيـر ،وقـد كـان الشـابي بحـاجـة الـى أم تحنو عليـه وملجـأ يـأويـه ،وذلـك لأنـه كـان على خـلاف حـاد مـع الحياة الواقعية وكـان يعيـش في خصـومـة عميقـة مـع المجتمع ،وكـان طمـوحـا الـى حيـاة أكـثر حـرارة ويقظـة بـين جميـع أبنـاء شعبـه ،وكـان فـوق ذلـك كـلـه مريـض بمـرض القلـب ،يـزحـف الموت اليـه لحظـة بعـد لحظـة ،وكـان يحـس بـأن رغبتـه فـي الحيـاة مهـددة دائمـا بقـوة الموت الـزاحـف اليـه ،كـل هـذه الأسبـاب جعلتـه حـزينـا ، ودفعتـه الـى عـالـم يـذوب فيـه بشـخصـه وأحاسيسه وأفكـاره ،فيخفـف عنـه ،ويـرفعـه الـى شـعور جـديـد بحيـث يجـد فـي الألـم لـذة ،وفـي متـاعـب الحيـاة اليـومية شيئـا صغـيرا يتضـائـل أمـام الشـعور السـامي الـذى يعيـش فيـه .

وفـي الطبيعـة وجـد الشـابي عـالمـه الجميـل النقـي ، وفـي قصيـدتـه "النبي المجهـول " يعـبر الشـابي عـن أزمتـه مـع شعبـه ،حـيث لايفهمـه الشـعب،ولا يستجيـب لأفكـاره وآرائـه الـتي تهـدف الـى تحـريـره المعنـوى والمـادى عندما تصـل بـه الأزمـة الـى أعلـى درجـاتهـا ،لا يجـد ملجـأ سـوى الطبيعـة ومظـاهـرهـا المختلفـة كمـا يقـول في قصيـدتـه " الـنبي المجهـول "الـتي أشـرنـا اليهـا مـن قبـل :

انـنـي ذاهـبٌ الـى الغـابِ يـا شعـبي
لأقضـي الحيـاةَ وحـدى بيـأسـي

وعنـدمـا تنتهـي حيـاتـه ويمـوت ،فهـو يفضـل الموت فـي الغـاب بمـا فيـه مـن طيـور وأشـجـار أهـنى عليـه مـن النـاس اذ يقـول :

ثُـمَّ تحـت الصنـوبَـرِ الحُـلـوِ
تَخُـطُ السيـولُ حُـفْرَةَ رَمْـسِي
وتظـلُ الطيـورُ تلقـو على قَبْـري
ويـشـدو النسـيمُ فـوقـي بِهَمْـسِ
وتظـلُ الفصـولُ تمـشي حـوالـي
كمـا كُـنَ فـي غَضَـارةِ أمْـسِي

الشابي يجد خلاصه في الطبيعة ،ولذلك يعيش بخياله وحواسه ومشاعره كلها في الطبيعة ،ويستمد صوره الفنيه من الطبيعة قبل أن يستمدها من أيّ شيء آخر ،والطبيعة عند الشابي خير مطلق وجمال مطلق ، وكأنه بهذا الاحساس نحو الطبيعة يجعل منها عالمه " المثالي " الكامل الذى يعوضه عن العالم الواقعي الناقص المليء بالشر والقبح والحزن ، فاذا كان قد فقد الأصدقاء فانه سوف يجد الصداقة والفهم عند الطيور ويعبر عن ذلك قائلا :

سوف أتلو على الطيور أناشيدى

وأفضي لها بأشواق نفسي

فهي تدرى معنى الحياة وتدرى

أن مجد النفوس يقظة حس

فالطيور عنده تدرى معنى الحياة الذى لا يدريه أبناء مجتمعه ويقظة الاحساس التي تفهمها الطيور لا يفهمها بنو البشر الذين يعيشون من حوله ،ان يقظة الاحساس عند الشابي هي جوهر الحياة .

وهكذا فكل المعاني التي فقدها مع الناس وجدها في الطبيعة : الصداقة والفهم والحب والجمال ،ان الطبيعة هي عالمه المثالي الذى يرد به على نقص الحياة الاجتماعية وقصورها عن الوصول الى الكمال .

على أن أهم ظاهره في شعر الطبيعة عند الشابي أنه أعطى للطبيعة " معنى انسانيا " وهذه الظاهرة لا ينفرد بها الشابي فهي تتكرر عند كبار الشعراء الذين عبروا عن الطبيعة أو صوروها في شعرهم ،ولقد كان الشابي واحدا منهم ،لم يكن يحب الطبيعة المجردة ولم يكن يجد فيها جمالا خاصا مستقلا عن الانسان ، بل ان كل جمال في الطبيعة يستمد وجوده من " معنى " الشاني " ،وهذه الظاهرة تثبت أن الشابي كان يبحث في الطبيعة عن الجمال والكمال المفقودين في المجتمع والحياة الانسانية التي يعيشها ،فقد اقتنع بخياله واحساسه أن الطبيعة " مجتمع " آخر متناسق يقوم على أساس من نفس المشاعر التي تقوم عليها الحياة الانسانية ،والطبيعة هنا تنطق بلسان الشابي وتقول كل ما آمن به من أفكار ،وكل ما امتلأ به قلبه من عواطف وأحاسيس ،فالحبيبة في قصيدته " صلوات في هيكل الحب " عذبة كالورد ،كالصباح الجديد ،كالسماء الضحوك ،

كالليلة القمراء ،وفي نفس القصيدة يخاطب الشابي حبيبته بمثل هذه الصور المستمدة من الطبيعة أيضا :

" أنت فجر من السحر " ، " أنت روح الربيع" ،كلها صور مستمدة من الطبيعة ،ولكن وضح عاطفة انسانية وجمال انساني لتوضيح عاطفة الحب وجمال المرأة المحبوبة .

وفي قصيدته" قلب الأم "عندما يموت الطفل تذوب روحه في كل مظاهر الطبيعة ،وتنظر الأم المحزونه هنا وهناك ،فترى صورة ابنها وصوت ابنها ترى هذا كله لأن ابنها لم يدفن في قبر بل انساب في الأزهار والأشجار وأصوات الطيور،فهو يقول :

ويراك في صور الطبيعة : حلوها ودميمها
وحزينها وبهيجها ،وحقيرها وعظيمها
في رقة الفجر الوديع ،وفي الليالي الحالمه
في فتنة الشفق البديع وفي النجوم الباسمه
في رقص أمواج البحيرة تحت أضواء النجوم
في سحر أزهار الربيع ،وفي تهاويل الغيوم.

وهكذا ترتبط الطبيعة بعاطفة الأم نحو ابنها ،وبذلك تأخذ الطبيعة معنى انسانيا واضحا ،وفي الوقت نفسه تصبح عاطفة الأم ثابتة خالدة مثل مظاهر الطبيعة نفسها .

وفي قصيدة " ارادة الحياة" ينادى الشابي الشعب ويدعوه الى اليقظة والثورة ،ثم يجعل الطبيعة تنطق بأفكاره فيقول على لسان الريح :

ودمدمة الريحِ بين الفجاجِ
وفوق الجبالِ وتحتَ الشجرْ:
" اذا ما طمحتُ الى غايةٍ
ركبتُ المنى ،ونسيتُ الحذر "
" ولم أتجنّبْ وعورَ الشعابِ
ولا كبّة اللهبِ المستعرْ"
" ومن لايحبّ صعودَ الجبالِ
يعش أبدَ الدهرِ بين الحُفرْ"

فالريح تدعو الى الثورة وتحدد للناس طريق الثورة الذى هو طريق الخطر ونسيان الحذر وخوض اللهب ،وفي نفس القصيدة يصور الشابي الأرض في حالة شوق وظمأ الى الحياة ثم يأتي " الربيع"

فتتفجر الكائنات ، وينشق التراب عن كثير من مظاهر الحياة ،وكأن الربيع الذى ملأ الأرض هو الثورة التي يدعو اليها الشابي مجتمعه، ليتحرر هذا المجتمع من جدبه ويصبح مجتمعا خصبا مليئا بمظاهر الحياة ،مثل الأرض في الربيع!.

انه يقول : الربيع للحياة في نداء حار جميل يوجهه الى الأرض :

" اليكِ الفضاء ،اليك الضياءُ ،
اليك الثرى الحالمُ ،المزدهرا!"
"اليكِ الجمالُ الذي لايبيدُ !
اليك الوجودُ الرحيبُ ،النضرا !"
"فيبدى ـ كما شئتِ ـ فوقَ الحقولِ ،
بحلوِ الثمارِ وغضِّ الزهرْ"
" وناجي النسيم ،وناجي الغيوم ،
وناجي الغيوم ،وناجي القمرْ"
" وناجي الحياة وأشواقها ،
وفتنة هذا الوجود الأغرْ"

وتستجيب الأرض لثورة الربيع ،وهي الثورة التي يتمنى الشابي أن يتعلم منها المجتمع ،انه درس تلقيه الطبيعة على الحياة الانسانية ،وعلى الناس أن يتعلموا معنى الثورة من الأرض والربيع من الطبيعة !.

هناك قصيدة أخرى للشابي تعتبر من أهم قصائده هي قصيدة "الجنة الضائعة" وتلك هي جنة طفولته التي كانت مليئة بالبراءة والعذوبة والتي أضاعتها الحياة وسلبتها منه ،وهو يرسم سعادة الطفولة في تلك العلاقات القوية بين الطفولة والطبيعة ،فالطفولة فطرة نقية والطبيعة فطرة نقية ،وهما مثال خالد للجمال !

انه يذكر هذه الطفولة بقوله :

أيام كانت للحياةِ حلاوةُ الروضِ المطير
وطهارةُ الموجِ الجميلِ وسحرُ شاطئه المُنيرْ
وودلعَةُ العُصفور بينَ جداولِ الماءِ النمير
أيام لم نعرف من الدنيا سوى مَرحِ السرور
وتتبع النحل الأنيق وقطيف تيجان الزهور
وتسلق الجبل المكلل بالصنوبر والصخور
وبناءُ أكواخِ الطفولةِ تحت أعشاش الطيورْ

مسقوفةٍ بالورد ،والأعشابِ ، والورقِ النضيرْ
تبْني فتهْدِمها الرياحُ ،فلا تضجُّ ولا تثورْ
ونعودُ نضحكُ للمروج ،وللزنابقِ ،والغدير

وتضيع منه جنته ويقابل الحياة العملية الشاقة ،فتسحق أحلامه ، ويكتشف أن طبيعة الانسان ليست هي الخير المطلق ،بل هي مزيج من الخير والشر ،وتصدمه هذه الحقيقة ،فقد كان يتصور أن صورة الحياة والانسان التي أحسّها في طفولته ،هي الصورة الواقعية التي سيقابلها بعد ذلك في مراحل الحياة المختلفة ،ولكن صورة الطفولة كانت على العكس حلما وخيالا بلا رصيد في دنيا الواقع،وكانت النتيجة هي الصدمة النفسانية التي أخذ يعاني منها حتى مات ،لقد ضاعت جنته وهو اليوم يعيش في الجحيم اذ يقول :

واليوم أحيا سرهقَ الأعصابِ ،مشبوبَ الشعور
متأجج الاحساس ،أحفل بالعظيم وبالحقير
تمشي على قلبي الحياةُ ،ويزحفُ الكونُ الكبيرْ
هذا مصيري ،يا بني الدُنيا ،فما أشقى المصيرا

وللشابي قصيدة أخرى تعتبر من قصائده المهمة أيضا هي " من أغاني الرعاة " وفي هذه القصيدة يغني للطبيعة بنفس الطريقة ،فهو يضفي عليها طابعا انسانيا ،فالراعي يعيش مع خرافه في عالم مثالي ، أو مدينة فاضلة ،انه يعيس في الدنيا الجميلة التي لم يجدها الشابي في عالم الواقع ،ان الراعي يقول لخرافه :

لن تَلقي يا خِرافي ،
في حِمى الغاب الظليلْ
فزمانُ الغابِ طِفْلٌ ،
لاعِبٌ ،عذبٌ ،جَميلْ
وزمانُ الناس شيخٌ ،
عابِسُ الوجهِ ،ثقيلْ
يتشهى في ملال
فوقَ هاتيكِ السُهولْ

هذه هي المقارنة الأساسية الدائمة التي يعقدها الشابي بين الحياة الواقعية ،وبين حياة الطبيعة ،فعالم الناس أو زمانهم " شيخ عابس الوجه ثقيل " أما عالم الطبيعة فهو " طفل لاعب،عذب ،جميل" لذلك ،هو يختار الطبيعة ويعطيها كل حبه وايمانه ، وينصرف عن عالم

الناس ساخطا عليه ،غير راض ولا مقتنع به. (١)

ولما كان الشابي معنّى النفس بالآمه والآم شعبه معا ، شعبه الذى يصرخ فيه فتضيع صرخته في الفضاء ،فهو يريد أن يتناسى هذا الواقع الحالك ،فيرتمي في أحضان الطبيعة الرؤوم على صدرها ،يهدهد أساه فتهلو له صحبة أطفالها :

الجدول ،والنهر ،والنجوم ، والبلابل ، والغاب ،والفجر ، والضياء ، والصدى ،والظلّ ، والنسيم ، ان الانسان ابن الطبيعة البكر ،وهو أدنى الى قلبها من هؤلاء جميعا ،لأنه أشد بها علوقا وأكثر لها تمجيدا ،اذ يقول :

ليت لي أن أعيشَ في هذه الدُنْيا سعيداً بوحدتي وانفرادي
أصرف العمرَ في الجبالِ وفي الغاباتِ بين الصنوبر الميّادِ
وأغنّي مَعَ البلابلِ في الغابات، وأصْغي الى خَريرِ الوَادي
وأُناجي النُجومَ ،والفَجْرَ،والأطيارَ والنهْرَ،والضياءَ الهادي
عيشةٌ للجمالِ ،والفنِ ،أبغيها بعيداً عَنْ أُسْرَتي وبلادي
لا أُعنّي نَفْسي بأحْزانِ شَعْبي فهو حَيٌّ ،يَعيشُ عَيْشَ الجَماد
وبعيداً عن المَدينةِ والناسِ،بعيداً عَنْ لَغْوِ تلكَ النَوادي

وفي الطبيعة وأخص بالذكر هنا الغاب ،تقضي همومه ، وتخفف من أحزانه ،ونسي الناس وحبائلهم وسخافاتهم في كل شيء ، وتطهر كأنه ولد من جديد ،تفتح للحياة والضوء والنسيم ،تفتح للخيال والشعر اذ يقول :

في الغابِ في الغابِ الحَبيبِ وانَّهُ
حَرَمُ الطبيعةِ والجمالِ السامي
طَهّرْتُ في نارِ الجمالِ مَشاعِري
وَلَقيتُ في دُنْيا الخيالِ سَلامي
ونَسيتُ دُنْيا الناسِ،فهي سَخافَةٌ
سَكْرى مِنَ الأوهامِ والآثامِ
وَقبَسْتُ مِنْ عَطْفِ الوُجُودِ وحُبِّهِ
وجَمالِهِ قَبَساً ،أضاءَ ظَلامي
فرأيْتُ ألوانَ الحياةِ نضيرةً
كنضارةِ الزهْرِ الجميلِ الناميِ

---

(١) : أبو القاسم الشابي ـ شاعر الحب والثورة ـ لرجاء النقاش ص ٤٧ ـ ٥٤ .

ووجـــدتُ سِحْـــرَ الكـــونِ أســـمى عنصـــرا
وأجـــلَّ مـــن حُـــزْني ،ومـــن آلامـــي
فـــأهـــبُّ ـ مســـحورَ المشاعِـرِ ـ حالمـاً
نـشـوانَ ـ بـالقلـبِ الكئيـبِ الـدامي
" المعبـــدُ الحـــيُّ القَـــدسُ هـا هنـــا
يا كـاهـن الأحـــزان ،وا لآلا م"
فـاخْلَـــعْ مَســـوحَ الحُـــزْنِ تحـت ظِـلالـــهِ
والْبَـسْ رداءَ الشِعْـرِ والأحْـــلا م .

فالشاعر كما ترى تكاثرت الهموم حوله حتى انقطع لها وصار لها كاهنا .

وعبادة الطبيعة ليست مجرد وصف سخيّ ،تخلعه على الشابي ،فان هذا اللون من الشعور كان يعرفه الشابي ويتعمقه ويؤمن به عن وعيّ وبصيرة، فلا غرابة أن يدين به في حماس وحب عظيمين .

هذا الحماس وهذا الحب نستشفه من رأيه في نظرة الأدب العربي الى الطبيعة ،كما جاء مبثوثا في كتابه الخيال الشعري عند العرب :

" . . ان النظرة العربية الى الطبيعة بسيطة ازاء النظرة الغربية ،مهما بلغت من العمق والشعور . وشعراء العربية لم يعبروا عن احساسات شعرية عميقة ، لأنهم لم ينظروا الى الطبيعة نظرة الخاشع الى الحيّ الجليل ، وانما كانوا ينظرون اليها نظرتهم الى رداء منمق وطراز جميل ، وهي لا تزيد عن الاعجاب البسيط،ومثل هذه النظرة الفارغة لاينتظر منها أن تشرق تشرق بالخيال الجميل ،لأن الخيال الشعري منشأه الاحساس الملتهب ، والشعور العميق ، وشعراء العربية لم يشعروا بتيار الحياة المتدفق في قلب الطبيعة الا شعوراً بسيطا ،خاليا من يقظة الحس ونشوة الخيال" (١)

تلك هي خلاصة نظرة الشابي للطبيعة ،وذلك هو سر حبه لها وهروبه اليها ،ففيها الكمال الذى يحلم به ،والحنان الذي لم يجده في المجتمع والثورة التي لم يقم بها الشعب ،والبراءة التي مزّقها الواقع وأفسد معناها الجميل ،وفيها أخيرا التناسق والحيوية ،وهما من أرقى الصور التي يحلم بها الشاعر للحياة ،ويحملها على الدوام في قلبه الرقيق النبيل" . (٢)

---

(١) : شعب وشاعر ـ الدكتوره نعمات أحمد فؤاد ـ ص ١٢٢ ـ ١٢٨ .

(٢) : أبو القاسم الشابي ـ شاعر الحب والثورة ـ ص ٥٥ .

ونلاحظ أن الطبيعة التي يصورها الشابي ليست متعددة المشاهد ولا متنوعة المناظر،وشعره خال من اللوحات الطبيعية الكاملة،فلا ترى وصفا خاصا بنهر أو روض أو غير ذلك من المعاني الطبيعية الرائعة.

ولكننا حين نقرأ شعره ،أن الشاعر يعبد الطبيعة عبادة مطلقة تصل به به الى درجة الفناء في جمالها الأخّاذ ،وتدرك أن شعوره بها لم يكن شعورا بسيطاً،ولكن كان شعورا عميقا لأنه لا يتذوقها في سذاجة المتلذذ المتنعم الذى لايشغله منها الاّ ما تهيئه له من راحة وظل وقبر . (١)

==========

==========

========

===

=

---

(١) : الشابي وجبران ــ خليفه محمد التليسي ــ ص ٧٥.

الباب السادس

خصائص شعر الشابي وموقف النقاد منه :

الشابي شاعر وجدانيّ خالص ،وهو على صغر سنه شاعر مكثر مجيد ولقد أجمع الدارسون على أن الشابي طبع شعره على غرار المذهب الرومانسي ،ولقد عدد مصطفى رجب خصائص هذا المذهب في سلسلة من المقالات نشرها في مجلة الأسبوع التونسية ،ثم جمعها في كتاب عنوانه " شاعران " ، ولقد رأى مصطفى رجب الخصائص الرومانسية تبرز عند الشابي في :

اللفظة ،العبارة ،الأسلوب ، القالب ،الدعوة الى الطبيعة ،الاستماع الى النفس،توسيع دائرة الشعر،ابتكار المواضيع ،مسايرة روح الموضوع ،تأثّر العالم الداخلي بالعالم الخارجي ،النزعة الانسانية .

أما عمر فروخ فانه يرى الخصائص فيما يلي :

أولا :

الأسلوب

جرى الشابي في شعره على أسلوبين : أسلوب فخم متين النسج جاء به في طوره الأول في الأكثر ،وخص به قصائده في الحكمة والرثاء والفخر ثم أسلوب لين سلس جاء به في القصائد التي طواها على أغراضه الوجدانية والخيالية ،وكان من الطبيعي أن تضم قصائده على الأسلوب الأول : الفاظا فخمة والفاظا غريبة ،وألفاظا جزلة ،وأن تكون الكلمات فيها متخيّرة تدل على احاطة بالقاموس العربي الى حد كبير ،على أن هذا كله لم يمنع أن ترد الكلمة المولّدة عنده الى جانب الكلمة الجزلة الصحيحة مثال ذلك قوله :

يقولون صوت المستذلّين خافت
وسمع طغاة الأرض" أطرش" أصخم (١)

ففي القاموس: الطرش تعني أهون الصمم أو هو مولّد وليس هذا ما يريده الشابي ،انه يريد أن يقول " شديد الصمم" .

---

(١) : من قصيدته الى الطاغية ـ الديوان ص ١١٨ .

أما أصخم : فلا وجود لها في القاموس ،فهي ليست متصلة بما أراده الشابي لا صيغة ولا معنى ،مع العلم أن الشابي قد قصد أن يملأ أسماعنا بالألفاظ الفخمة الضخمة ،فجاء بها فيها القاف والصاد مرتين ،والخاء مرتين والطاء مرتين والضاد مرة .

وتكلم مصطفى رجب عن الرومانسية عند الشابي فقال :

" .. الصد والوصل والركوب والندى ألفاظ كلاسيكية ((يقصد : جاهلية شريفة مألوفة)) ،وبخلافها : الأحلام والأماني ،والغاب ،والفراش ،بفتح الغاء ،والنحل ،والأثير ،والمعبد ،والهيكل ،والفنّ ،والعبقرىّ ، ألفاظ رومانسية . يقصد مولّدة ،محدثة . "

وفي رأى رجب: أن الشابي تجنب الألفاظ الأولى ،وأكثر من تصريف الألفاظ الثانية في شعره. (١)

ويرى الأستاذ التليسي أن قوة أسلوب الشابي ليست في الفاظه ،على رغم براعته في استخدامها وعلى رغم ثروته من الالفاظ اللونية والصوتية التي يستعملها في براعة الرسام النابغ والموسيقى العبقرىّ ،ولكنها في قوة احساسه وهي التي تخلق ألفاظه ومعانيه المتمردة المتحررة في مواضع السخط والتمرد ،وهي التي تتدفق بالألفاظ اللينة الوديعة في مواضع اللين والضراعة ،وقد وجهته هذه القوة توجيها خطابيا ،فلم يستطع أن يتخلص من تلك الصفة التي أخذها على الشعر العربي ،ولم يقدر على التحرر منها وأمثلة ذلك واضحة في كثير من شعره ،الذى يشعرك أنه واقف بين قومه يلقنهم تعاليمه ،أو يصبّ عليهم غضبه ونقمته اذ يقول في قصيدته الخالدة "النبي المجهول" (٢) :

أيها الشعب،ليتني كنت حطا
بـا فـأهـوى على الجذوع بفأسي

ويقول في قصيدته " ارادة الحياة" (٢) :

اذا الشعبُ يوماً أرادَ الحياةَ
فلا بُدَّ أن يستجيبَ القدرْ.

وفي قصيدته " الى الشعب " يقول : (٣)

أين يا شعب قلبك الخافق الـ
ـحسّاسُ ؟ أينَ الطموحُ والأحلامُ؟

---

(١) : الشابي شاعر الحب والحياة – عمر فروخ ص ١١٧ – ١١٨.
(٢) : الديوان : ص٢٤٦.
(٣) : الديوان : ص٤٢٦.

وفي قصيدته " نشيد الجبار" و هكذا غنّى بروميثيوس" (١) :

سأعيش رغم الداء والأعداء

كالنّسر فوق القمّة الشمّاء

ثم يستطرد التليسي قائلا :

". . ونحب أن نؤكد أن الحكم على أسلوبه ،انما أقناه على أساس من تجاربه الشعرية الناضجة ،التي تحددت فيها شخصيته ومعالم أسلوبه وطريقته في الأداء ، ودلّت على الطريق الذى سيسلكه لو قدّر لعبقريته أن تنمو وتعيش ،ولا بدّ من التذكير أن العمر الشعرى لهذا الشاعر لم يتجاوز سنوات قليلة ،وذلك هو مظهر القوة والأصالة فيه ،فهو رغم عمره القصير ، استطاع أن يكون مدرسة وحده ،وأن يدفع كثيرا من الشعراء بطابعه الواضح القوى العميق . (٢)

ثانيا :

التركيب :

==========

يرى فروخ أن تراكيب الشابي كألفاظه تجرى مجريين : مجرى على أساليب العرب ،ومجرى آخر كثير التحرر والانفلات من أساليب العرب.

يجب أن يكون التركيب صحيحا متينا ،ونعني بالتركيب الصحيح أن تجرى الجملة على أساليب العرب في الترتيب ووجود التقديم والتأخير أو جوازهما وفي الاضمار وما الى ذلك ،مما يعرف في كتب النحو ،وأما التركيب المتين فيكون في خلوّ الجملة من الحشوّ" الزيادة التي لايزيد معنى الجملة بها وضوحا أو تفصيلا" ،كما يكون بأن تعرّى عن الذى يخلّ بالمعنى . (٣)

ولقد تعرض الأستاذ التليسي للتركيب عند الشابي اذ يقول :

". . . أناقة التعبير ورصانته وأصالته ،هي الدعائم الأولى التي يقوم عليها أسلوب الشابي ،الذى امتاز ببعده عن النثرية السطحية ((الركاكة)) التي أخذت على كثير من شعراء المدرسة الحديثة ،وخاصة المدرسة المهجرية ،فهو أسلوب ينساب في عفوية وبساطة رصينة ،بساطة من أدرك موضوع اللفظ ،ومدى قوته التصويرية والموسيقية ،حتى اذا استولت عليه

---

(١) : الديوان — ص٤٤٠ .

(٢) : شاعران متشابهان — خليفه محمد التليسي ص١٠٢ — ١٠٦ .

(٣) : الشابي شاعر الحب والحياة — عمر فروخ ص ١٢١ — ١٢٢ .

شهوة النظم ،تدفقت شاعريته في سماحة ويسر لايشعران القارىء بأي مجهود الا بمقدار ما يشعرك النهر المتدفق نحو البحار بقوة النبع الذى يصدرعنه وتلك صفة لاينالها الا من عاش معنى اللفظ ،وأحس بما فيه من رصيد شعورى لايقوم على الرنين اللفظي الذى يأسر الآذان ،ولكنه يقوم على العاطفة المتّقدة التى تنفذ الى أعماق الوجدان .

والوضوح هو الدعامة الأولى للبساطة ،ولذا أجدني مخالفا لمن يتهمون هذا الشاعر بالغموض وتعدد التعابير الرمزية ،وان شعره من الوضوح بحيث لا يحتاج الى شرح أو اعنات القريحة في فك تعابيره. (١)

ويوافق فروخ التليسي رأيه في بعض شعر الشابي ،ويخالفه في البعض الآخر اذ يقول :

" .. ان بعض شعر الشابي كذلك ولكنّ سائره مخالف لهذه الأحكام التي حمل التليسي عليها حبه للشابي ،فالأبيات التالية وهي من قصيدته "نظرة في الحياة" (٢) :

ان السكينةَ روحٌ . . في الليل ليست تُنامُ
والروحُ شعلةُ نورٍ . . من فَوقِ كلِ نِظامِ
لا تنطفي برياح الار . . هاق أو بالحسامِ
بل قد يعجّ لَظاها . . سيلاً ويطفى الضِرامُ
كل البلايا جميعا . . تفنى ويبقى السلامُ

ويقول في قصيدته " غرفة من يم " (٣) :

ضعفُ العزيمةِ لحّدٌ ،في سكينتهِ
تقضي الحياةُ ،بناه اليأسُ والوجَلُ
ما كلُّ فِعلٍ يجلُّ الناسُ فاعِلَهُ
مجداً ،فانّ الورى في رأيهم خَطَلُ

ويقول في قصيدته " يا رفيقي": (٤)

ونشيحٍ مضرّمٍ من فتاةٍ ،
أبهظتهَا قوارعُ الأيّامِ

---

(١) : شاعران متشابهان — خليفه محمد التليسي ص ١٠١.
(٢) : الديوان — ص ٧٥.
(٣) : الديوان — ص ٨٢.
(٤) : الديوان — ص ١٩٤.

ونسواح يفيض من قلب أمّ
فجعت في وليدها البسّام

هذه الأبيات ليست أنيقة التعبير ولا بعيدة عن الركاكة ولا هي تفيض عفو الخاطر،في سهولة ووضوح .

ثم يورد فروخ أبياتا أخرى من قصيدة الشابي " الى عذارى أفروديت" يقول معلقا عليها :

نحن نرى هنا حرف الشرط وفعل الشرط،ولكننا لا نرى جواب الشرط، ثم اننا لانرى في هذه الأبيات أناقة ولا وضوحا ، (١) أما الأبيات كما أوردها فروخ :

وسبيل الحياة رحب وأنتـ
ـنّ اللواتي تفرشنه بالورود
انّ أردتنّ أن يكون بهيجا
رائع السحر ذا جمال فريد
أو بشوك يدمي الفضيلة والحبّ
ويقضي على بهاء الوجود
ان أردتنّ أن يكون شنيعا
مظلم الأفق ميّت التغريد.

ثالثا :

الصناعة اللفظية والمعنوية

==========

اذا كان الكلام على اللفظ والتركيب يتعلق بفقه اللغة والصرف والنحو وغايته صحة التعبير ،فان الكلام على الصناعة اللفظية والصناعة المعنوية يتعلق بالبلاغة وغايته تحسين الأسلوب .

وللنقاد آراء وأقوال حول هذا الموضوع في شعر الشابي ،فزين العابدين السنوسي : يرى أن الشابي يستغرق قواميس الأدب العربي باستعاراتها وكنايتها ومجازاتها المتعارفة المحفوظة لدى القوم ،ثم يأتي بمئات من المعاني الجديدة السامية يفرغها على بعض الألفاظ الخاملة ،فاذا هي أصرح في الدلالة من حقائق القواميس اللغوية ، وأروع من المتعارف من كنايات وتجوّزات ((الاتيان بالمجازات)) المتقدمين لما فيها من قوة التعبير ومن الاشارة الى التأثيرات النفسية . (٢)

---

(١) : الشابي – شاعر الحب والحياة – عمر فروخ – ص ١٢١ – ١٢٢ .
(٢) : الشابي شاعر الحب والحياة – عمر فروخ ص ١٢٣ – عن الأدب التونسي ص ٢٠٣ – ٢٠٤

أما مصطفى رجب فيرى أن الشابي قد هجر تشابيه القدماء واستعاراتهم وكناياتهم من مثل " فدتك روحي - ثقيل ردف - مليح خد - جميل صبر - عروس خدر " ليتبدل بها "الكروم العارشة - الندى الزيتي - لمس ترس صاريتي تاهت بمينها " ثم يسبو الشابي عند مصطفى رجب الى مثل هذه العبارات : " الظلّ الكئيب - ضباب الأسى - رحلة العمل القصير - عالم الآثار - أقدام الربيع - ريشة الاله " (١).

رابعا :

الخصائص اللفظية والرمز

==========

يقول زين العابدين السنوسي :

" ان الشابي قد تشبّع بالمدرسة الرمزية التي أقام عمادها في العربية جبران خليل جبران".

أما الصادق عازيع فيرى أن أصحاب المذهب الرمزي قد جعلوا المكانة الأولى لمفعول رنّة الألفاظ وامتزاجها امتزاجا موسيقيا غامضا ،هو منبع ما في الشعر من خيال وتأثير عميق وصور جذّابة حتى لتجد الصورة المرئية تندمج مع اللحن المسموع وتنضم اليه انضمام النظير للنظير،وما ذكره عازيع ينطبق كما يقول السنوسي على انسجام الفاظ الشابي مع معانيه. والغموض يسود رمزية الشابي ويطغى على مدلولات ألفاظه وعلى تصريف الكلم يصرف بها معانيه ،وعلى النحو الذى يعرب به ألفاظه للدلالة على البهم من شعوره .

أما أحمد المختار الوكيل فيوافق رأي السنوسي حينما يقبل أن يكون الشابي شاعرا يميل الى الغموض والرمز،ثم يعلق أن الرمز لايفهم بمراجعة المعاجم.

ولا ريب في أن الرمز،وهو في الأصل مبني على الاستعارة ،يحسن في البيت بعد البيت وفي القصيدة بعد القصيدة فاذا تراكم وكثر فيه الغموض أصبح عبئا في الأدب،فاذا أضفنا الى ذلك كله أن الشابي كان يأتي بأشياء لايعرفها لم تستغرب أن يعترض عليه في الأمر بعد الأمر.

على أننا نجد للشابي أحيانا رمزا موفقا في مثل قوله :

ذلّ قلبي ،

مات حبّي !.

---

(١) : الشابي شاعر الحب والحياة - عمر فروخ - ص ١٢٤.

فاذرفي ، يا مقلّةَ الليل ، الدراري عَبَراتْ
حول حُبّي ، فهو قد وَدّعَ آفاقَ الحياةْ
بَعْدَ أن ذاقَ اللّهيبْ

****

وانْدُبيهْ
واغْسِليهْ
بدُموعِ الفَجْرِ مِنْ أكْوابِ زَهْرِ الزَّنْبَقِ (١) .

****

خامسا :

المعاطفة والعقل

==========

لقد أسهب النقاد والأدباء في هذا الموضوع عند الشابي ، فلقد أورد خليفة محمد التليسي في كتابه الشابي وجبران جانبا من قصيدته "تونس الجميلة" ثم علق عليها بقوله :

" تقوم الرومانسية على الايمان بالعاطفة ، وتقديس الشعور ، والاستخفاف بالعقل والتهوين من شأنه بل تحقيره ، لأنه يصيب الحياة بالجفاف ، فيفقدها أجمل ما فيها ، وأجمل ما فيها بلا خلاف ما كان نتاجا للعاطفة وقد كانت العاطفة كل شيء في حياة هذا الشاعر الرومانسي ، وكانت يقظة الاحساس رسالته التي عاش من أجلها ، فلا مجد للنفوس من غير هذه اليقظة ، ولا خلود لها الا اذا اتحدت من الشعور بالذات قوة دافعة الى السمو والتعالي وما تميزت الأفراد عن بعضها الا بمقدار نصيبها من هذا الشعور." (٢)

من هنا نلاحظ أن التليسي رجح العاطفة على العقل ، بل نقول أكثر من ذلك ان التليسي الغى دور العقل تماما أمام العاطفة .

ولعل التليسي في قوله هذا نظر بل تأثر بقول الحلبوي :

" أما الشابي فشاعر أداته العاطفة والخيال ، وهو نفسه ينكر العقل ويصغر أمره ، ويراه عاجزا عن الوصول الى الحقيقة ، وأنه لايزال صغيرا رغم مشيبه ووقاره ، يقول الشابي :

عش بالشعورِ وللشعورِ فانما
دُنْياكَ كونٌ عواطفٍ وشعورِ

---

(١) : الشابي شاعر الحب والحياة ـ عمر فروخ ـ ص١٢٤ .

(٢) : الشابي وجبران ـ خليفه محمد التليسي ـ ص٤٢ .

شيدت على العطف العميق ،وانها

لتجفّ لو شيدت على التفكير (١)

أما مصطفى رجب فان رأيه متصل برأى الحليوى أيضا ،ولكنّ الحليوى أدخل شيئا من الوضوح حينما أقام القلب مقام حاسة قوية ،وجعله مركزا للشعور أو رمزا عن مجمع الشعور على الأصح .

أما زين العابدين السنوسي فيرى أن الشابي ضرب على أوتار العقل الدراكة بعواطفه القوية الجياشة في انسجام رائع خلاّب،ويتأول السنوسي رأى الشابي في قصيدته : "عرس المصفور" فيقول :

". . ان أبا القاسم لم يعتقد أن العقل رائد الانسان وقائده ،بل كان يؤمن أن التفكير شعبة من شعب الشعور الانساني ،وأنّ العقل غدّة رئيسية في الانسان قد استخدمتها مشاعره وطموحه ليبلغ منها بعض ما يتطلبه من الهناء واللذة والحق والجمال والتعاطف".

ويذهب الدكتور محمد فريد غازى مذهبا بعيدا عندما يردّ كلام الشابي في قلبة الخيالي الى عقابيل مرض قلبه الطبيعي .

أما عمر فروخ فيشك أن تكون القصائد التي ذكرها ملامح صادقة لمرضه ،لأن الشابي نفسه يشك في أن قصيدة الأبد الصغير،وقصيدة نشيد الجبار،أو هكذا غنى بروميثيوس مستوحيتان من مرضه . (٢)

نلاحظ من هذا العرض لآراء الكتاب والنقاد أن منهم من اهتم بالعاطفة والغى دور العقل تماما ،ومنهم من ردّ حديث الشابي عن قلبه الى ما أصابه من مرض.

سادسا :

الخيال

==========

يرى عمر فروخ أن الشابي خيالي التعبير يبحث عن مثل أعلى من صنع هذا الخيال فلا يجده في العالم الذى يعيش فيه ،فينقلب شاكيا باكيا ثم تصطبغ آراؤه وتعابيره بالأسى والحزن والكآبة والوجوم. (٣)

أما زين العابدين السنوسي في الأدب التونسي فيرى أن الشابي قد

---

(١) : مع الشابي — ص ٨٥ .

(٢) : الشابي — شاعر الحب والحياة — عمر فروخ ص ١٣٣ .

(٣) : الشابي — شاعر الحب والحياة — عمر فروخ ص ١٣٤ .

أمتلك ناصية الخيال ،ولكنه على رغم سكوته عن الخيال في شعر الشابي في كتابة "أبو القاسم الشابي" ،الا أنه يخبرنا أن التصور (١) عند الشابي قد كان صادقا حقيقيا لمن عاشرهم ،وسكنوانفسهم وانطبعوا في روحه. وهي أشباح لأناس حقيقيين لا خياليين ،فما كان أبوه رمزا خياليا ،ولا كانت عشيرة صباه بجنة شاعر أو حلم كاذب.

أما التليسي فيرى أن حزن الشابي الذى ظهر في قصائده الأولى واجد تعليله في مرحلة المراهقة التي تعيش في عالم الأحلام وتتجه الى العكوف على الذات والاستجابة الى الخيال ،والآمال العريضة التي لاسبيل الى تحقيقها في دنيا الواقع ،والرومانسية أقرب الى أرواح المراهقين بما يحيط بها من غموض محبب ،وكآبة لذيذة وخيال وقاد ،وقد استجاب الشابي لمشاعر هذه المرحلة من حياته ،فرأى الحياة معركة طاحنة لامقام فيها للضعيف

ثم يعود التليسي مرة ثانية ليقول في نفس المصدر:

". . ولا يعسر على المرء أن يستخرج من هذا الشعر الرائع صورا فنية فاتنة عمل الخيال في تلوينها ،وأبدعتها عبقرية تستقبل الحياة بأكثر من حاسة. (٢)

أما فروخ (٣) فيعود ليرى أن كثيرا من صور الشكوى والكآبة في شعر الشابي يرجع الى التعبير الفني الذى أغرم الشابي به ،وان جانبا مهما من تلك الكآبة كان بلا ريب شعورا صحيحا في الشابي ،ولكن هناك جانبا هو تعبير محض لا صلة له بالشعور الصحيح ،والا فكيف نعلل حكمه على مستقبله بالتشاؤم أيضا مع الافتراض بأن الدنيا يمكن أن تضحك له ،ودليلنا على ذلك ما ختم به الشابي قصيدته " نشيد الأسى" (٤) اذ يقول :

مهما تضاحكت الحياة فانني أبدا كئيب
أصغي لأوجاع الكآبة ،والكآبة لاتجيب
في مهجتي تتأوه البلوى ويمتلح النحيب
ويضج جبّار الأسى ،وتجيش أمواج الكروب
اني أنا الروح الذى سيظل في الدنيا غريب
ويعيش مضطلعا بأحزان الشبيبة والمشيب.

ومع هذا يعترف فروخ أن للشابي خيالاً مولّداً موغلاً في الغرابة يصطنع

---

(١) : أبو القاسم الشابي – زين العابدين السنوسي – ص٢٦.
(٢) : الشابي وجبران – خليفه محمد التليسي – ص١٠٣.
(٣) : الشابي – شاعر الحب والحياة – عمر فروخ . – ص١٣٦.
(٤) : الشابي – شاعر الحب والحياة – عمر فروخ – ص١٣٤.

من الأمور العادية قصصا ومشاهد ، والحكم على الأخيلة يكون بما لها من الصور،وبالقران الذى بيّن تلك الصور،ويستشهد لذلك بقصيدة للشابي بعنوان " قلب الأم" (١) فيقول :

هـا أنتَ ذا أطبقتَ جفنيكَ أحلامُ المنونْ
وتطايرت زُمَرُ الملائكِ حولَ مضجعكَ الأمينْ
نَسِيَتْكَ أمواجُ البحيرةِ ،والنجومُ اللامعهْ
والبلبلُ الشادى ،وهاتيكَ المروجُ الشاسعهْ
حتى الرفاقُ ،فانهم لبثوا مدى يتساءلونْ
في حيرةٍ مشبوبةٍ: "أين اختفى هذا الأمينْ ؟"
لكنهم علموا بأنكَ في الليالي الداجيهْ
حملتكَ غيلانُ الظلامِ الى الجبالِ النائيهْ .

سابعا :

الجدّ والهزل :

==========

لقد تعرض الأستاذ فروخ لهذه الناحية من شعر الشابي ورأى أن الجدّ يغلب على ديوان الشابي الذى بين أيدينا ،ولا ريب أن اتجاه الرجل كان جديا حزينا ، ولكن يبدو أن الشابي كان أيام تلمذته ،قبل أن يعلم مرضه ،أو قبل أن يدرك خطورة مرضه ،يميل الى الهزل والمعابثة ككل شاعر آخر،أو ككل انسان في صباه . (٢)

أما بعد أن اطلّع الشابي على حقيقة دائه ،فقد أراد أن يفارقه حزنه وكآبته ،فسلك في ذلك مسلك العقل بالايحاء الذاتي كقوله :

يا قلبيّ الباكي ،الام البُكا ؟
ما في فضاءِ الكونِ شئٌ يدومْ
فانثرْ غُبارَ الحزنِ فوقَ الدجى
واسمعْ الى صوتِ الشبابِ الرخيمْ

هذا ونلاحظ في الديوان عددا من القصائد تسير في هذا الاتجاه مثل " صلوات في هيكل الحب" و " أراك " و " السعادة " و " الأبد الصغير" و " الرواية الغريبة " و " الحانيّ السكرى " .

أما المسلك الآخر فهو مسلك فيه شيء من الهزل والمجون ،ولعل خير ما يمثل هذا الاتجاه قصائده ،وتحت الغصون ،والاعتراف .

---

(١) :الديوان — ص ٣٢٥ — ٣٣٢ .
(٢) :الشابي — شاعر الحب والحياة — عمر فروخ .

ويقول الشابي في قصيدته الساحرة : (١)

أيها الطائرُ الكئيبُ تفرّدْ
انّ شدوَ الطيورِ حلوٌ رخيمُ
"واسترِ في روضةِ الشباب طروباً
فحواليكَ وردُهُ وكرومُهْ"
"واتّئِدْ للحبِّ والحياةِ أغانيكَ
وخلِّ الشقاءَ تدمي كلومَهْ"
"واحتضنّي ،فانني لك ،حتّى
يتوارى هذا الدجى ونجومُهْ"
"ودَعِ الحبَّ ينشدُ الشعرَ لليلِ
فكمْ يسكرُ الظلامُ رنيمُهْ..."
"واقطفْ الوردَ من خدودي وجيدي
ونهودي... وافعلْ به ما تروم"
"وارتشفْ من فمي الأناشيدَ سكرى،
فالهوى ساحرُ الدلال ،وسيمُهْ"
"فوماها بنظرة ،غشيتها
سَكْرةُ الحبِّ ،والأسى ،وغيومُهْ"
وتلاها بهمسةٍ ،رشفتها
منه سكرانةُ الشبابِ . رؤومُهْ"
والتقتْ عندها الشفاهُ.. ،وغنّتْ
قُبَلٌ ،أجفلتْ لديها همومُهْ
ان في المرأةِ الجميلةِ سحراً
عبقرياً ،يذكي الأسى ،ويُنيمُهْ

ثامنا :

النفس الشعرى :

==========

النفس الشعرى تسمية عربية أصيلة ،أبدلها دعاة الرومانسية بلفظة الايحاء ونعرض هنا آراء لمجموعة من الأدباء في هذا المجال ،

فالتليسي يقول :

" الشابي يستمين في الوصف بقدرة خارقة على الايحاء والتأثير على

---

(١) : الديوان — ص ٣٥٥ .

القارئ بحيث يضع أمام بصره ،في تعبير بسيط ،صورة لا نهاية لروعتها . (١)

أما الشاذلي بو يحيى فيرى عند الحديث عن النفس الشعرى عند الشابي :

" ان من عناصر شاعرية الشابي انسجام اللفظ في جوّ خصيب من حيث المعاني ،يولّدها بمجرّد وجوده لذيذ من حيث النبرات ،يؤلف بينها نغمة ونشيداً . (٢)

أما الدكتوره نعمات أحمد فؤاد فترى :

" أن الشابي طويل النفس وتستدل على ذلك بمجموعة من قصائده أشارت اليها في كتابها ((شعب وشاعر)) (٣) ،وهذه القصائد هي :

"أيها الليل" (٤) ، "يا شعر" (٥) ،"في فجاج الآلام" (٦) ،" جدول الحبّ بين الأمس واليوم" (٧) ،" نشيد الأسى" (٨) ،"النبيّ المجهول" (٩) ، " صلوات في هيكل الحب" (١٠) ،"قلب الأم" (١١) ،" حديث المقبرة" (١٢) ،" الجنة الضائعة" (١٣) ،" ارادة الحياه" (١٤) ،" تحت الغصون" (١٥) ،"الغاب" (١٦)

أما فروخ فيختم هذه الآراء (١٧) بقوله :

" للشابي مقدرة جبارة غريبة على تنسيق الكلام وتأليفه حتى يصير موسيقى لانهائية تنبو عن القواعد كما هي نشأت عن غير مفروض البلاغة ،حسب أنك لم تهتد الى مغزى قصيدة أو مدلول لفظ أو عبارة ،فلا تعدم ما يسميه الجاحظ الشجي ".

---

(١) : الشابي وجبران ـ خليفه محمد التليسي ص ـ ١٠٥ .

(٢) : الفكر ـ عدد ديسمبر ـ سنة ١٩٥٩م ص ١٨ .

(٣) : شعب وشاعر ـ نعمات أحمد فؤاد ـ ص ١٠٩ .

(٤) : الديوان ـ ص ١٣٧ : ٧

(٥) : الديوان ـ ص ١٠٢ .

(٦) : الديوان ـ ص ١٧٢ .

(٧) : الديوتان ـ ص ١٥٢ .

(٨) : الديوان ـ ص ٢٠٨ .

(٩) : الديوان ـ ص ٢٤٦ .

(١٠) : الديوان ـ ص ٣٠٣ .

(١١) : الديوان ـ ص ٣٢٥ .

(١٢) : الديوان ـ ص ٣٣٤ .

(١٣) : الديوان ـ ص ٣٦١ .

(١٤) : الديوان ـ ص ٤٠٦ .

(١٥) : الديوان ـ ص ٤١٤ .

(١٦) : الديوان ـ ص ٤٦٠ .

(١٧) : الشابي ـ شاعر الحب والحياة ـ عمر فروخ ص ١٤٤

ولعل هذا الرأي ينقله عمر فروخ عن الشاذلي بو يحيى اذ ورد في مجلة الفكر (١) وهكذا أشار اليه فروخ نفسه ،أما رأيه هو أي فروخ فيقول :

" ان الذى يميز شاعرا عن شاعر هو النفس الشعرى ،فالألفاظ قد تكون عند شاعرين فصيحة ،ويكون التركيب متينا والتشابيه والاستعارات بارعة والمعاني مبتكرة والأغراض واحدة ،ومع ذلك يكون أحد الشاعرين أشعر من صاحبه ،وهذا شأن الشابي : ان الشابي أبرع من جميع أقرانه الذين يذكرون معه في الفنون التي جرى فيها . ثم يستطرد واصفا لشعر الشابي بقوله ان شعر الشابي عذب رقيق فيه سهولة وسلاسة ،وأيا كان الغرض الذى يتناوله الشابي فانك تشعر فيه بشاعرية فياضة قديرة على تقليب الموضوعات

ويرى أيضا أن الشابي يجرى أحيانا مجرى القدماء فلا يجانب نفسهم الا قليلا ،ويستشهد لذلك ببيتين من الشعر وردا في الديوان في قصيدته " زئير الماضغة " (٢) وهما :

" سيشأر للعز المحطم تاجه
رجال اذا جاش الردى فهم هم"

"رجال يرون الذل عارا وسبة
ولا يرهبون الموت ،والموت مقدم"

==========

==========

==========

====

==

---

(١) : عدد مايو – سنة ١٩٦٠م.

(٢) : الديوان – ص – ٤٦٤.

أوزان الشابي وقوافيه

تغلب على الديوان القافية الواحدة اذ نظم منها تسع وخمسون قصيدة وعدد القوافي في خمس عشرة قصيدة ،منها قصيدتان عبارة عن مقطوعات ذات روّى مستقل هما :"نظرة في الحياة "و" شمرى" . ومنها قصيدة هي رباعيات مزدوجة ذات رويّين متتابعين ،ومن تواشيحه ، "مأتم الحب" و "شكوى اليتيم" و "أغاني التائه".

وينظم الشابي من الرباعيات" الثنائية" سبع قصائد ،ومن رباعياته المزدوجة غيرها قصيدته " في ظل وادى الموت" (١)

وأهمية الاحصاء هنا تنحصر في دلالته الخاصة بالشاعر ومنحاه نحو التحرر من قيود القافية العربية أو التمسك بها ،ثم دلالته العامة على نزعة الشعر العربي في أمر هذه القافية ،اما فيما عدا هذا فلتؤد الطاقة الشعرية ،الطاقة الفكرية ،الطاقة المعنوية في أىّ صورة من الصور، شعر مقفّى أو مرسل ما دام يذكي قدرتنا على التقدم ،ويزيد ثروتنا من الابداع الأصيل .

والشابي ميل الى التسكين ، وتسكين القافيه عنده غير مقصور على موشحاته ورباعياته ،بل يتناول قصائده ايضا .

ويرى التليسي :

أن الشابي كان موفقا كل التوفيق في اختيار الأوزان التي تلائم عواطفه وتسبغ على تعابيره جوا من الموسيقى العميقة فهو نغم هامس حزين في "الصباح الجديد"،وثائر صارخ متمرد في" النبيّ المجهول" و "ارادة الحياه" و " أنشودة الجبار" ، وهو نغم وديع هامس في " صلوات في هيكل الحب" (٢)

والشابي شاعر ولوع بالنغم كما ترى نعمات أحمد فؤاد — يوفر لقصيد ومن وسائل التنغيم عنده :

(التكرار :— ونعني به تكرار مطالع القصائد في الوسط،أو الختام كالتسليم الموسيقي في عالم الألحان ،ومن قصائد هذا اللون :— " تونس الجميلة"(٣) و" الكابة المجهولة"(٤) و " جدول الحب" (٥) على أن ظاهرة التكرارهذه

---

(١) : راجع— شعب وشاعر — الدكتوره — نعمات أحمد فؤاد — ص ١١١— ١١٢ — تجد احصاء بانواع القصائد المختلفة .

(٢) : الشابي وجبران— خليفه محمد التليسي — ص ١٠٢— ١٠٣ .

(٣) : الديوان — ص ٥٨ .

(٤) : الديوان — ص ٩٠— ٩٤ .

(٥) : الديوان — ص ١٥٢— ١٥٧ .

قد تكون محاولة من الشابي لتهدئة نفسه المختلجة ،اذ أغلب ما يكون التكرار في قصائده الحزينة .

ومن وسائل التنغيم عنده : التكرار في قصائده الحزينة . ومن وسائل التنغيم عنده ؛ التقسيم كقوله :-

فأنتِ وقد غمرتها الدموع

وقرّتْ،وقد فاض منها الحباب (١)

وقوله :

ولعلعة الحق الفضوب لها صدى

ودمدمة الحرب الضروس لها فم (٢)

وقوله :

فالدهر منتعل بالنار،ملتحف

بالهول ،والويل ،والأيام تشتعل

والأرض دامية ،بالاثم طامية

ومارد الشر في أرجائها ثمل

والموت كالمارد الجبار ،منتصب

في الأرض،يخطف من قد خانه الأجل (٣)

ومن آلاته الموسيقية : الاتباع : ويستشهد له بقوله :

ألبسوا روحه قميص اضطهاد

فاتك شائك يرد جماحه (٤)

ومن طرائفه في التعبير قوله :

أبدا يحمل الوجود بما فيه

كأن ليس للوجود زعيمه (٥)

وترى الدكتورة نعمات أحمد فؤاد في زعيمه كناية لطيفة عن الله عزّ وجلّ .

ومن طرائفه في الصفات : الجيد الشين ،والطرف الساهي ،والخطو الموقع.

ومن تشبيهاته الذاتية قوله :

سمعتها صرخة مضعضعة . . كجدول في مضائق السبل (٦)

---

(١) : الديوان — من قصيدة السآمة — ص ١٢٢ .
(٢) : الديوان — من قصيدة الى الطاغية — ص ١١٨ .
(٣) : الديوان — من قصيدة غرفة من يم — ص ٨٢ — ٨٥ .
(٤) : الديوان — من قصيدة تونس الجميلة — ص ٥٨ — ٦٠ .
(٥) : الديوان — من قصيدة تحت الغصون — ص ٤١٤ — ٤٢٥ .
(٦) : الديوان — من قصيدة الكآبة المجهولة ص ٩٠ — ٩٤ .

وترى الدكتوره نعمات أحمد فؤاد أنها صورة جميلة فيها "الصوت واللون ،والحركة والانفعال".(١)

المـــــــــــأخـــــــــذ :

==========

على الرغم أن الاجماع يكاد ينعقد على جمال أسلوب الشابي ،الا أن هذا الأسلوب المشرق ،لا يخلو من هنّة هنا أو هناك ،ولقد احصت الدكتورة ، نعمات أحمد فؤاد أخطاءه وهنّاته بما يلي :

١ ـ أجاز الشابي لنفسه أن يقول :

ان للحب على الناس يدا تقصف الأعمارا (٢)

وتعلق الدكتورة على ذلك قائلة : لماذا ؟ ان الحب يطيل الحياة بالمرض اذ ينضرها ويخصبها .

وزلة أخرى في القصيدة نفسها اذ يقول :

وله فجرٌ على طول المدى ساطع الأنوار

وهنة ثالثة نجدها في قصيدته قلب الأم اذ يقول :

كل نسوك ،ولم يعودوا يذكرونك في الحياه
الا فؤادا ،ظل يخفق في الوجود الى لقاك
ويود لو بذل الحياة الى المنية ،وافتداك
فاذا رأى طفلا بكاك ،وان رأى شبحا دعاك

فمع الحزن نجد الشاعر يعبر عن فقدان الوعي بالذهول ،بالشرود لا بالسكر الذى له ايحاء السرور والخلود .

وقلب الأم هنا ألهم الشاعر قصيدة طويلة متدافعة كالسيل ، متدفقة التعبير كالطوفان ، وقد طال نفسه فيها حتى أرضى ،غير أنه انتهى منها فجأة كمن يقطع حديثا انسجم فيه واندمجت فيه الأذن ،فقلب الثكلى لاينسى مهما تتوالت المظاهر بمظاهر الاغراء التى عددها الشاعر في آخر القصيدة وأفاض،حتى كدنا ننسى الموصوف الأصيل في الموضوع،وهو قلب الأم الذى كان السياق يقتضي الشاعر أن يؤكد وفاءه في الختام كما نوه به أثناء القصيدة . (٣)

٢ ـ الأخطاء اللفوية :

لقد وقع الشاعر في أخطاء لغوية كثيرة ،وردت في أشعاره ،ولقد ذكرت

---

(١) : شعب وشاعر ـ الدكتورة نعمات أحمد فؤاد ـ ص ١١٢ ـ ١١٥
(٢) : الديوان ـ من قصيدته في الظلام ـ ص ٦٧ .
(٣) : شعب وشاعر ـ الدكتورة ـ نعمات أحمد فؤاد ـ ص ١٠٥ ـ ١٠٦ .

الدكتورة ـ نعمات أحمد فؤاد من هذه الأخطاء لفظة (عرامى) (١) ،أما الأستاذ عمر فروخ فقد أشار الى أخطاء الشابي في الصرف والنحو والتركيب والقافيه بقوله :

أريد ان آتي بها اختصارا للمكان ،ثمّ أشير الى أماكنها . (٢) ومن هذه الأخطاء التي أشار اليها الأستاذ فروخ ما يلي :

حمانا" بخطف الألف في (نا) ١٣" (٣) .

يا هيكل الحب الرهيب (بالكسر) مكان الرهيبا ٢٥ .

ان في غيبة الليالي لخطيبا (مكان الخطيبا) ٢٦ .

ما أنت ربه فتضيمه (بضم الميم) ١٤٤ .

بأن يسلوه ،أن تذوى ،لأقضي ٣٥ ـ ٥٠ ـ ١٠٣ .

اهمال النصب في الفعل الناقص عند الشابي كثير.

غده ،ينشده ،قصائده ،موارده ،(في القافية) ١٠٦ .

كل نسوك ١٣١ ،الكل ١٣٧ .

لم يعودوا يذكرونك ١٣١ ،لم يعد لي بقاء ١٦١ .

وكيف يكونّ ١٤٠ .

لم يلد (مكان لم يولد) ١٨٠ .

هذه هي الأخطاء التي أشار اليها الأستاذ عمر فروخ ،وقد أثبت بجانبها رقم الصفحة التي وردت فيها في الديوان .

٣ :ـ الألفاظ الغريبة

لقد ذكرت الدكتوره نعمات أحمد فؤاد مجموعة من الألفاظ الغريبة ،ولكنها لم تشر الى القصائد التي وقعت فيها هذه الألفاظ واكتفت بالاشارة الى الصفحات التي وردت فيها وهي كالآتي :

الأسكوب ،الخميس المجرّ صمات الغروب ،معسبات الحياة ،يشجي صماته .

٤ :ـ ايراد صيغة فعيل وفعول بكثرة في شعره ،فهو يقدم الى رواده هذه الألفاظ وكأنها بعض صحبه على حد قول الدكتوره نعمات،ومن الألفاظ التي وردت على هذه الصيغ هي :

العهيد ،السفيح ،الذريف ،ضريج ،شطيف،جفيف ،عبيد ،وهيد ،عسوف ،الفروج .

---

(١) : شعب وشاعر ـ الدكتوره نعمات أحمد فؤاد ـ ص ١٠٧ .

(٢) : الشابي ـ شاعر الحب والحياة ـ الأستاذ عمر فروخ ـ ص ١٢٠ .

(٣) : الديوان الذى اعتمد عليه الأستاذ عمر فروخ ـ هي النسخة الموجودة في مكتبة الجامعة الأمريكية في بيروت وهي تختلف عن النسخة التي اعتمدت عليها إذ اعتمدت على الديوان طبعة ـ دار العودة ـ بيروت ـ سنة ١٩٧٢م . وهو من القطع الصغير قياس ١٣×١٢ .

(٤) : شعب وشاعر ـ الدكتورة نعمات أحمد فؤاد ـ ص ١٠٧ .

٥ :- ومن المآخذ عليه : تجنب الألفاظ الاسلامية :

يرى الأستاذ عمر فروخ أن الشابي كأمثاله من الناقمين على عمود الشعر العربي ،وعلى الحياة العربية الأصيلة ،أراد أن يتجنب الألفاظ الاسلامية العربية الملامح ،ليتبدّل بها ألفاظا وثنية الأصل عامّية الاستعمال ،وخصوصا في طوره المتأخر.

أما الألفاظ التي جانب فيها الاستعمال المألوف عمدا أو جهلا فكثيرة ذكر منها الاستاذ فروخ ثلاث صفحات وقال :

أكتفي منها بهذا (١).

هذه هي أهم المآخذ التي أخذها النقاد على الشابي - ومع ذلك سيبقى الشابي علما شامخا من اعلام الأدب العربي في العصر الحديث.

==========

==========

========

==

=

---

(١) : الشابي - شاغر الحب والحياة - الأستاذ عمر فروخ ص١١٨ .

خـــــاتمـــــــة

لقد أحدث الشابي الشاعر التونسي الفحل ضجة واسعة في الأدب العربي كما اختلفت آراء النقاد والأدباء والمؤرخين له حوله ،فمنهم من تعصب له كالأستاذ الحليوي والدكتورة نعمات أحمد فؤاد في كتابها شعب وشاعر، ومن الكتاب والأدباء تعصب ضده وكان شديد التحامل عليه ،كالأستاذ عمر فروخ في كتابه " شاعران معاصران الشابي وطوقان "ومنهم من حاول الانصاف أو كاد .

والحقيقة أن الشابي الشاعر التونسي العبقري ترك لنا تراثا شعريا ،يعد أكبر بكثير من الفترة الزمنية التي عاشها وخصوصا اذا عرفنا أنه قضى أواخرها بالمرض الذي لم يكن ليرجو منه شفاء ،ومع هذا فان الدارس لشعره دراسة عميقه واعية ،يلمح فيه نقاطا واضحة تكاد تكون محددة، وهذه النقاط هي :

أولا :

كان الشابي رجلا مؤمنا بالله تعالى ،متدينا على الرغم من أنه لم يورد في شعره ما يدل على ذلك صراحة ،سوى بعض أبيات يقرع فيها دعاة الدين الساكتين على الضيم بل الذل الذي تعيش به تونس ،بل ان من ألفاظه ما جعل بعض الأدباء يحكمون عليه بالالحاد والتحلل من الدين ، كالاستاذ عمر فروخ في كتابه السابق الذكر " شاعران معاصران- الشابي وطوقان "

وما يدعم رأينا هذا أن الشابي حفظ القرآن في السنوات الأولى من عمره بل في السنة التاسعة على وجه التحديد ،وتربى في بيت شديد التدين بل ان والده الشيخ محمد بلقاسم ،كان كما أجمعت الآراء - رجلا صالحا متدينا قضى وقته في العمل على احقاق الحق بين الناس،اذ عمل قاضيا تنقل بين أرجاء تونس،هذا علاوة على الثقافة التي تلقاها الشابي في الجامع الزيتونية فقد كانت ثقافة دينية خالصة على الأرجح ،وفوق هذا كله فان هذا الصراخ وتلك العزة التي يدعو اليها ،وما تلك الدعوة الجادة للثورة وطرد المستعمر الا تفسير للعزة التي دعا اليها الاسلام بنص القرآن الكريم حيث قال الله تعالى ((ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين)) صدق الله العظيم.

هذا ولا بد من التنويه من أن الاستعمار حارب الاسلام حربا لا هوادة فيها ،لأنه دين العزة والكرامة ،والاستعمار كما هو معروف لايريد شعوبا عزيزة بل خانعة ذليلة يتحكم بها كيفما شاء ،.

وفي المغرب العربي كله كانت الثورات على الاستعمار ثورات اسلامية ،تنظر

للمستعمرين على انهم كفار احتلوا ديارا اسلامية لابد من اخراجهم منها بالقوة اذا اقتضى الأمر،ولهذا وجدناهم يقاتلون الأعداء بضراوة زائدة ،وقوة وأصالة، وكان آخر تلك الثورات ثورة الجزائر المظفرة التي ضربت أروع الأمثلة في البطولة والنضال، وما القصائد الكثيرة التي نجدها عند الشابي والتي تدعو للعزة والكرامة الا تفسير آخر لتدينه وتمسكه بعزته.

ثانيا :

والنقطة الثانية التي ظهرت واضحة جلية في شعره،هي الحب، ولكن على الرغم من افراط النقاد في نسبة الحب اليه،وتضارب آرائهم حوله ، فاني أرى أن الشاعر كان محبا متيما ،ولكن ليس هذا الحب لبشر ولا لشخص بعينه ،وانما كان حبه لبلده تونس التي عشقها ونذر نفسه لها ،وغناها بكل شعره جبالها ، هضابها ،غاباتها ،بل خصها بقصيدة أسماها باسمها ،وما هذه الألفاظ التي يترنم بها ل ويحسبها القارئ لشعره حبا لبشر معين الا حب لتونس وتونس وحدها ،ولم يتسع قلبه لحب سواها .

أما ما ذكره النقاد والمؤرخون من حبه لفتاة صباه وأخرى لصورة انجليزية ، لم يزد ذلك عن كونه اعجابا بالجمال والجمال فقط،واذا قال فيه شعرا فانما يعبر عن اعجاب في وقت معين ثم ينتهي الاعجاب بانتهاء مسبباته،ذلك أن المحب لايتنقل في حبه الى أكثر من حبيبة كما علمنا المحبون في أشعارهم كجميل بثينه وغيره.

وأما رائعته " صلوات في هيكل الحب" فما أظنه الا يتصور السعادة لتونس بعد استقلالها وحريتها وما في ذلك من هناء ورغد عيش ،وان كانت الألفاظ واضحة صريحة.

أما حبه لتونس فانه ملك عليه كل جوارحه ،اذ كان ينبض بهذا الحب مع كل خلجة في نفسه،بل في كل نبضات قلبه،وما تلك الصرخات الحارة التي نشتم منها رائحة القوة والاندفاع،وما هذه النقمة والثورة والتمرد التي نشتمها في قصائده : الى الطاغية، ارادة الحياة وغيرها الا دليل واضح لا لبس فيه على هذا الحب.

أما ما قيل عن حبه لوالده فلم يزد عن كونه عاطفة جياشة ،فياضة ، متدفقة نحو الوالد ،لأن حب الوالد يرتبط بالحنان والترابط الأسرى، ولا يقتصر هذا على الشابي فقط بل يوجد عند غيره من الشعراء خاصة والناس عامة ،واذا وجدناها عند الشابي أكثر من غيره ،ذلك لأن الظروف التي عاشها الشابي تختلف عن ظروف غيره ولهذا كان تضرره أكثر من غيره بوفاة والده،خصوصا وأن هذا الوالد كان يكفيه كل الأمور الحياتية، بل كان يتحمل عنه المسؤولية كاملة،فلما مات هذا الوالد أسقط في يد الشابي وارتبكت أموره،فجاشت عاطفته بالشعر رثاء لهذا الوالد وان لم يتماطاه من قبل.

ثالثا :

والنقطة الثالثة التي بدت واضحة في شعره ،هي تلك الرمزية التي تدعم حبه لوطنه

واخـلاصـه لهذا الوطن ،وتتجلى الرمزية في قصيدته الرائعة " أغـاني الرعـاة" وهذا الرمزية سواء جـائته من المهجر أم من غيره ،الا أنـه أجـادهـا ،بل بلغت في شعره الذروة ،ومـا أظن الحـديث الذى يسـوقه الـى خرافه الا حـديث رمزيّ الى الشعب النائم الذى يستحث على النهوض والتمرد والثورة لطرد المستعمر،حـتى في محـاكاتـه الطبيعة ،فانـه يحاكي جزء مـن تونـس،الـتى وهبها حيـاتـه وأخلـص لهـا .

واذا كانت الرمزية باتت واضحـة في شعره ، الا أنها ليست جديدة في الشعر،وانمـا تكثر عند الشعـوب المقهورة ،الـتى لا تستطيـع أن تعبّر عـن رأيهـا صراحـة ،وانما تكنّى لـذلك بالحيـوانـات وغيـرهـا مـن مظاهر الطبيعـة ،وانظر اليـه في أغاني الرعاة يقول :

أقبـل الصبح جميـلا ،يملأ الأفـق بهـاه
فتمطّـى النحـل حـواليهـا ،أهـازيجا طراب
لـم تدنـس عطرهـا الطـاهـر أنفاس الذئـاب
لا ولا طـاف بهـا الثعلـب فـي بعض الصحـاب

فأظنه لم يخطر ببـالـه الثعلـب ولا الذئب من قريب أو بعيـد ،وانمـا عـنى هنـا المستعمرين الذين يروغون كـما تروغ الثعالـب،ويفعلـون فعل الذئاب الـتي لا تقنع بشاة وانمـا تقتل الكثير مـن الشياه وان لم تكـن بحـاجـة الـى لحمهـا ،وانمـا تقتل لمجرد القتل فقط.

ويستطرد الشابي في المـقـارنـة بـين حيـاة الغـاب وهـي الحيـاة الـتي يتصورهـا لشعبـه بـما فيها مـن نعيم وحريـة وسعادة ورخـاء ،وحياة مجتمعـه الذى يعيش فيـه ، وهي حيـاة يسـودهـا الرعـب والقهر والظلم ،والأشباح ،أشبـاح الظلام.

==========

==========

==========

======

==

=

(١٧٢)

بسم الله الرحمن الرحيم

==========

خطة البحث

المقدمة

==========

الحياة العامة في تونس قبل الشابي

ظروف الحياة العامة في تونس في عصر الشابي

الشعر في تونس في حياة الشابي

الباب الأول

==========

حياة الشابي ومولده

نشأة الشابي ودراسته

موت والده

أثر المرض في حياته.

زواجه.

آثار الشابي.

الباب الثاني

==========

أضواء على شخصية الشابي وعناصرها وأثرها في شعره.

مصادر ثقافته.

أثر الأدب المهجري في الشابي.

تأثر الشابي بجمال بلده تونس وبما فيه من تعس وفقر.

أثر مدرسة أبوللو في الشابي.

الباب الثالث

==========

صدى الشابي في الشرق العربي.

أصدقاء آخرون.

نسيان مؤقت.

كتاب واحد.

جيل جديد.

تطور جديد.

مهرجانات الذكرى.

رائـــــد جـــديـد .
أخطـــــاء وأوهـــــام .
أخطـــــاء جـــــديـدة .

الفيـــــاب الـرابـع
==========

الثـورة فـي شـعر الشـابي ـ دوافعهـا واتجـاهـاتهـا .
دوافـــــع الثـورة عنـــد الشـــابي .
كفـــــاح الشـــــابـــي .
رســـالـــة الشـــــــابـي .
يقظـــة الاحســـاس وأثـرهـا في الفرد والجمـاعـة .
الشـابي ومـأسـاة وطنـه .
الشـــابي ومـأســاة مجتمعـــه .
مـوقف الشـــابي مـن السفـور والحجـــاب .
رأى الشـــابي في الأدب والـشعر العربي القـديم .
الشعر والشـاعر فـي رأى الشـــــابي .
اتجـــاهـــات الثـورة فـي شـعر الشـابي .
الثـورة الأدبيـة .
الثـورة السيـاسيـة والاجتمـــاعيـة .
اثـارة الشعب ضـد الظلم والطغيـان والـذل والجمـود .
تهـــديـد الظـالمين والطغـاة وثـورة الشعب وسيلـه الجـارف .
روائـــع الشـــابي في هـذا الميـدان .
الفـــــــــــاب الخـــامـــــــــس .

==========

الحـــــب وصـوره فـــي الشعر عنـد الشـابي .
صـور الحـب عنـد الشـابي .
حـــب الأرض والـوطن .
حـــب المـرأة .
حـــب والـــده .
حـــب الحيـــاة .
حـــب الطبيعـــة .
الفـــــاب السـادس

==========

خصـــائص شعر الشـابي ومـوقف النقـاد منـه .

الأســـلوب.

الـــتركـــيب.

الصنـــاعـــة اللـفظيـة والمعنـويـة.

الخصـــائص اللفظيـة والرمـــز.

العـــاطفـة والعقـل.

الخيـــــــــال.

الجـد والهـــــزل.

النفـــس الـشعرى .

أوزان الشـــابي وقـوافيـه.

الـــــــــآخـــــــذ

==========

الأخطـــاء اللـغويـة

الألفـــاظ الغـريبـة.

الخـــاتـــــــة.

==== ==========

==========

========

===

=

المراجع والمصادر

١ :- الشابي شاعر الحب والحياه - الأستاذ عمر فروخ - دار العلم للملايين بيروت - سنة ١٩٦٠م.

٢ :- الشاعران المتشابهان - الشابي والتيجاني - أبو القاسم محمد البدري - القاهره - دار المعارف بمصر - لم تذكر سنة الطبع.

٣ :- شعب وشاعر - الدكتوره نعمات أحمد فؤاد - مطبعة السنة المحمدية القاهره - سنة ١٩٥٨م.

٤ :- الشابي وجبران - خليفه محمد التليسي - دار الثقافة بيروت - الطبعة الأولى - سنة ١٩٥٧م.

٥ :- ديوان أبو القاسم الشابي " أغاني الحياه" - أبو القاسم الشابي دراسة وتقديم الدكتور عزّ الدين اسماعيل - دار العودة بيروت - سنة ١٩٧٢م.

٦ :- آثار الشابي وصداه في الشرق - أبو القاسم محمد كرّو - المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر - بيروت - سنة ١٩٦١م.

٧ :- الشابي شاعر الخضراء - حمدي محمد عبد الوهاب - الدار القومية للنشر - ١٩٦٤م. - لم تذكر سنة الطبع بالتحديد وانما ذكرت سنة ما بعد الستين خالية من الأرقام ،ومكان الرقم علامة استفهام.

٨ :- دراسات في الشعر العربي المعاصر - الدكتور شوقي ضيف - دار المعارف بمصر - طبعة ثانية - سنة ١٩٥٩م،

٩ :- الشابي حياته وشعره - أبو القاسم محمد كرّو - منشورات دار مكتبة الحياة ببيروت - الطبعة الثالثة - سنة ١٩٦٠م.

١٠ :- أبو القاسم الشابي - شاعر الحب والثورة - رجاء النقاش، دار العلم - بيروت - سنة ١٩٦١م.

١١ :- الرومانطيقية ومعالمها في الشعر العربي الحديث - عيسى يوسف بلاطه - الطبعة الأولى - سنة ١٩٦٠م. - بيروت - دار الثقافة.

١٢ :- رائد الشعر الحديث - الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي - الطبعة الأولى - القاهره - سنة ١٩٥٣م.

١٣ :- كفاح الشابي - أبو القاسم محمد كرّو - دار الشرق الجديد - الطبعة الأولى - بيروت - تشرين الأول - سنة ١٩٥٤م.

١٤ :- شاعران معاصران - الأستاذ عمر فروخ - الطبعة الأولى بيروت - دار الثقافة - سنة ١٩٦٠م.

١٥ :- مذاهب الأدب - الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي الطبعة الأولى - القاهره - سنة ١٩٥٣م.

١٦ :- الغزل - الدكتور ساسي الدهان - الجزء الأول - القاهره - دار المعارف - لم تذكر سنة الطبع.

١٧ :- الغزل - الدكتور ساسي الدهان - الجزء الثاني - القاهره - دار المعارف - سنة ١٩٥٤م.

١٨ :- قضايا الشعر المعاصر - الدكتور أحمد زكي أبو شادى القاهره - الشركة العربية للطباعة والنشر - سنة ١٩٥٩م.

١٩ :- قضايا الشعر المعاصر - نازك الملائكة - بيروت - منشورات دار الآداب - سنة ١٩٦٢م.

٢٠ :- الاتجاهات الأدبية الحديثة في الأدب العربي الحديث - أنيس خورى - بيروت - دار العلم للملايين - سنة ١٩٦٣م.

٢١ :- الأعلام - خير الدين الزركلي - القاهره - المطبعة العربية - الطبعة الثانية - سنة ١٩٥٩م.

٢٢ :- الشعر المعاصر في ضوء النقد الحديث - مصطفى السحرتي مصر - مطبعة المقتطف والمقطم - سنة ١٩٤٨م.

٢٣ :- مصادر الدراسة الأدبية - الدكتور يوسف داغر - صيدا - مطبعة دير المخلص - سنة ١٩٥٠م.

٢٤ :- الشابي حياته وشعره - أبو القاسم محمد كرّو - منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت - الطبعة الثالثه - سنة ١٩٦٠م.

==========

==========

==========

=======

===

=